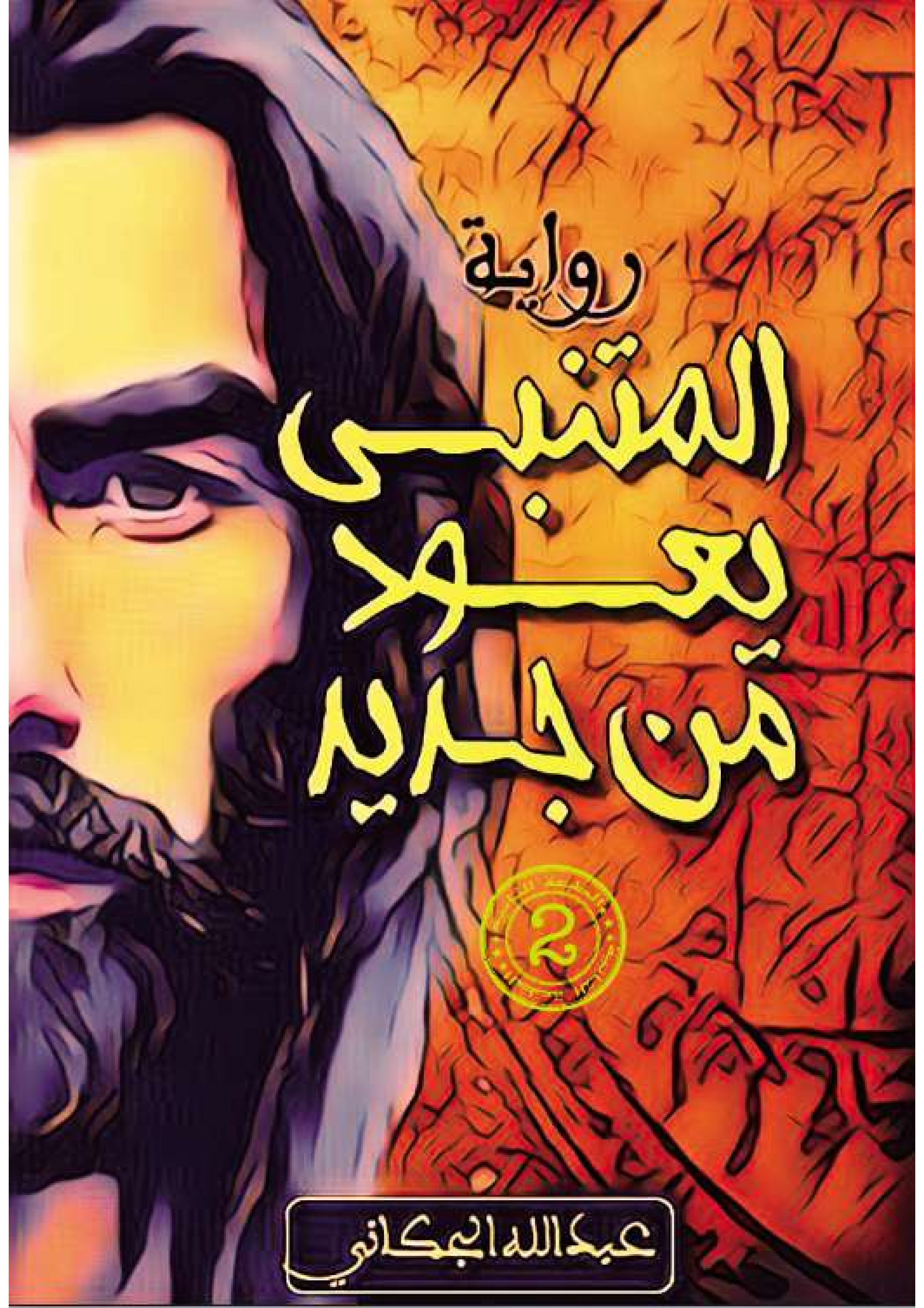

رواية
المتنبي
يعود
من جديد
2
عبدالله البكاني

دار تسراس للنشر والتوزيع

المتنبي يعـــود من جديد

Editions Tisrasse



الناشر

دار تسراس للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني

editiontisrasse@gmail.com

distributionstisrasse@gmail.com

الكتاب

المتنبي يعود من جديد

الكاتب

عبدالله الجكاني

التنسيق الداخلي وتصميم الغلاف

عبدالله الجكاني

الطبعة

الثانية ،2019

الترقيم الدولي

ISBN :978-9920-9529-4-1

روايـــة

المتنبـــي

يعـــود

من جديـد

عبد الله البكاني

إهداء

لجميع من على هذه الأرض

ولجميع من تحتها..

فصول الكتاب:

- بعد التخـرج..
- دافيد.. والحبر الروحاني..
- في أحضان تافراوت..
- مقابلة الشريف..
- استدعـاء المتنبي..
- شاعر العربية الأول..
- الكنـز..
- من المافيا إلى الإسم الأعظم !
- السطو على البنك المركزي..
- الحيرة..

بعد التخرج

كنت أراقبه بفضول وترقب شديدين وهو يحملق شاردا في لوائح النتائج المعلقة خلف العازل الشفاف.. تساءلت في نفسي: أتراه حقا يفتش عن اسمي كما طلبت منه؟.. أم أنه ينظر إلى تصفيفة شعره التي انعكست على الواقي البلاستيكي؟.. لا غرابة في ذلك، فجميع الطلاب يعلمون أن يوسف الأسمر مهووس بشعره.. فجأة رفع حاجبيه المقوسين، والتفت إلي مبتسما:

- هنيئا لك يا أحمد ! لقد استوفيت جميع المواد ! ..

كلماته هذه أرخت ملامحي، ورسمت الابتسامة المعهودة على محياي.. لأتنفس الصعداء وأقول: " الحمد لله لقد نجحت!.. أنا الآن مجاز!"..

لكن، سرعان ما قررت التأكد بنفسي؛ واخترقت زحمة الطلاب متوغلا وسط التدافع والضجيج، إلى أن وضعت يدي على اللائحة ووجدت اسمي في زاوية الورقة.. تمعنت جيدا في نقطي، تلوتها في نفسي، مرة، مرتين، مرات عديدة.. في تلك الأثناء ما عدت أشعر بثقل أجساد من حولي، وما عدت أسمع أصواتهم.. انعزلت لبرهة من الزمن مع لائحة النقط اللعينة، أجرد النقط العالية من المنخفضة، وأميز العادلة من المجحفة، أشكر أساتذة وألعن آخرين.. أحسست بيد تمسكني من ذراعي وتجرني خارج جمهرة الطلاب.. إنه يوسف مجددا..

- يا أحمد.. ألم تكتف من المعاينة؟! ألا تصدق أنك نجحت؟!
- بلى.. وأنت كيف كانت نتائجك؟ هل استوفيت المواد؟
- لا، لقد استوفيت مادتين فقط.. سأضطر إلى تكرار عام كامل مرة أخرى!

- صبرا يا يوسف صبرا، ابذل جميع ما في وسعك السنة القادمة، ولا تنس أن الخير فيما اختاره الله..

كان ينصت إلي مبتسما، لكن نظرته الحزينة عكست واقع المغلوب على أمره.. فربتت على كتفه دون أن أتكلم محاولا قدر الإمكان أن أجعل ملامح وجهي معبرة عن تضامني معه في محنته.. لم أكن أنافقه.. فأنا أيضا من الذين تذوقوا طعم الفشل الدراسي وشربوا من كأسه المر، سيما وأنني من قدماء الكلية الذين ارتضوها مقرا وسكنا لسنوات.. والأكثر مرارة في ذلك كله، تكرار عام كامل بعيدا عن أهلك، بعيدا عن حيك، غريبا وسط مدينة كبيرة.. تخيل إعادة سنة كاملة من العزلة والوحدة، وتعب التنقل بين الحافلات، وهم الاستعداد للامتحانات، إلى غير ذلك من الأمور المزعجة التي يكره يوسف مجرد سماعها.. ناهيك عن معايشتها كل يوم.. إنه ابن قرية صغيرة تقع في ضواحي ورزازات، يعرف طرقها وتضاريسها كما يعرف خطوط يده.. أما في مدينة البيضاء فإنه يضيع.. ويضيع.. ويضيع..

بدأ يتمتم بعبارات لم استطع سماعها.. ظننت للحظة أنها شتائم أمازيغية، وظللت أحدق إليه فيما شرعت سيقانه في جر جسده النحيل نحو مخرج الكلية.. ناديته، ثم التفت إلي.. ونظرت إليه بحاجبين مقطبين وأنا أعصر قبضة يدي.. فابتسم ولوح لي بيده مغادرا، بعدما فهم من حركتي تلك حثي له على الصبر والتمسك بالأمل.. لم أكن مبتهجا بنجاحي، ولم أكن لأحزن كما فعل يوسف لو أنني رسبت مرة أخرى.. بيد أنني كنت أقاسمه مشاعر الاغتراب في مدينة البيضاء التي هاجرنا إليها قصد الدراسة والعمل معا.. ولعل هذا ما منعني من لومي على تخرجي المتأخر؛ فموازاة الدراسة مع العمل كانت أمرا صعبا.. لقد أجبرتني ظروف الحياة على العمل، كما أجبرتني ظروف العمل على تفويت المحاضرات.. من وجهة نظري، كانت هذه الظروف

كافية لأعلق فشلي على شماعة القضاء والقدر. علما بأنني من الذين يتمتعون ببنية روحية زاهدة لا تتكلف التعب والجدية في أمور الدنيا الفانية.. كثيرا ما كان خالي "علي" يصر على كون حالتي هذه تهاونا وكسلا، لا زهدا، وكان يقول لي: "كيف تعتبر نفسك زاهدا وأنت لا تملك شيئا لتزهد فيه؟! إن الزهد الحقيقي يكمن في خلو القلب من الدنيا، لا في خلو اليدين منها .."

أذكر أيضا أنه كان يوما استثنائيا وحماسيا كما اعتادت أيام الإعلان عن النتائج أن تكون.. عيدا لفريق من الطلاب، ونكسة لآخرين، منهم من زغرد ابتهاجا، ومنهم من رقص فرحا، وآخرون انخرطوا في وصلات من البكاء والأسى.. وبين هؤلاء وهؤلاء، صنف آخر من الطلاب لا هم لهم بالنتائج، بل لا هم لهم بالدراسة أصلا.. لاتستهويهم المحاضرات، بقدر ما يستهويهم المرح.. ساحة الكلية، مقصفها، حديقتها، هي أكثر الأماكن التي يترددون عليها.. تارة يلعبون الورق، وتارة يرقصون، وأحيانا يغنون.. لكن أكثر ما أعجبني وحرك غريزتي الساخرة؛ هي مشاهد اجتماعهم لالتقاط الصور الذاتية.. حين يقفون، ويجلسون، ثم يتمايلون موزعين ابتسامات هنا وهناك، يخيل لي أنهم المنتخب الألماني بعد التتويج بالكأس الذهبية..

هذه المشاهد كانت دائما لتذكرني بالفئة الأخرى من الشباب، أعني الذين لم يشأ القدر أن يكون لهم انخراط في صفوف الدراسة وأسلاكها.. استحضرت أمثلة لشباب أعرفهم، منهم أميون، وآخرون تكفلت قساوة الظروف بطردهم خارج أقسام الدراسة باكرا.. منهم من احترف مهنة ما وأسس استقرارا عائليا وماديا مريحا، منهم من غادر الوطن، وآخرون وقعوا في مستنقعات الإدمان والجريمة لا يجدون عنها مصرفا وبديلا..

لطالما تساءلت.. من الأكثر شعورا بالأسى؟! هل هم الذين لم يتمكنوا من إتمام الدراسة؟!.. أم هم الذين نجحوا في إتمامها ليستقروا في أحضان

البطالة والاكتئاب عاطلين يقضون اليوم بطوله جلوسا في المقاهي؟!. أهذا فعلا ما يستحقونه بعدما أفنوا عمرا بأكمله على مقاعد المدارس؟!.. استحضرت أيضا أول يوم لي في المدرسة.. يوم كنت مرعوبا، أرمق جدران حجرة الدرس بعيني البريئتين، وشفتاي ترتجفان بين خدي اللماعين، واللذان امتلآ اليوم من شعر لحيتي بعد أن ناهزت الخامسة والعشرين..

كثيرة هي الخواطر التي جالت بذهني في ذلك اليوم وأنا أخطو نحو مخرج الكلية مارا بالرواق الطويل.. قبل أن يستوقفني صوت مألوف يناديني:

- أحمد!.. أحمد! ..

استدرت.. فإذا به زميلي المهدي يشير علي بالانتظار.. كان يتقدم مبتسما بخطوات مسرعة وانعكاس شمس يونيو الحارة يبرق على جبهته العريضة.. وقبل أن يبادر بالحديث، شمر عن ساعديه وبرزت عضلاتها التي تمخضت عن شهور طويلة من رفع الأثقال.. تهللت ملامح وجهه، تلعثم قليلا، بلع ريقه، ثم صاح:

- لقد نجحت!!

عانقته وصافحته بحرارة وأنا أضحك:

- لقد سررت بنجاحك يا مهدي!
- أنا أيضا مسرور بنجاحك يا أحمد! لقد اطلعت على نتيجتك.
- لن أستغرب ذلك، فأنفك المعقوف يفضح فضولك! .

رد ضاحكا :

- إنه أمر طبيعي؛ فأنت صديقي وزميلي.. أرى أنك لا تزال مولعا بقراءة كتب الفراسة!..

أجبته بنبرة ساخرة:

- أجل، ألا تعلم أنني مدمن عليها قبل ميلادك؟
- كلا لا تبالغ!.. أنت تكبرني بسنتين فقط !
- بل سنتان وعشرة أشهر! ..

كنا نتجادل ونضحك في الآن نفسه؛ كان أمرا طبيعيا بالنسبة لشخصين يفهمان بعضهما جيدا ويتقاسمان العديد من الاهتمامات.. كنت أتقبل نقده لي ونصحه لما يملكه من قدرة عالية على تحليل الأمور.. وهو أيضا لم يكن ليتحرج من سرد مشاكله الخاصة علي، والتصرف معي على سجيته دون تكلف أو تصنع. ولعل ما ميز صداقتي به عن غيره من الأصحاب، يكمن في ولعنا المشترك بالروحانيات والماورائيات، وكل ما يتعلق بالعوالم الغيبية..

ثم سألني وهو يضع يده على كتفي:

- هل رسب يوسف الورزازي؟! لقد بدوت لي قبل قليل وكأنك تواسيه..

فأجبته متحسرا:

- أجل.. لقد رسب مجددا!..
- المسكين، حظه عاثر.. لو أنه ترك الجامعة واستثمر وقته في بيع الأقنعة التي يصنعها لكان خيرا له!
- بربك؟! من سيشتري أقنعته المرعبة تلك؟! إنها أقنعة موسمية لا يلقى بيعها رواجا إلا في عاشوراء!
- لا تنس أنه من ورززات.. يمكنه استغلال موهبته هذه في مجال السينما..
- ممم عجبا، لم تخطر لي هذه الفكرة.. لقد بدأ مخك بالتفكير مجددا يا مهدي، لا شك أنه تأثير خبر النجاح السار..

عقب ضاحكا وهو يفرك قفاه:

- ربما.. لم لا تأتي معي إلى منزلي لنتناول وجبة الغذاء معا، لقد أعدت أمي دجاجا محمرا..

فأجبته وأنا أمرر يدي على بطني مبتسما:

- لذة الأطباق التي تعدها أمك لا تقاوم! لكنني على عجلة من أمري.. يجب أن ألحق بخالي في متجره؛ لقد تأخرت عن العمل ! .. هيا إلى اللقاء..
- إلى اللقاء أحمد..

تركت المهدي عند باب الكلية دون أن أخبره بأنني أنوي الرحيل عن المدينة؛ ربما لأنني لا أحسن التعامل مع لحظات الوداع.. أو لأنني لم أكن رقيقا كفاية لأرى أن الوداع أمر يستحق الاهتمام!..

***

عندما وصلت إلى سوق الأثاث، كان خالي "علي" يجلس أمام متجره، يرتشف من فنجان القهوة وبطنه البارز من قميصه الأبيض يشكل زاوية قائمة مع صدره.. لطالما اشتكى لي من حجم بطنه الكبير، ولطالما حاول الالتزام ببرنامج رياضي وحمية غذائية للتخلص من دهون جسده المتراكمة. إلا أن حبه للطعام الدسم وضيق وقته؛ حال دون تحقيق رغبته في التنحيف..

للوهلة الأولى من رؤيته سيذهب بك الظن إلى تصنيفه ضمن الظرفاء المشاكسين، والحال أنه شخص عاقل لبيب، ذو ميول صوفية لا يظهرها لعموم الناس، خصوصا زملاءه في السوق، فأغلبهم ذوو مستوى معرفي وديني متوسط، لا يستطيعون إدراك مفاهيم التصوف والسلوك، ومجرد سماعهم لشيء من ذاك القبيل؛ كفيل باتهامهم له بالشرك والضلال..

اجتزت صف المتاجر المتراصفة وأنا أقترب منه على مهل لكي يتسنى لي إفزاعه قبل أن ينتبه لقدومي.. وقبل أن أهم بفعلتي وأستمتع بمشاهدة تعابير الفزع اللاإرادية عليه، لمحني بطرف عينه وبادرني بالسؤال دون أن يلتفت إلي:

- تأخرت كثيرا!.. أين كنت؟!
- لقد أخبرتك البارحة أنني سأقصد الكلية لأرى نتائجي، لكنك نسيت مجددا!..

حينها التفت إلي، ورد علي بلهجة صارمة :

- لم أنس.. لكنها الرابعة عصرا! لقد تأخرت كثيرا!.. سأخصم هذا اليوم من أجرتك!..

أجبته ضاحكا :

- ما من مشكلة يا رب العمل؛ فهذا اليوم لا يتكرر دائما، إنه يوم الإعلان عن النتائج النهائية!.. أتفهم ما معنى النهائية؟!

أجابني وهو يحاول أن يكتم ضحكته:

- أجل.. إنه يوم الحصيلة، يوم جني ثمار ست سنوات من ترددك الفاشل على الكلية أيها البليد.. لا تقل لي أنك رسبت مرة أخرى!
- لا، لقد نجحت!.. ولعلمك، لم يكن للبلادة دخل في رسوبي طيلة السنوات الماضية؛ كل ما في الأمر أنني لم أحضر الامتحانات..

تبسم ضاحكا و ضرب على كفي:

- هنيئا لك يا ابن أختي!.. مبروك!..
- شكرا لك خالي..

نهض عن كرسيه الخشبي.. ووضع فنجان القهوة على حافة الرصيف الإسمنتية، ثم دخلنا المتجر.. وجلس على مكتبه فيما بدأت بانتشال شراشيف كانت ملقاة على الأرضية الرخامية. ثم شرعت في إعادة طيها، مرجحا أن يكون خالي قد ألقاها في لحظة غضب من زبون رفض أن يدفع لها ثمنا مناسبا.. ضحكت في نفسي من طرافة الأمر وأنا أعيدها إلى مكانها، ثم انهمكت بنفض الغبار عن مجموعة من الستائر المعلقة..

شعرت بنشاط كبير ساعتها.. لدرجة أنني صعدت إلى العلية وقمت ببعثرة المئات من الوسائد، ثم أعدت فرزها وترتيبها مرة أخرى دون أن أعلم ما إن كان نشاطي ذاك نابعا من سعادتي بكونه آخر يوم لي في المتجر، أو من علمي المسبق بأنني سأحن إليه بعد أن أمضيت فيه ست سنوات كاملة.. ولعل ما يرجح الاحتمال الثاني؛ هو قيامي في تلك العشية بالكنس، مع أنني لم أعتد الكنس إلا صباحا..

أذكر أنني عانقت المكنسة لساعة كاملة، قبل أن يصيح خالي منفعلا ويضرب سطح المكتب بقبضة يده؛ لأترك المكنسة من يدي مستغربا.. وأسأله:

- ما بك يا خال؟!
- إنها الضرائب!.. هذه الضرائب تكلفني الكثير كل عام!.. هذا دون غلاء الأسعار، وركود سوق المفروشات التي نستوردها، وكثرة الديون التي لنا وعلينا.. تجارتنا تسير نحو البوار! تبا للحكومة!..
- غريب أمرك يا خال، لقد أصبحت كثير الشكوى.. ألست من كان يقول بأن لا نشكو همنا إلا لله؟! وبأن كل ما يصيبنا هو من تدبيره عز وجل.. وبأني يجب أن أرى بعَيْنَيْ الشريعة والحقيقة لا بعين الشريعة فقط.. والآن صرت تلعن الحكومة.. لماذا نسيت بأن قراراتها لا تخرج عن إرادة الله وتصرفه في كونه؟! لماذا أصبحت ترى بعين واحدة

كالعامة من الناس؟! أم أنك تريد أن تجد أعذارا لكي تماطل في دفع أجرتي؟ لقد كشفتك يا عم! ..

شرعت في الضحك، فيما شد على يدي محاولا أن يبدو بوضع جسدي أكثر إقناعا لإيصال فكرته:

- يا أحمد، أنت لن تتفهم؛ لأنك لست متبوعا بمسؤوليات مثلي، أنت لست متزوجا، ولا تعيل عائلة، ولا تدفع فواتير كثيرة.. ما أحاول قوله، أن قرارات الحكومة تجر عليها سخط المواطنين، ولولا أن الله من علينا بسلطان من السلالة الشريفة، لقامت الثورة ولعم الخراب بلادنا..

لم أعقب على كلامه؛ لأنني كنت على علم بخصوص اعتقاده الذي يربط أمان البلاد بتواجد الأشراف على سدة الحكم.. كثيرون هم الذين لا يوافقونه اعتقاده، ويفسرون الأمان الذي يعيشه الوطن بطبيعة تحالفاته الدولية، لكنه دوما ما كان يجادلهم متحججا بأن أهل بلادنا هم الذين آووا الأشراف ونصروهم، بعد أن طالهم القتل والاضطهاد في المشرق، وبأن الرب يمن علينا بالأمن لأن أجدادنا نصروا أبناء حبيبه صلى الله عليه وسلم..

فاسترسل حديثه :

- إذا استمرت الأحوال على ما هي عليه فقد اضطر إلى الاستثمار في مجال آخر قبل أن يتدهور الوضع إلى ما لا تحمد عقباه..

ثم سكت، وتناول شربة ماء من قنينة بجانبه.. قبل أن يستأنف قائلا:

- قل لي.. ما الذي تنوي فعله بعد تخرجك؟ هل ستتم الدراسة؟ أم أنك ستبحث عن وظيفة؟

أجبته :

- لا أدري.. لكنني سأعود إلى البلدة ريثما يتوصل تفكيري إلى قرار سديد.
- ومتى تنوي الذهاب؟
- غدا إن شاء الله.. ولا تكترث لأمر من يساعدك، لقد طلبت من صديق لي أن يحل مكاني..

صمت قليلا، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج مبلغا من المال.. قام بِعَدِّه، ثم أعطاني إياه :

- خذ يا أحمد، ضع هذا المال في جيبك، إنها أجرتك.. و معها مكافأة..

لم يطل بنا الحديث كثيرا حتى بدأت أشعة الغروب الذهبية بمداعبة الأفق.. أقفلنا المتجر، ثم ودعت خالي بعد أن طلب مني الاعتناء بنفسي، وإبلاغ جدتي سلامه وتحياته الحارة..

***

عدت إلى مسكني قبل حلول الظلام.. كان عبارة عن غرفة صغيرة على سطح عمارة قديمة.. ومع أنها كانت مسقفة بالقصدير، إلا أنني كنت أجدها أكثر راحة لبالي من منزل خالي الذي لا ينقطع من ضجيج أبنائه المشاكسين.. كثيرا ما حاول إقناعي بالعيش معه في منزله الفسيح، لكنني كنت أرفض ذلك مفضلا الهدوء والسكينة التي أنعم بها في غرفتي الصغيرة..

نظام غرفتي فوضوي دائما.. كتب مبعثرة، وملابس في كل مكان.. هذا دون ذكر جواربي الدائمة الضياع.. أما مطبخي فكان خارج الغرفة، دون باب، ودون سقف؛ الشيء الذي شجع جارتي العجوز وزوجها على الدخول إليه أثناء غيابي.. لم أضبطهم قط متلبسين بجرم التسلل إلى محيطي، لكنني علمت ذلك من الاختفاء المتكرر للسكاكين والكؤوس من مطبخي.. لقد كانوا

يقطنون الغرفة المقابلة، وكانوا غريبي الأطوار.. تارة تعلوا أصواتهم بالضحك والمرح، وتارة أخرى بالشتائم والسباب.. يعانقون بعضهم تارة، ويتقاذفون بالأواني تارة أخرى.. أما جوف العمارة فكان خاليا من السكان، إلا من شخص وحيد ممسوس.. إنه شاب دون الأربعين يدعى "عزوز"، يمضي معظم يومه في شقته دون أن يصدر صوتا، وعندما ينتصف الليل، يبدأ بالصياح كالديك!.. كان على عداوة مع العجوز وحفيدها، وكان ينعتهم بالسحرة.. أما هم، فكانوا ينعتونه بديك الجن المعتوه..

أذكر أنني أمضيت قرابة الساعتين في توظيب أغراضي ليلتها، قبل أن أقوم بإخراج دفاتري ونسخ المحاضرات من الخزانة، وأشرع في تصفحها مطولا.. كنت مترددا ما بين الاحتفاظ بها أو حرقها كما اعتدت أن أفعل بدفاتري القديمة، إلى أن قادني التفكير إلى جمعها في علبة كرتون، وبيعها لبائع المكسرات.. ولعلني فعلت ذلك لكوني من الذين يحرصون على إتلاف كل ذكرى من شأنها أن تخلف حنينا بعدها، ذاك الحنين الذي لطالما اعتبرته ضعفا لا يليق بي..

أذكر أيضا أن فرحي ببلدتي التي تنتظرني، جعلني آوي إلى سريري دون حاجة إلى تناول وجبة العشاء.. لقد فقدت شهية الأكل بفعل الأدرينالين الذي سرى في دمائي، وسهرت محدقا في جدران الغرفة المظلمة إلا من النور الذي ينبعث من مصابيح الزقاق.. كنت أشعر بشوق شديد تباطأت معه دقات الساعة الحائطية على نحو جعل الدقائق تمر وكأنها ساعات طوال، شوق أجبرني على الاستعانة بخيالي لأخفف من حدته الآسرة، فتخيلتني على الحافلة في الطريق إلى الديار، مستمتعا بالمناظر التي تتلاحق تباعا على جانب الطريق، ومستريحا عند كل محطة يقف السائق عندها.. لكنني نسيت التكهن بمن سيجلس إلى جانبي.. وعندما تمنيت أن لا يكون ثرثارا يزعج

مسامعي بقصص من الواقع البئيس؛ أغمضت عيني ثم استسلمت لنوم عميق..

***

في صباح اليوم التالي استيقظت على صوت خشخشة.. احتجت حينها إلى دقيقة كاملة لأستعيد وعيي، وألمح عند سريري نعلين غريبين.. دققت النظر لأدرك أن بالنعلين ساقين. حدقت بالساقين صعودا لأكتشف أنه صديقي المهدي، وعلى ظهره حقيبة..

وبنبرة صوت متقطعة وأنا أفرك عيني سألته مستغربا :

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟! كيف دخلت ؟!

أجاب مبتسما:

- صادفت خالك ليلة البارحة، أخبرني أنك ستعود إلى قريتك بتافراوت.. فقررت أن تصطحبني معك لعلني أقضي بها صيفا ممتعا.. وكذلك لكي تعرفني على المعالج الروحاني "الشريف إبراهيم" كما وعدتني ذات يوم.. أما عن دخولي، فلقد وجدت باب العمارة مفتوحا، فصعدت إليك لأجد باب غرفتك مفتوحا أيضا، ثم دلفت.. وها أنا الآن أمامك، أعتمر قبعتي "النايك" وأحمل حقيبتي الحبيبة..

نظرت إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى التاسعة والنصف.. ثم عدلت من جلستي:

- هكذا إذن!.. لم أشأ إغلاق باب الغرفة لأن الطقس حار كما ترى..

- أجل لقد بدأ جسدي بالتعرق فور دخولي!.. هذا السقف القصديري يضاعف من حرارة الغرفة.. عجبا لك! كيف تتحمل العيش في هذه الظروف ؟!
- عندما تعتاد على شيء ما، يصبح التعامل معه أكثر سهولة.. وهناك من الناس من لا يملكون مأوى.. مقارنة بهم، أنا محظوظ!..
- أجل صدقت!..

قمت من فراشي، واتجهت إلى المشجب.. أزلت عنه سروالي، وأخرجت من جيبه مائتي درهم، ثم سلمتها للمهدي وأنا أشير إلى حقائبي التي وضبتها سالفا:

- خذ هاتين الحقيبتين و اذهب إلى المحطة.. احجز لنا التذاكر وانتظرني هناك، سآخذ حماما لكي ألملم نفسي.. بعدها سأمر على صاحبة العمارة لكي أسلمها المفاتيح، ثم أوافيك عند الحافلات..
- حسنا، سأستقل سيارة أجرة إلى هناك.. حاول أن لا تتأخر!..

حمل الحقائب وغادر متحمسا.. ثم شرعت في إفراغ الغرفة من أثاثها.. وعندما انتهيت منه ، تركته أمام غرفة العجوز جارتي هدية لها، بعدما تخليت لها أيضا عن المطبخ بما فيه.. تأسفت حين حرمني غيابها وقتذاك من أن أتشرف بتوديعها، وأيقنت أنها ستغضب كثيرا من عدم انتظاري لها، وستجول وتصول في السطح وهي تحدج باب غرفتي الموصدة بنظرتها الشزراء، وتقذفها بالأواني التي لا تخطئ في تصويبها. وستسلقني بلسانها البذيء وهي تذكر عيوبي وعيوبا أخرى من تأليفها.. لكنها ستسكن حالما ترى هديتي، وستبتسم وهي تدعو لي باليمن والبركات عندما تدرك أنني وفرت عليها عناء التسلل خفية إلى مطابخ الآخرين..

أخذت حماما دافئا، وارتديت ثيابي.. ثم خلوت بغرفتي أناجيها، وأتأمل جدرانها للمرة الأخيرة.. أذكر أنني أمسكت بالمفتاح ونقشت اسمي على جدرانها.. كثيرا ما كنت أسمع أن للجدران آذانا، ومع ذلك تركت لها ذلك النقش تذكارا لن تنساه ولو تعاقبت عليها أجيال من الناس.. أغلقت بابها، ونزلت الدرج ببطء وأنا أتحسس الجدران.. وحين وصلت إلى باب العمارة، وقفت أمامه لدقائق أنتشي برائحته العتيقة، قبل أن أغادر البناية وأنا أنظر إليها مودعا..

***

كانت الحاجة مريم تاجرة أقمشة.. تستوردها من الصين، من تركيا، من إيطاليا، حسب ظروف السوق ومطلباته.. ورثت عن أبيها الكثير من العقارات والعديد من المعامل، كما تترأس جمعية خيرية تنشط في التكفل برعاية اليتامى ومساعدة الأرامل.. إنها سيدة محسنة، ذات شخصية قوية وطلة جميلة، يقولون إنها تعدت الأربعين، لكن ملامحها لا تشي بذلك.. لم تتزوج قط، ما جعلها مطمع العديد من الرجال الراغبين في الزواج والثراء معا، بيد أنهم لا يجرؤون على المبادرة؛ ويرونها شمسا يصعب الوصول إليها والدوران في فلكها.. وحتى أولئك السفهاء الذين لا تسلم النساء من معاكساتهم، لا ينبسون بكلمة أمامها، ويكتفون بالصمت مسبحين لله على بديع صنعه.. متعجبين من قدرته التي جعلت منها سيدة بألف رجل، إذ أن القليل مما يسمعونه عن سيرة حياتها، كفيل بأن يؤكد لهم أن في النساء من لهن نصيب من قيم الرجولة والشهامة..

عندما وصلت إلى متجرها كان مكتظا بالزبائن؛ ما جعلني أقف أمام واجهته الزجاجية مترددا في أمر الدخول من عدمه.. فكرت في أن أسلم المفاتيح لأحد مساعديها وأمضي في حال سبيلي، لكنها سرعان ما لمحتني،

وأشارت علي بالدخول.. فدخلت، وتمددت عضلات وجهي بابتسامة وأنا ألقي التحية:

- السلام عليكم حاجة مريم!..

فاستأذنت زبائنها واستمهلتهم وقتا حتى ترى حاجتي.. ثم ردت التحية بوجه طلق:

- وعليكم السلام يا أحمد!..
- لقد جئت لكي أسلمك مفاتيح الغرفة.. سأعود إلى تافراوت..

سكتت لهنيهة، ثم نطقت وهي تعدل حجابها الذي تسللت منه خصلات تدلت على جبينها:

- لماذا لم تقم بإخطاري من قبل؟! أم أنك واجهت مشكلة عجلت باتخاذك لهذا القرار ؟!
- لا، لا، مطلقا.. كل ما في الأمر أنني أنهيت دراستي، وما عاد هناك من داع لبقائي هنا..
- هكذا إذن.. وهل ستسافر لوحدك؟
- في بادئ الأمر كنت سأسافر وحيدا، لكن صديقا باغتني قبل قليل بحقيبته، وطلب مرافقتي لأعرفه على أحد المعالجين الروحانيين ثم...

قاطعتني وملامح الاستفسار تعلو وجهها:

- مهلا، هل قلت "معالج روحاني"؟!
- أجل.. معالج روحاني..
- هلا قلت لي اسمه؟
- يسمى "إبراهيم" الجزولي، ويناديه أهل البلدة بالشريف ابراهيم..

عقبت الحاجة باندهاش:

- سبحان الله! لقد حكت لي عنه العديد من السيدات اللواتي زرن "تافراوت".. يقلن إن الله يحقق على يديه الشفاء من السحر والعين، ولقد هممت بزيارته، لكن ارتباطات العمل منعتني.. انتظر؛ سأجلب لك شيئا!..
- حسنا سيدتي..

دلفت الحاجة الشابة إلى إحدى الغرف، وشرعت في التساؤل وأنا أملأ ناظري من فخامة المكان.. ترى ما الذي ستجلبه لي؟! ثم ما الذي يجعل سيدة في مثل ثرائها ورجاحة عقلها راغبة في زيارة الشريف؟!.. أهي مسحورة؟ أم أن عينا أصابتها ومنعت عنها الزواج؟ لطالما كان أبناء الطبقة المخملية ماديين لا يؤمنون بالعين والسحر، أيعقل أن اليأس دب إليها لتلجأ إلى خدمات الشريف؟ !!

كثيرة هي الأسئلة التي دارت في خاطري قبل أن تعود وبيدها ظرف أصفر صغير.. سلمته لي، ثم اقتربت مني وهمست لي وهي تتقي آذان الزبناء :

- قم بإيصال هذا الظرف إلى الشريف الجزولي، إنه أمانة! ..
- حسنا سيدتي، اطمئني سأقوم بإيصاله..

طويته ووضعته في جيبي، ثم أخرجت المفاتيح من حقيبتي، وسلمتها لها على المنضدة مودعا:

- أستودعك الله سيدتي..!
- ليكن طريقك سالما أحمد، في رعاية الله..!

***

كانت الشمس تتوسط السماء وجسدي يرشح عرقا أثناء وصولي إلى المحطة.. العشرات من الحافلات تملأ ساحتها، والمئات من المسافرين يملؤون أرجاءها.. وجوه مشرقة ضاحكة تستبشر بسفر جميل، وأخرى شاحبة قد أرهقها الركوب الطويل.. وحول هؤلاء جميعا، يحوم العديد من الحمالين البسطاء طلبا لأرزاق وافرة، والعديد من النشالين الذين تتحرك أعينهم في كل مكان بحثا عن ضحية غافلة.. وحده الله يعلم مدى كرهي لهؤلاء اللصوص، ووحده يعلم مدى انزعاجي من سماسرة الأسفار حين يلحون علي باختيار حافلات موكليهم.. إنهم لا يكترثون لراحة المسافرين، بقدر ما يهتمون بجمع الأموال ومنافسة الشركات الأخرى.. من حسن حظي أنني كلفت المهدي باقتناء التذاكر، وسلمت من إزعاجهم هذه المرة.. لكنني لم أسلم من تعب البحث عن المهدي.. حاولت مرارا الاتصال بهاتفه، لكن دون جدوى.. بحثت عنه عند مكاتب التذاكر وبين الحافلات.. بحثت عنه في المقاهي المجاورة، وحتى في الحمامات.. بحثت طويلا.. إلى أن أجبرني الجوع على التوجه إلى مطعم داخل أروقة المحطة..

كان مطعما صغير المساحة.. لكن القائمين عليه أحسنوا استغلال الفضاء الذي يحيط به، وجعلوا للمقاعد العمومية التي تجاوره طاولات صغيرة يسهل سحبها أثناء جولات التفتيش.. فجلست إلى طاولة منها، وطلبت من النادل شطيرة وقنينة ماء، ثم انهمكت في مشاهدة العابرين علني ألمح المهدي بينهم.. وفي لحظة من اللحظات نسيت أمر المهدي، حين رأيت أن تلك الرقعة الصغيرة من المحطة كانت مشهدا مختصرا لوطن كبير، رقعة جمعت المغاربة على اختلاف شرائحهم وأعراقهم.. صغارا وكبارا، أغنياء وفقراء، متعلمين وأميين.. كانوا جميعا مجدين في سيرهم، مندفعين وراء همهم وإن اختلفت وجهاتهم ومقاصدهم، إلا شخصا وحيدا كان يستند إلى الحائط المقابل.. كان

كهلا أشعتا بزي أفريقي مزركش، يضم سيجارته بشفتيه، وينفث دخانها برواء مبتسما، ليلاحقه بعد ذلك بعينيه وهو يتلاشى في الهواء كما يتلاشى العفريت.. بدا مسرورا جدا لدرجة استبعدت معها انتماءه إلى هذا العالم المليء بالوجوه المتجهمة.. وعندما استعصى علي فهمه؛ اقتديت بما يفعله العوام أثناء رؤيتهم لحالة شاذة، واعتبرته مجرد مجنون يسبح ضد التيار.. بيد أن الدهر كذَّب ظني عندما ابتعد عن الحائط وتقدم نحوي وهو ينظر إلى شيء ما باتجاهي.. تعقبته بأنظاري قبل أن يتجاوزني ويقف عند الجدار خلفي، ليشرع في تأمل لوحة تجريدية قد رُسمت عليه للتو.. ظل واجما أمامها للحظات ثم انحنى والتقط فرشاة كانت على الأرضية بجانب عبوات طلاء صغيرة.. قبل أن يغمس الفرشاة في إحداها، ويشرع في تلوين فراغات في اللوحة.. لأدرك حينها أنه كان رساما فنانا، لا معتوها مجنونا.. فطفقت أسخر من أحكامي المسبقة متبرّئاً من ظنوني السيئة.. إلى أن أتى النادل بشطيرتي..

قضمت قضمة، قضمتين، وبينما كنت في عز تلذذي، إذا بالمهدي يظهر أمامي لاهثا مكفهرا.. فتوقفت عن المضغ، وصرخت في وجهه قائلا:

- أين كنت أيها المعتوه؟! لقد أتعبني البحث عنك.. لماذا أقفلت هاتفك؟!

فأجابني وهو يضطرب ما بين الإمساك برأسه ومَسْحِ جبهته التي تتصبب عرقا:

- لقد أضعت هاتفي يا أحمد!.. تفقدت جيبي ولم أجده!.. وأثناء بحثي عنه صادفت يوسف الورزازي، فأخبرني أنه ينوي السفر إلى ورزازات.. وعندما أخبرته بسفري معك؛ غير رأيه، وقرر أن يسافر معنا إلى تافراوت، ويمكث معنا أسبوعا ليتسنى له اكتشاف سحر

المنطقة وجمالها.. ثم ابتعنا التذاكر وتركت الحقائب معه.. من حسن حظي أني دخلت هذا المطعم ووجدتك!

أشفقت على حال المهدي، ووضعت الشطيرة على الطاولة متنازلا عن لذتها كطقس من طقوس المواساة، سيما وأن هاتفه يساوى راتب موظف من السلم العاشر، وازداد إشفاقي عليه فور ما تذكرت أنه كد كثيرا في العمل كبناء وسائق شاحنة قبل أن يتمكن من اقتنائه..

- لعلهم سرقوا هاتفك! المحطة مليئة بالنشالين..
- تبا! لم أحتط بما فيه الكفاية!..
- وأين هو يوسف الآن؟
- إنه ينتظر قرب الحافلة.
- هيا بنا إذن..
- انتظر حتى أقتني شطيرة بدوري؛ إنني أتضور جوعا..

***

لم تكن الحافلة بالسوء الذي تخوفت أن تكون عليه. تفرست في إطاراتها، واطمأننت حين لاحظت حداثتها.. ثم صعدنا على متنها، وبدأت عيناي بالبحث عن يوسف بين الركاب وأنا أجتاز مقاعدهم.. شيخ وقور في المقدمة، شباب يضحكون وينبضون نشاطا عن يميني، شابة تحاول إسكات رضيعها عن يساري.. وفي منتصف الممر وقف رجل سمين لترتيب حقائبه على الرف.. استغرق عدة دقائق قبل أن ينتبه إلينا ويتزحزح عن طريقنا؛ لألمح يوسف جالسا في آخر الحافلة وأمامه مقعدان شاغران.. علمت تلقائيا أنهما لي وللمهدي، وجلست على المقعد المحاذي للنافذة، ثم التفَتُّ لأسلم عليه.. وكم

كانت دهشتي كبيرة حين رأيت جاري عزوز الممسوس يجلس بجانبه ويرمقني بعينيه الصغيرتين مبتسما ابتسامته الصفراء المسوسة..

وفيما كنت منهمكا في محاولة فهم ما يجري، تكلم يوسف بلهجة متقطعة تشوبها ضحكته:

- لقد تعقبك عزوز إلى المحطة يا مهدي! كان مختبئا وراء عمود الكهرباء يراقبني بشكل مريب، يطل برأسه ويختبئ.. وعندما علم أنني كشفت أمره، أتى إلي يجر دراجته التي لم يحسن إخفاءها، وأخبرني بأنه يريد السفر معكما لزيارة المعالج..

نظر المهدي إلى عزوز متعجبا، وسأله:

- كيف تعقبتني؟!

فأجاب عزوز بكل بساطة وهو ما يزال يبتسم :

- تعقبتك بدراجتي الهوائية..

لم يغب عني السبب الذي يدفع عزوز لزيارة المعالجين الروحانيين، لكنني جهلت الطريقة التي تقصى بها خبرنا.. فسألته وأنا أحدجه بنظرة ارتياب:

- وكيف علمت بأننا مسافرون إلى المعالج؟!!

وضع يديه خلف رأسه وغاص في مقعده مسترخيا، ثم أجاب وكله سرور:

- لقد علمت ذلك عندما سمعت حديثك مع المهدي بشأنه!.. كنت حينها على سطح العمارة أنفض الغبار عن ملاءتي، وعندما رأيت المهدي خارجا بالحقائب؛ أقفلت شقتي، ثم أخذت دراجتي ولحقت به..

ثم سأله المهدي :

- ولماذا تريد زيارة المعالج؟

فأجابه بصوت منخفض وقد اختفت ابتسامته :

- أريده أن يخلصني من الجنية "سعاد" التي تسكنني !..

انفجر المهدي ويوسف ضاحكين.. لكنهما سرعان ما توقفا عن ذلك عندما فهما من صمتي أن عزوز لا يمزح.. ليسترسل الأخير حديثه:

- لقد زرت العديد من الأطباء والفقهاء، استهلكت أنواعا شتى من الأدوية والأعشاب، لكن سعاد تأبى أن تفارقني!.. نصحني العديد من الناس بزيارة المعالجين السوسيين ..وعندما سمعت حديثكما عن المعالج الروحاني، قررت أن لا أضيع الفرصة من يدي ! وأن أرافقكما إليه!..

في تلك الأثناء كانت الحافلة قد غادرت المحطة، واتخذت الطريق السريع إلى مراكش مسارا لها.. كان المهدي مقبلا على حديث عزوز، ينصت ببالغ الاهتمام والتركيز، فيما كان يوسف من شدة ذهوله ملتصقا بالنافذة، محاولا وضع أكبر مسافة ممكنة بينه وبين عزوز.. صراحة، كنت أتفهم شعور يوسف؛ فمهما حاول، لن يستطيع التكهن بتصرفات المجنون، قد يلكمه أو يخنقه في أي لحظة.. أما أنا فلقد تعودت على تصرفاته، وما عادت تثير استغرابي.. باستثناء مسألة وحيدة كانت تثير فضولي، ودفعتني إلى استفساره عنها:

- قل لي يا عزوز.. دوما ما تصيح كالديك بعد منتصف الليل ! لماذا؟!

تنهد بعمق، وأطرق رأسه.. ثم أجاب :

- إنها قصة طويلة،! يلزمني سردها من البداية لكي تفهمها..
- حسنا.. تفضل يا عزوز، نحن ننصت إليك..
- لقد بدأت حكايتي مع هذه الجنية قبل عشرين سنة.. كنت حينها شابا في سن الثامنة عشر.. فبعد وفاة والدي؛ تزوجت أمي من رجل آخر، وسافرنا للعيش معه في مدينة تطوان.. ولإنني لم أستطع التأقلم مع

الوضع الجديد؛ عدت إلى شقة أبي رحمه الله وأقمت فيها وحيدا.. مع مرور الأيام والشهور بدأت أحس برغبة كبيرة في الانعزال عن الناس والبقاء بمفردي.. وبالتدريج، صرت أتخلى عن أصدقائي الواحد تلو الآخر لسبب أو لدونه، وصرت أتحسس من أي علاقة مع البشر حتى ولو كانت مجرد حوار عابر بسيط.. في تلك الفترة بدأت أرى أحلاما عن فتاة جميلة ترتدي البياض وتسقيني الماء من يديها المخضبتين بالحناء !.. تكرر الحلم معي مرارا.. ثم تطور الأمر، وأصبحت أسمع صوتا أنثويا يهمس لي في أذني يقظة !.. كانت تخبرني أن اسمها سعاد، وأنها معي ولن تتركني.. كان أمرا مرعبا حرمني من النوم لأيام طويلة.. وذات يوم، عدت من الثانوية إلى شقتي منهكا بعد حصة الرياضة.. فتحت باب شقتي، وقصدت المطبخ كي أروي ظمئي بشربة ماء. فصعقت عندما رأيت فتاة جميلة سمراء بشعر أسود طويل تتناول بقايا عظام وجبة الغذاء.. وقفت في مكاني مرعوبا أرتجف.. نظرت إلي، ثم مرت من أمامي مثل الرصاصة وتبخرت عبر الجدار. فتسمرت في مكاني مشلولا، ثم سقطت صريعا أتخبط.. عندما استعدت وعيي صباح اليوم الموالي، وجدتني على سريري، وإلى جانبي وجبة الإفطار وإبريق الشاي ما يزال ساخنا ! ظننت للحظة أنها أمي جاءت لتزورني، فقمت مسرعا إلى المطبخ.. لأجد الفتاة السمراء مجددا ! شعرت بالخوف وحاولت الهرب ! لكنها استوقفتني، وهدأت من روعي.. أخبرتني أنها سعاد وبأنها جنية مسلمة ولدت وترعرعت معي في البيت، وبأنها تعشقني وتريد الزواج مني !.. في البداية وجدت صعوبة في تصديق ما يحصل، لكن ومع مرور الأيام، تأثرت بطباعها العفوية وقدرتها الكبيرة على فهمي، فبدأت بتقبل الأمر، بل وأصبحت أحبها أيضا..

عرضت الأمر على أحد الفقهاء، فنصحني بالابتعاد عنها والإكثار من الذكر وتلاوة القرآن، لكنني لم آخذ بنصيحته.. ولأنني صرت مدمنا عليها؛ وافقت على الزواج منها، وتم عقد القران بطقس غريب ! حيث قامت بغلي خصلة من شعري في ماء المطر، ثم شربنا من بعضه وغسلنا أقدامنا بما تبقى منه.. مرت الأيام الأولى من الزواج على أفضل ما يرام ،خصوصا وأنها كانت تتشكل كل يوم في صورة مختلفة، شقراء ! صهباء ! سمراء ! كما كانت لا تبخل علي بتحضير أشهى صنوف الأكل والشراب !.. لم أكن أنفق شيئا من مالي، ولم أكن مضطرا للعمل؛ كانت توفر كل شيء !.. لكنها بالمقابل، كانت تطلب مني عدم زيارة أقاربي، أو السماح لهم بزيارتي، ومن ضمنهم أمي.. فخسرت أهلي بعدما خسرت أصدقائي. وبدأت أحس بأنني عبد مملوك فاقد لحريته وإنسانيته.. افتقدت حياتي التي كنت عليها، وتحولت عيشتي إلى ملل وكآبة قاتلين، فقررت بعد تفكير طويل رمي يمين الطلاق على سعاد.. لكن هيهات، لم يكن الأمر بالبساطة التي تخيلتها؛ فعندما صارحتها برغبتي في الطلاق؛ ثار غضبها، وقالت إنها تملكني ولن تسمح لي بتركها، بل تطور الأمر إلى تهديدي بالقتل.. عندئذ أدركت فظاعة المصيبة الذي تورطت بها، وندمت على اليوم الذي سمحت فيه لنفسي بالزواج منها.. قصدت فقيها آخر وحكيت له قصتي.. فقرأ علي القرآن وصرع الجنية؛ فاختفت لشهر، لكنها عاودت الظهور.. وأصبحت تتراءى لي كل يوم بعد منتصف الليل، على شكل معزة مجنحة مرعبة.. معزة بعينين كبيرتين حمراوين، وأنياب بنية طويلة، ترفرف فوق جسدي، ثم تصيح وتجثم على صدري؛ لأصيح بدوري رغما عني..

ظل يوسف مشدوها من غرابة ما حكاه عزوز.. في حين عقب المهدي ضاحكا :

- أجمل ما في الأمر تشكل الجنية في صور نساء مختلفات. أستغرب كيف اخترت التضحية بهذا الزواج، والانفصال عنها رغم جمالها وتوفيرها لكل شيء!!..
- لا أنكر أنها كانت تجربة جميلة!.. وأعتقد أنك ستفعل الشيء نفسه لو كنت مكاني، فعندما يتعلق الأمر بجنية متسلطة تحب التملك، أراهن أنك ستتخلى عن كل شيء في سبيل حريتك..

رد المهدي مقتنعا:

- صدقت يا عزوز، فالنعم بدون حرية لا طعم لها !..

استمر صديقاي في استفسار عزوز عن زوجته الجنية بحماس وفضول كبيرين.. حاولت التفاعل معهم ولم أستطع؛ إذ أن إلمامي بعالم الجن نزع الإثارة عن الموضوع وجعله مملا.. فتركت نقاشهم وأقبلت على مشاهدة المناظر عبر النافذة، مراقبا الأشجار التي تبدو صغيرة في بعدها وهي تقترب فتكبر شيئا فشيئا إلى أن تتجاوز نافذتي وتختفي لتأتي أخرى.. أذكر أنني ظللت على تلك الحال إلى أن توقفت بنا الحافلة فى محطة مراكش..

دافيد.. والحبر الروحاني..

لحاجة في نفس يعقوب؛ عرضت على رفاقي استغلال الفرصة والقيام بجولة في المدينة الحمراء، على أن يتم استكمال الرحلة بعد العشاء على متن حافلة أخرى.. فوافق الجميع، ثم نزلنا..

عندما استلمنا حقائبنا من مستودع الحافلة، لاحظت أن عزوز استلم دراجته دون حقيبته.. ظننت للوهلة الأولى أنه نسيها، قبل أن يخبرني يوسف بأن المجنون لم يحضرها أصلا وأن الدراجة هي كل ما جاء به من شقته !.. لم أستغرب فعلة عزوز تلك، فاحتكاكي به لست سنوات من الجوار جعلني أعلم أنه شخص عديم المبالاة، يعيش عالمه الخاص الذي لا تحكمه عادات المجتمع وتقاليده، خصوصا عندما صادفته ذات يوم على ناصية الزقاق يرتدي بدلة رسمية مع حذاء رياضي وفي يده مقلاة يتناول منها تفاحا وموزا مقليا؛ لأعلم قطعا أنه شخص فاقد للإحساس بمن حوله !.. لكن يوسف ظل مستغربا طيلة الوقت، لم يستسغ أن يسافر شخص لمنطقة بعيدة ويحل ضيفا عند أناس لأيام أو ربما لأسابيع دون أن يتزود بملابس احتياطية !.. ظل يحملق في المجنون ويتفرسه، ثم ضحك ضحكة خفيفة وعميقة في الآن نفسه، وسألني:

- أتعلم لم لا يحمل عزوز حقيبة أثناء أسفاره؟
- لا.. لِمَ؟!
- لأنه يشبه شخصيات أفلام الكرتون! يكتفون بلباس واحد طيلة المسلسل!..

أذكر أنني ضحكت كثيرا من التشبيه الذي استخدمه يوسف.. لقد كان على قدر كبير من الدقة في وصف حال المجنون، فمنظره وهو يسير ممسكا دراجته في ساحة "جامع الفناء"، بثيابه التي لا تتناسق وابتسامته التي لا تفارقه، يحيل بشكل كبيرعلى شخصيات الكرتون الظريفة.. على عكس المهدي الذي كان يسير إلى جانبه، جادا بملامح وجه باردة. قمة التناقض بين شخصين جمعتهم تدابير القدير في نفس الرحلة، ولنفس الوجهة رغم اختلاف النوايا.. فالأول يريد وضع حد لجنونه، والآخر يريد أن يلازم المعالج لكي يتعلم منه.. كنت أسأله دوما: "مهدي.. لماذا تريد أن تتعلم أسرار الروحانيات؟" كان يجيبني: "أريد أن أتعلم من أجل العلم". لم تكن إجابتة الجاهزة هاته لتنطلي علي؛ فهو كبقية الناس الذين يشدهم غموض السيمياء والذين يبحثون عن مصدر للقوة والتميز عن الآخرين ولو بطريقة فيها من الشبهات ما فيها.. فعندما تتحدث عن علم يعتمد على تسخير الأرواح، ضع في حسبانك، أنك ستضطر إلى التعامل مع الأرواح الشريرة أيضا..

كنا نجوب الساحة تنقلا من "حلقة" لأخرى، إلى أن أثار انتباهنا شاب يرتدي أسمالا بالية، ويستعرض مهارات قرده في الرقص والتهريج؛ لنأخذ أماكننا بين المتحلقين طلبا للفرجة، وتسلية لنفوسنا التي ملت جو البيضاء الرتيب..

كان القرد الصغير يقلد صاحبه تارة، ويطوف ليصافح الحضور ويأخذ منهم القطع النقدية تارة أخرى.. لم يعجبني رقص القرد بسريله الوردي، بقدر ما أعجبني جو الحلقة الشعبي، وتفاعل المتفرجين على اختلاف أعمارهم مع النكات التي يلقيها البدوي بين كل رقصة ورقصة.. وعندما لاحظ المهرج الشاب أن نكاته ما عادت تلاقي استحسان الجمهور، قرر أن يتحول إلى حكواتي.. فأمر قرده بالجلوس.. ثم أخرج كمانا صغيرا من حقيبته الجلدية،

وجلس على كرسي بلاستيكي وسط الحلقة.. ثم سأل الحاضرين وهو يتحسس أوتار كمانه:

- هل تريدون سماع حكايتي مع الغول؟..

صاح رجل من بين المتفرجين:

- لا!.. إنها قديمة!..

سأل الشاب الحضور مرة أخرى:

- هل تريدون أن أحكي لكم عن سفري عبر الزمن؟

صاحت الأغلبية بالموافقة.. ثم شرع الحكواتي في العزف، وسرد حكايته قائلا:

- ذات يوم.. اتخذت قرارا بوضع حد لهموم الحياة ومشاكلها التي ترهقني، وعلى الفور بدت علامات الفرح على شيطان صغير كان يشاهد التلفاز بجانبي.. فاقترب مني موسوسا بصوته الطفولي : "أجل! أجل! الحياة بئيسة!هيا انتحر! انتحر!". فالتفَتُّ إليه قائلا : "أنا أذكى من أن أفكر في الانتحار يا شيطون! ". فنظر إلي بذهول وسألني: "أو تستطيع رؤيتي؟!" أجبته: "أجل، مذ كنت تعملها في الحفاظات".. عندئذ خرس لسان الشيطان الصغير، فيما كنت أراقب نظرته وهي تنكسر ببطء وتتحول إلى دموع، ثم عاد إلى مشاهدة التلفاز حزينا مطأطأ الرأس.. أشفقت عليه، وقررت أن أعطيه فرصة أخرى لإغوائي جبرا لخاطره.. فقلت له: "إني أنوي السفر عبر الزمن ستين سنة إلى الأمام؛ أريد أن أصبح شيخا وأرتاح، هلا رافقتني؟" حينها ابتسم العفريت الصغير ثم تمسك بي وتلاشينا عبر الزمن.. تغير بنا المكان إلى صالة فسيحة تطل على مسبح كبير. فصاح الشيطان وقد صار كهلا: "مرحى لقد أصبحنا أثرياء!". حاولت أن

أبتسم، لكن ملامحي الشمطاء حالت دون ذلك! حاولت الوقوف ولم أستطع!.. استغرقت دقيقة كاملة لألتفت وأجد كومة من الدواء بجانبي!.. وقفت بصعوبة؛ فسقطت حفاظتي!.. حينها صاح الشيطان فرحا: "مرحى لقد رأيتك بالحفاظات كما رأيتني! أحب الزمن حين يدور!".. حاولت المشي فلم أقو، حاولت الاستنجاد بمن هناك، لكن صوتي خانني!.. فجأة دخل طفل صغير مقبلا علي بلعبته، ثم تبعته امرأة شابة تنهره وتقول: "تعال إلى هنا يابني واترك عنك أبي إنه مريض لا طاقة له بالأطفال !". فاكتشفت أن الشابة ابنتي وأن الطفل حفيدي.. ومع ذلك، لا أحد يؤنسني.. تخلى عني الجميع، الأطفال مع ألعابهم، والكبار مع أحبائهم، وأنا وحيد مريض.. ثم ما نفع الثراء مع العجز؟!.. والأدهى من ذالك كله، ارتدائي للحفاظات! تبا!.. التفَتُّ إلى الجني سائلا: أين هي زوجتي ياترى؟! فأشار إلى صورة عجوز حولاء على الحائط قائلا: " لعلها هي، ولعلها ماتت منذ زمن!.. أجبته: " لا، لا أعتقد أن لي ذوقا سيئا في الاختيار! هيا بنا يجب أن نعود إلى شبابنا".. ابتسم الشيطان مجددا، وبرقت عيناه: "مرحى! إنه أفضل اختيار! هناك استطيع إغواءك، أما وأنت شيخ عاجز عن السير. عاجز عن الكلام، عاجز عن الحراك، عاجز عن النكاح، كيف لي أن أغويك؟!.. فلنعد، لكن فلنأخذ سيلفي أولا.."

أنهى الشاب حكايته.. وشرع الجميع في التصفيق ورمي القطع النقدية إعجابا بالحكاية، ثم عاد القرد إلى التقاط النقود والقيام برقصاته مجددا..

كانت الشمس تميل إلى الغروب، وكنت إلى جانب انتباهي للاستعراض منتبها لرفاقي أيضا، أبحث عن غفلة منهم لأذهب وأنجز المهمة التي أجبرتني على التوقف في مراكش.. ذلك أنني لم أعرض عليهم النزول في هذه المدينة

حبا فيها كما زعمت؛ بل لأن الشريف إبراهيم اتصل بي قبل ثلاث أيام، وطلب مني جلب أمانة من صديقه "دافيد بن حيون".. هذا الأخير من يهود "تهالة" التافراوتيين، سيميائي و خبير بالكابالا اليهودية.. وإلى جانب اشتغاله بالسحر، يمتهن الخياطة العصرية بالمدينة القديمة..

تريثت إلى أن تفاعل الجمهور بالتصفيق لشقلبة قام بها القرد الصغير، وتسللت خارج الحلقة دون أن ينتبه لي أحد من الرفاق.. ثم شققت طريقي بين أفواج السياح وعربات الأكل التي تعبق برائحة الشواء محاولا اختصار المسافة في أقل وقت ممكن.. كنت أعبر الشوارع دون اكتراث لإشارات المرور، وأتفادى الدراجات التي لا يتمهل ركابها، والسيارات التي لا يتردد أصحابها في إطلاق أبواقها.. أنعطف مع الأزقة الطويلة التي لا تخلو من الزحام، وأفتش بين صفوف المحلات التي تشبه بعضها.. إلى أن استقرت عيناي على ما كنت أبحث عنه.. محل خياطة، على بابه لافتة زرقاء كُتِبَ عليها: "خياط مدني عسكري عند الحاج داوود".. فدفعت بابه الزجاجي، ودخلت إلى المحل..

كان يرتدي قميصا صيفيا أبيضا، ويقص قماشا كحلي اللون على منضدته الخشبية الطويلة.. أحس بدخولي، ثم تكلم دون أن يرفع بصره عن القماش، ودون أن يتوقف عن قصه:

- بماذا أخدمك يا سيدي؟

أجبته وأنا أبتسم:

- ألا تتذكرني يا عجوز؟!

حينها رفع رأسه، وأفلت المقص من يده وهو ينظر إلي بتمعن محاولا تذكري.. استغرق وقتا تصفح فيه الوجوه التي مرت بذاكرته، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة حين اهتدى إلى تطابق، وتكلم بصوته المبحوح:

- أحمد! أهذا أنت؟!.. لقد كبرت وأصبحت رجلا!..
- وهل كنت تتوقع بقائي بنفس المظهر بعد أربعة عشر عاما؟!..

ابتعد عن الطاولة ثم أقبل إلي معانقا، وهو يقول:

- آخر مرة زرت فيها تافراوت كنت صغيرا يا أحمد!.. كيف حالك؟!
- على أفضل حال والحمد لله!..

انتهى العناق، وظل ممسكا بمرفقي يتأمل ملامح وجهي:

- لقد ربا بدنك ونمت لحيتك،! لكن نظرتك ما تزال بريئة كما كانت!..

ثم ألقى بنظرة إلى المرآة المثبتة على الجدار، وراح يحدق إلى صورته التي انعكست عليها:

- تمضي أيام حياتنا، ويرسم الزمن خطوطا على وجوهنا، ولا نلقي بالا لذلك إلا عندما نرى الصغار وهم يكبرون أمامنا!..

تبسمت ضاحكا، واتكأت على طرف المنضدة منتظرا أن ينتهي دافيد من الحكم التي يرددها الشيوخ حين يتعقلون. لا شك أنني ذكرته بصباه، ولا شك أنني ذكرته بالموت أيضا.. وعندما أخذ يمسح على لحيته الرمادية الطويلة، تبادر إلى ذهني أن اسأله السؤال الذي أطرحه على الكبار دائما:

- دافيد.. بماذا تنصحني في هذه الحياة؟

كف عن النظر إلى المرآة، وأعاد نظاراته التي انزلقت عن أنفه المحدب إلى مكانها.. ثم استوضح قائلا:

- عذرا أحمد، لم أفهم!.

- أقصد أنني أريد نصيحة من عصارة تجاربك في الحياة، نصيحة من واقعك المعاش بعيدا عما تتناقله الحكم والأمثال..

ابتسم دافيد، وأصدر همهمة طويلة وهو يشرد بنظره في الفراغ، قبل أن يجيبني:

- اسمع يا أحمد!.. لا تخف من شيء مهما كان، ولا تستسلم وتسمح لأحد بأن يملي عليك أفعالك ويعيش حياتك بدلا عنك.. الخائفون يعيشون نصف حياة، أما المستسلمون فلا حياة لهم.. وخطط.. ثم خطط.. ثم خطط.. إن القدر غالبا ما يكون في صف الذين يتقنون التخطيط!..

تمعنت فيما قاله الخياط، وتذكرت أن اليهود فرق تختلف فيما بينها بخصوص القضاء والقدر، ثم سألته بمكر أردت به أن يكون جوابه مناقضا لمضمون نصيحته:

- قل لي يا دافيد لماذا لا يأخذ الناس بالنصائح التي يطلبونها؟! لماذا يدرسون التاريخ ولا يعتبرون به؟!.. هل لنا تأثير فعلي؟! أم لعلنا فقط نترجم الأقدار التي قدرها القدير سلفا؟!

ضحك، ثم أجاب مراوغا وكأنه فطن لغايتي:

- أعتقد أن كتابكم المقدس مليء بالأمثلة التي تغنيك عن طرح هذه الأسئلة!

- لا يخفى علي ذلك يا دافيد.. لكنني أحيانا أطرح على الناس أسئلة تافهة لا أروم من خلالها معرفة إجاباتهم، بقدر ما أريد أن أرى الطريقة التي سيجيبونني بها!..

ضحك مرة أخرى.. وعمد إلى المقص حين لمح جزءا ناتئا من القماش المنشور.. ثم أخذ يشذبه قائلا:

- من المستحيل أن يكون القدر حليفا لمن لا يتقن عمله! ومن المستحيل أن يخذل القدر شخصا يتقن عمله! إذ لا بد له من أن يبلغه غايته. ولك في التاريخ أبلغ مثال، فعندما أخذتم بأسباب القوة انتصرتم وسدتم الأمم، وعندما أخذنا بها نحن اليهود انتصرنا وهيمنا على العالم، ولا نرى أن القدر يعاكسنا، بل يستجيب لجدنا وتخطيطنا، وأحفظ آية في كتابكم توافق قولي هذا..
- أي آية؟!
- " *وأن ليس للإنسان إلا ما سعى* ".. إنها آية تقطع الشك باليقين، وتدل على أن القدر يحابي الذين يسعون في تحقيق غاياتهم، أما الذين يكتفون بالبكاء والتوسل والدعاء فلا يُلتفت لهم، ولا يستجاب لهم..

فهمت مقصد دافيد من قوله، لكن فكرتي عن تشعبات القضاء والقدر؛ حالت دون أن أقتنع بكلامه.. فسألته مجادلا:

- أيعقل أن لا يستجيب الله للضعفاء المساكين، أين الرحمة إذن؟!

ضحك دافيد ولمعت أسنانه بطريقة تنم عن توقعه المسبق لسؤالي، ثم أجاب:

- لا تنس أن الضعف والفقر أبناء للتهاون والكسل، وإن فرضنا أن الله انتصر للضعفاء على حساب الأقوياء المجتهدين فأين العدل إذن؟!
- ألم يكن بنو إسرائيل ضعفاء أذلاء فأنقذهم الله بموسى رغم ضعفهم؟!
- هذا السيناريو استثنائي، وا لاستثناء لا يقاس عليه!..

ثم سكت وسألني مغيرا الموضوع:

- نسيت ان أسألك.. كيف علمت بمكاني؟!

- قبل ثلاث أيام اتصل بي صديقك الشريف ابراهيم.. أخبرته أنني سآتي إلى تافراوت، فطلب مني أن أمر عليك وأن آخذ منك أمانة، بعد أن نعت لي الطريق إلى دكانك ووصف لي واجهته.. بالمناسبة، أعجبتني حركة الحاج داوود على المدخل. ألا يعلم الناس هنا أنك يهودي؟!

أجابني وهو يربت على كتفي:

- بلى!.. لكنها فكرة الخطاط الذي صمم اللافتة !..

ثم أردف قائلا:

- قل لي، هل تذكر عندما كان الأولاد يطلبون مني الحلوى بينما كنت تطلب مني تعليمك السيمياء؟! لقد كنت فريدا منذ صغرك! أما زلت كذلك؟
- لقد كنت مولعا بقراءة كتب السيمياء وتجريب ألاعيبها، وكنت أخفي ذلك عن الأنظار.. لكنني أقلعت عنها حين نبهني الشريف بخطورة الوضع، وبأن الجن قد تنتقم مني أثناء تسخيرها.. إضافة إلى ذلك، ما عدت متحمسا لأي شيء.
- لعلك نضجت واختلطت عليك الأمور!.. ما زلت شابا، ولا يزال أمامك طريق طويل!.. على العموم مرحبا بك مجددا! سأطلب لنا شيئا.
- لا لا، شكرا!.. علي أن آخذ الأمانة وأعود على الفور؛ أصدقائي بانتظاري.
- ولِمَ لم تأت بهم إلى هنا؟ أهم من البلدة أيضا؟
- لا.. ليسوا من البلدة.. لم أشأ اصطحابهم إلى هنا لأني أحب أن أحتفظ ببعض التفاصيل لنفسي، بعيدا عن علم الأصدقاء!..

- أحسنت يا أحمد.. الصديق الذي يعرف عنك أكثر مما يجب، لا يبقى صديقا.. انتظر ريثما أحضر لك ما جئت من أجله.

كنت أنظر إلى ساعتي مرارا.. فاحتياطي من أن ينتبه الأصدقاء لغيابي شكل ضغطا نفسيا جعل الدقائق تمر وكأنها ثواني!.. حاولت إلهاء نفسي قليلا عن التفكير بالوقت، فقمت إلى بدلة معلقة، وشرعت أتفحص تفاصيلها.. كانت بدلة متقنة الخياطة بالنسبة لعجوز أعور! كان كل جزء منها مفصلا بعناية!.. الأزرار والعرى لا تختلف ولو بمليمتر واحد! الحواف مقصوصة بعناية ! حاولت أن أجد انحرافا في مسار الغرز، أو خيطا إضافيا لكنني لم أفلح.. أخذت البدلة وارتديتها، ثم وقفت أمام المرآة.. تأملتني قليلا، وأخذت أحدث نفسي عندما تخيلت أنني موظف في شركة كبيرة.. تماديت في الحديث قليلا، وحين لاحظت أن نعالي لا تناسب البدلة، صرخت في وجهي قائلا: "أنت مطرود من العمل!" ثم نزعت البدلة، وأعدتها إلى مكانها..

عاد دافيد وبيده قارورة صغيرة من الزجاج المعتم.. رفعها إلى مستوى عينيه، ثم وضعها على الطاولة قائلا:

- أتعلم ما في القارورة؟

أجبته ضاحكا:

- لا، ولكنها بلا شك الأمانة التي جئت لأخذها!
- إنه الحبر الروحاني الذي يستعمل في كتابة الطلاسم والعزائم.
- آه.. لكن الحبر الروحاني تركيب من المسك والزعفران ودم الغزال، وهي مواد موجودة عند العطارين.. أظن أن الشريف يستطيع صنعه بسهولة، لماذا يحتاج إليك في صنعه؟!
- أظن أنك قرأت عن وصفة الحبر على الأنترنت، أليس كذلك؟
- أجل..

- لا تثق كثيرا بما ينشرونه؛ فهم ليسوا على دراية كافية.. هذا الحبر الروحاني هو الأكثر فاعلية، إنه مستورد من من حيفا، من حاخام صديق..
- ممم.. لا شك في ذلك، فأنتم أسياد السحر!..

فضحك وهو يسعل وينفي بسبابته :

- لا، لا هذا ليس سحرا!.. الساحر يبيع نفسه للشيطان كشرط للمعاهدة، أما ما نقوم به فيسمى علم السيمياء كما تعلم!..
- أعلم، لكنني لا أعلم متى ظهر الفرق بين السحر والسمياء؟!

- إسمع يا أحمد، يجب أن تعلم أن السيمياء علم مستقل لا يرتبط بديانة محددة.. السحر أن تبيع نفسك للشياطين على أن ينفذوا لك ما تريد، وهو شر مطلق، أما السيمياء أو ما يطلق عليه بالروحانيات فهو عبارة عن أسماء لها قدرة على التحكم في العناصر أو تسخير الجن رغما عنها لتنفيذ ما تريد، سواء كان خيرا أو شرا، حسب رغبتك..
- فهمت!

أخذت القارورة، ووضعتها برفق في جيب بنطالي:

- سأذهب الآن.. دافيد لا تنسى أن تزورني إن أتيت إلى البلدة!
- إنني أنوي زيارتها في ديسمبر المقبل، وقد أصطحبك معي إلى الاحتفالية السنوية لذكرى الحاخام "دافيد بن باروخ" التي تقام بتارودانت..
- لكنني مسلم! ولا أريد التطفل على احتفالاتكم الدينية..

- عن أي تطفل تتحدث! قريتي تجاور قريتك، واختلاف ديانتينا لا يشكل عائقا مادام كل منا مستقلا بعقيدته، ولهذا أنا دائم الحضور في احتفالات جيراني المسلمين، ولا أرى في ذلك ضيرا، كما أن حضورك قد ينفعك في تكوين علاقات مع يهوديين من مختلف بقاع العالم. ومن يدري، قد تكون فرصة لإيجاد عمل لك.. هذا زمن السرعة، وأي إهدار للفرص والوقت سيكلفك غاليا، خذها نصيحة من يهودي عجوز!..
- كن مطمئنا يا دافيد.. إلى اللقاء..

خرجت من عنده، وأخذت طريقي على أرضية الزقاق المبلطة محاولا استيعاب الطريقة التي يفكر بها دافيد، مقارنا بينه وبين السيميائيين الذين يقتصرون على السيمياء في كسب رزقهم.. فهو وبالرغم من إلمامه بالسيمياء، لم يمنعه ذلك من الاستمرار في العمل كخياط، والمدهش في الأمر أنه يتقنهما معا.. تساءلت في نفسي، هل كان دافيد لينزه السيمياء عن السحر ويدافع عنها لو لم يكن من ممارسيها؟! وهل يلتزم باستعمالها في الخير فقط؟!.. لكنني سرعان ما تركت التساؤل حين أيقنت أنني لن أهتدي إلى إجابات دقيقة..

وصلت إلى حيث تركت أصدقائي دون أن أشعر ! ربما تكفل عقلي الباطني باقتياد بدني إلى ساحة جامع الفناء عندما كنت في غمرة تساؤلاتي.. دخلت متسللا إلى الحلقة بخفة كما خرجت منها، ولاحظت أن المهدي ما يزال واقفا يقهقه من النوادر التي يرويها البدوي، وإلى جانبه يوسف البليد فاغرا فاه، وتحتهم مباشرة يستلقي عزوز معانقا دراجته.. فلوحت لهم بيدي، وانسحبوا من بين المتفرجين.. ثم توجهنا إلى مسجد الكتبية..

***

عندما فرغنا من الصلاة، كان الظلام قد حل لتنير معه مصابيح عـربات الأكـل مانحــة المـأكولات لونــا بهــيا، جاعلـة أبخـرة الشـواء المتصـاعدة فـي الهـواء تتجلـى بشـكل واضـح مثيـر للشـهية، مصـحوبة بروائحهـا الزكيـة التـي تـراود المـرء عـن معدتـه، والتـي تسـاقطت دفاعاتنـا أمامهـا بسـهولة؛ لنصـطف أخيرا أمام عربة متخصصة في إعداد رأس الخروف المبخر.. لم يكن يوسف من عشاق تلك الأكلة ولا من محبيها، سيما وأنه جعل ينظر إلى طبقه متأملا رأس الخروف دون أن تمتد يده إليه.. لأقول له ممازحا:

- مابالك تتأمله؟! أم أنك تشفق على حال الفقيد؟!..

ضحك ضحكته العجيبة، ثم أجابني وهو يقلب رأس الخروف:

- منظر أسنانه يقطع شهيتي؛ إنه مقزز!
- ولمـاذا اختـرت الجلـوس إلـى هـذه العربـة إن كنـت تتقـزز مـن هـذه الأكلة؟!
- عندما جلستم إليها؛ جلست بدوري، لم أشأ أن أخرج عن الجماعة..

التفَتُّ إلى عزوز ورأيته مقبلا على طبقه بشراهة.. ثم نصحت يوسف:

- إذن افعل كما تفعل الجماعـة.. واقتـد بعـزوز؛ إنـه يفتـرس الـرأس بـلا رحمة!

انفجر الثلاثة من الضحك.ثم عقب المهدي:

- لعل عزوز ينتقم بفعله هذا من المعزة التي تخيفه كل ليلة!

رفع عزوز رأسه عن الطبق، وسأله دون أن يتوقف عن المضغ:

- وما.. علاقة.. المعزة الجنية.. بهذا الخروف؟!

أجابه المهدي وهو ما يزال يضحك:

- ألا تعلم بأن الخرفان والماعز أبناء عم؟!.

حينها تناثرت قطع اللحم من فم عزوز الذي كاد أن يفقد توازنه ويهوي به الكرسي من شدة الضحك؛ ما دفع جماعة من السياح يجلسون بقربنا إلى الضحك أيضا.. فلوح أحدهم لعزوز وحياه بالفرنسية، ثم أشار عليه بتعديل وضع كرسيه كيلا يتسبب في سقوطه.. فرد عزوز التحية بأسلوب لبق وبلغة فرنسية خالية من اللكنات شاكرا إياه على لطفه وحرصه، ثم شرع في تعديل جلسته وهو يخبرنا :

- هؤلاء السياح الكنديون في غاية اللطف!..

سألته:

- وكيف علمت بأنهم كنديون؟!!

أجابني بإيماءة الواثق من نفسه :

- لكنتهم الكيبيكية لا تدع مجالا للشك..

نظر إلي يوسف وهو يرفع حاجبيه متعجبا من إتقان الممسوس للغة الفرنسية، قبل أن ينطق المهدي بلهجة شخص أكثر اطلاعا على أحوال العالم :

- لقد صدق عزوز؛ الكنديون ألطف شعوب العالم! يكفي أن تلقوا نظرة على برامج الكامرة الخفية التي ينتجونها، سترون أن الكنديين وديعون، ويبتسمون باستمرار مهما كانت حدة المقالب التي يتعرضون لها !..

كانت نظرية المهدي على درجة كبيرة من الصواب، خصوصا وأنني كنت من متتبعي برامج المقالب الكندية التي يبثونها على القنوات الفضائية، وكنت أقارن بين ردود أفعالهم المسالمة، وردود أفعالنا نحن المغاربة السريعي

الغضب والعنيفين أحيانا دون أن أجد تفسيرا علميا دقيقا يفسر انفعالاتنا الزائدة عن اللزوم! اللهم إلا قولة كانت تردد على مسامعي وأنا صغير، مفادها أن للمغاربة دماء حامية بالفطرة.. هذه القولة تنطبق على الكثير من المغاربة، والمهدي واحد من هؤلاء، خصوصا وأنه رفض البقاء في مراكش بعد انتهائنا من وجبة العشاء، وأصر بتعنت كبير على مغادرتنا لهذه المدينة مبكرا، بحجة نيل قسط من النوم تفاديا لاضطراب ساعته البيولوجية. فما كان منا إلا النزول عند رغبته، وتوديع مراكش الحمراء..

***

الحافلة التي شاءت لنا الأقدار ان نستأنف الرحلة على متنها كانت أفضل حالا من التي سبقتها.. مريحة، مكيفة، وعلى طراز حديث من حيث التصميم..

جلسنا بنفس الترتيب الذي كنا عليه، إلا أننا توسطنا الحافلة هذه المرة، وسلمنا من الضجيج الخفيف الذي يحدثه المحرك الخلفي، كما حظينا بمسافة قريبة من التلفاز الذي كان يعرض فيلما هنديا.. فضلت الاسترخاء وإغماض عيني في محاولة لاستجداء النوم أسوة بالمهدي وعزوز.. لكن يوسف أزعجني بضحكاته وتفاعله المتكرر مع الفيلم.. فالتفَتُّ إليه وخاطبته بصوت منخفض :

- أزعجتني يا يوسف!.. لقد نام الركاب جميعهم إلا أنت!!

نظر إلي دون أن يجيبني، ثم أشاح بوجهه نحو التلفاز وضحك متعجبا من لقطة قام فيها الممثل الهندي بالقفز والالتفاف حول نفسه ست مرات في الهواء.. هممت بتوبيخه، إلا أنني عدلت عن ذلك وآثرت تركه على سجيته، متسائلا في نفسي عن ماهية المتعة التي يجدها في هاته الأفلام التي لا

تخرج عن موضوع وحيد دائم التكرار، وعن أحقيتي في وصفه بالبلادة.. وعندما أدركت أن تساؤلاتي لن تغير من الوضع شيئا، وضعت سماعاتي وشرعت في الاستماع إلى لحن هادئ في انتظار أن يغلبني النعاس، وسرحت بمخيلتي معه في عوالم أخرى جميلة لا تمت إلى الذي نحن فيه بصلة.. غير أن سباحتي في أحلام اليقظة لم تطل؛ عندما قامت أصوات صياح مزعجة بإفساد خلوتي الوهمية!..

ففتحت عيني لأجد الركاب يلتفتون تجاهي الواحد تلو الآخر! تحققت من مسار نظراتهم.. لا! ما كانوا ينظرون إلي، بل إلى عزوز!.. لقد بدأ بالصياح كالديك كما يفعل كل ليلة!.. أدركت أنها الجنية، ورفعت من صوت الموسيقى مفضلا ألا أنزع السماعات عن أذني.. لكنني لم أستطع مقاومة رغبتي في الالتفات والنظر إلى وجه يوسف وهو يتلون رعبا!..

في أحضان تافراوت

لا أتذكر اللحظة التي استسلمت فيها لغلبة النوم، ولا عدد المحطات التي توقفت عندها الحافلة طوال الأربعمائة وعشرين كيلومترا بعد خروجنا من مراكش.. لكنني أتذكر لحظة أيقظني شعاع الشمس الذي تسلل عبر النافذة وأنا أنزع خدي الذي التصق بزجاجها؛ لأفتح عيني على روعة جبال الأطلس الصغير وأرى الصخور الوردية العملاقة تبتعد عن بعضها على طول الطريق لتكشف لي عن بلدتي الجميلة.. "مرحبا بكم في تافراوت"، هكذا رحبت بنفسي وبرفاقي الذين كانوا يشاهدون بدورهم عبر النافذة في صمت واندهاش!.. لا غرابة في ذلك؛ فبلدتي أجمل مناطق الجنوب الغربي، وأفضل وجهة سياحية لمن يبحثون عن هدوء الطبيعة بعيدا عن صخب المدن وضجيجها..

كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا حين توقفت الحافلة عند مدخل البلدة.. استغربت وصولنا المتأخر بساعتين عن التوقيت المفترض، وفكرت أثناء تسلمنا للحقائب أن اسأل المراقب عن سببه الذي حال نومي دون معرفته. إلا أن هبوب النسيم العليل لفح وجهي، وأعاد إلى ذهني مسلسلا من الذكريات أنساني كل الأسئلة ..

اجتزت حقول الشعير الذهبية متقدما رفاقي بخطوات رشيقة نشيطة، فيما كانوا يسيرون الواحد تلو الآخر ببطء، كسالى، متثاقلين، بعيون متورمة ووجوه شاحبة يرى عليها أثر السفر من بعيد، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التأمل بإعجاب في سلسلة الجبال التي تخترق زرقة السماء الصافية، وفي أشجار الأركان واللوز والزيتون التي تنتشر بكثرة في الأنحاء..

توقف يوسف عن السير للحظة.. ثم قال :

- لم أكن أعلم أن تافروات على هذا القدر من الجمال!.. وإني لأتعجب كيف استطاع أهلها أن يبنوا كل هذه المنازل الفخمة على قمم الجبال..!

أجبته مفسرا:

- لا تتعجب.. السكان هنا مغامرون بالسليقة ويعشقون التحدي، وليكن في علمك أن تافروات هي آخر منطقة مغربية يحتلها الاستعمار الفرنسي.. يقول المؤرخون أن السبب راجع لوعورة المسالك الجبلية، لكنني أرى أنه يكمن في مقاومة الأهالي، وشدة صبرهم على القتال!..
- وما اسم قبيلتكم؟
- تدعى "أملن".. إنها تقع في سفح ذلك الجبل الذي تشبه قمته رأس الأسد! ..

بدأ الرفاق بالتحديق مطولا إلى الجبل الذي يرتفع قرابة الألفي متر تعجبا من التشابه الكبير بين الأسد وشكل قمته التي نحتتها الطبيعة منذ زمن بعيد، فتوالت تعاليقهم حول جمال المكان، وتوالت استفساراتهم كذلك.. ومع أن أغلب استفسارات يوسف كانت تافهة ومبتذلة كعادته، إلا أنني لم أتنزه عن الإجابة عنها، بل كنت أقدم له شروحات مستفيضة كمن يشرح لطفل في الخامسة من عمره؛ ذلك أن العودة لمسقط رأسي فتحت شهيتي للحديث، شهية ما كانت لتنفذ يومها حتى ولو تحدثت مع كل شجرة أصادفها في الطريق.. بيد أننا لم نصادف في طريقنا إلى منزل جدتي "فاطمة" إلا قطيعا من الماعز يتسلق أشجار الأركان ليقتات على بذورها.. منظر لم يعتد عليه المهدي الذي ألقى حقيبته ووقف محملقا. أما عزوز فلقد أشاح بوجهه عن

الماعز التي تذكره بجنيته ممتعضا.. كانت ملامحه تنقبض جراء التوتر، وكان يرخيها بقوة متصنعا الابتسامة، متكلفا السير على طريقة الواثقين من أنفسهم عله يقنع دماغه بالتخلص من مخاوفه، غير أنه كان يكف عن التمثيل ويرتبك كلما اقتربت منه معزة، ولعله استسلم حين أدرك - كما أدركت أنا ذات يوم - أن التظاهر يجعل الإنسان كمن يتعذب بارتداء سروال فضفاض دون حزام؛ يخشى سقوطه وانكشاف عورته في أي لحظة.. من حسن حظنا أننا وصلنا إلى بيت جدتي قبل أن يصاب بنوبة هلع أخرى..

كانت جدتي تجلس خارج بيتها، منشغلة بطهي الخبز على الفرن الطيني.. قبل أن تلمحني وتقبل مهرولة ترفل في لحافها الأسود لتستقبلني.. التقينا في عناق حار، ثم قبلت يديها ورأسها وهي تضحك بوجه يتوهج فرحا:

- أحمد! لقد اشتقت لك يا صغيري!.. ما هذا الغياب الذي أنساك جدتك، ألم تشتق إلي؟ !

أجبتها قبل أن أكتفي من تقبيل كفها:

- وهل يساورك شك حيال ذلك يا جدتي؟ لقد اشتقت إليك، ولعماي، واشتقت إلى قريتي أيضا !.
- الله وحده يعلم مدى سروري برؤيتك..
- وأنا أيضا جدتي.. إن خالي علي يبلغك سلامه الحار، ولقد جئت وجلبت معي أصدقائي..
- حياك وحياه الله!.. قل لهم أن يتفضلوا!..

سلم الرفاق على جدتي، وقمت بإرشادهم إلى غرفة الضيوف لينالوا قسطا من الراحة.. ثم توجهت مع جدتي إلى المطبخ بعد أن قامت بإخراج الخبز من الفرن..

***

كان منزل جدتي مشيدا بالطين والحجر على الطراز القديم، يشغل مساحة تقارب الستمائة متر، بجناحين رئيسين.. أحدهما مخصص للعائلة، وله فناء تتوسطه شجرة زيتون وحوض ماء، محاط بعدة غرف تفتح نوافذها عليه، بالإضافة إلى حمامين و مطبخ.. أما الآخر فمنعزل عن الأول بباب فاصل تخصصه العائلة لاستقبال الضيوف، وبه غرفة كبيرة وحمام، عدا عن غرفة الاستقبال. وحول المنزل حقل صغير به أشجار فواكه ونباتات متنوعة.. تقول جدتي أن تاريخ بنائه يعود إلى ما يقارب الستين عاما، وفيه ترعرع والدي وتزوج بأمي التي تنحدر أيضا من نفس القبيلة، قبل أن يقوما ببناء بيتهما الخاص الذي لا يبعد كثيرا عن هذا البيت، والذي عشت فيه معهما إلى أن وافتهما المنية قبل عشر سنوات في حادث تدافع الحجاج بالبلد الحرام.. وبموتهما لم يتبق لى من العائلة هنا بتافراوت سوى هذه الجدة، وابنيها عماي موسى وعبد السلام، واللذان لا يزورانها سوى مرتين في الأسبوع بحكم طبيعة عملهما..

لم يكن بقاء جدتي وحيدة معظم الوقت ليسبب لها إزعاجا؛ فهي دوما ما تجد شيئا لتنشغل به.. إن لم تكن منهمكة في أشغال البيت، فسوف تكون منشغلة بأعمال الحقل أو بالحياكة والتطريز، وإن لم تذهب لجمع الحطب، فإنها حتما ستكون قد أخذت طريقها إلى السوق لاقتناء شيء ما أو بيعه، وعلى هذا المنوال تسير حياتها وحياة أغلب نساء تافراوت.. أحيانا أرى أن عملها الدؤوب قد يكون تفسيرا للغز شبابها الدائم، فهي سيدة قد ناهزت السبعين، ومع ذلك تبدو أصغر من عمرها بكثير.. حقيقة لم أكن متأكدا من صحة هذا التفسير، لذلك قمت باستغلال فرحتها بقدومي، وسألتها بطريقة ملتوية أثناء قيامها بإعداد الشاي في المطبخ:

- جدتي، لاحظت خلال مقامي بمدينة البيضاء أن سكانها يشيخون بسرعة، لقد عرفت أناسا هناك تغيرت ملامحهم في مدة وجيزة، أما هنا في تافراوت تبقى الوجوه شابة نضرة، وكأن الزمان يتوقف عندنا!

أصغت إلي باهتمام.. وتذوقت كأس الشاي لتتأكد من امتزاجه بالسكر، قبل أن تعيد صبه في الإبريق وتجيبني وهي تبتسم:

- هل تعلم يا أحمد أن العديد ممن يزوروننا لاحظوا نفس الشيء! يقولون إن السكان هنا يحافظون على شبابهم لفترة أطول مقارنة بسكان المدن الكبيرة؛ ويعللون ذلك باستعمالنا اليومي لزيت الأركان في الطبخ والعلاج، لا أنكر أن لكلامهم هذا نصيبا من الحقيقة، إلا أن الأمر لا يقتصر على الزيت فقط، فللهواء النقي الذي تتوفر عليه المنطقة، وللنظام الغذائي الصحي الذي نلتزم به دور كبير في حفاظنا على حياة صحية طويلة..
- أوافقك الرأي جدتي، أضيفي إلى ذلك ما يقوم به الناس هنا يوميا من الأعمال التي تتطلب جهدا بدنيا، كالحرث والسقي والجني، والمشي لمسافات طويلة لجلب الماء وجمع الحطب.. أعتقد أن هذا ما يجعل أناس المنطقة يحافظون على لياقتهم ومرونتهم الجسدية لفترة أطول!..
- صدقت يا بني.. الحركة بركة، هذا ما تعلمناه في الصغر وجنينا ثماره في الكبر!
- أظن أنني سأشيخ مبكرا؛ فنادرا ما كنت أمارس الرياضة خلال الست سنوات الماضية!

أخرجت صينية من الخزانة المعلقة، ثم شرعت في مسحها بقطعة قماش وهي تسألني:

- بمناسبة ذكر السنوات الماضية.. كيف كانت حياتك هناك؟
- كانت تجربة رائعة! علمتني أشياء كثيرة وتعرفت فيها على أصدقاء رائعين!

ابتسمت.. ثم عقبت وهي تضع كؤوس الشاي على الصينية:

- حمدا لله.. أخيرا خرجت من قوقعتك. فمنذ وفاة والديك رحمة الله عليهما وأنت منعزل على نفسك!
- لقد كان فقدانهما أمرا صعبا علي.. خطب رحيلهما نزع اللذة من كل شيء، وجعل كل المشاكل تبدو تافهة!.. صرت أعيش بلا هدف! وحيدا في عزلة قاتلة!.. كنت مجبرا على إيجاد أصدقاء لعلني أنسى القليل من الألم الذي يلم بي!.. لكن الأمر كان أشبه بوضع مخدر موضعي أعلم أن تأثيره سيزول ولن يستمر طويلا، خصوصا عندما يعود أصدقائي لدفء عائلاتهم مساء وأعود إلى غرفتي وحيدا؛ حينها يعاودني الألم من جديد!..

سكتت جدتي لبرهة وفي عينيها نظرة إشفاق علي، وحنين واشتياق لوالدي، ثم انحرفت بالكلام كيلا نتوغل كثيرا في جو الهم والحزن:

- أحمد.. أخبرني، كيف استطعت إقناع أصدقائك بالمجيء معك ؟
- لم أقم بإقناعهم، بل هم من قرر المجيء..
- وكيف ذلك؟
- لكل منهم سبب.. يوسف ذلك الفتى الأسمر جاء حبا في جمال تافراوت.. وعزوز ذلك الشاب الذي يجر دراجته، جاء لكي يعالج

نفسه من المس عند الشريف إبراهيم.. أما الفتى الثالث فيدعى المهدي، ولقد جاء أيضا لمقابلة الشريف والتعلم منه..

تغيرت ملامح جدتي وسألتني باستغراب:

- وماذا سيتعلم من الشريف ؟!

تهربت من نظراتها.. وأخذت سكينا ثم تعمدت الانشغال بقطع الخبز وأنا أجيبها:

- سيتعلم منه أصول السيمياء..

فرمقتني بنظرة ساخطة، وتكلمت بلهجة شديدة:

- بل تقصد أصول السحر والشعوذة يا أحمد! ألم ينهاك المرحوم والدك عن الإطلاع على هذه الكتب؟! ألم ينصحك دوما بالابتعاد عنها؟! أنسيت أن عواقبها كارثية؟! أم أنك تبحث عن مصيبة ما؟!

أجبتها كاذبا:

- لا لا يا جدتي؛ أنا لم أحاول قط تطبيق تلك الخرافات! ..

استمرت في التحديق إلي وكأنها تنتظر حجة مقنعة.. قبل أن أردف قائلا:

- ما دخلي إن كان المهدي يريد تعلم السيمياء؟! إنها رغبته هو لا أنا!
- كان عليك أن تخبره بأن الشريف مجرد دجال! وكان عليك أن تنبهه إلى خطورة التعامل مع الجان!..
- جدتي، لا يمكنني أن أصف شخصا يرتقي نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدجل!.. صحيح أن ممارسات الشريف ابراهيم مشبوهة لكنني لن أحكم عليه انطلاقا مما يقوله الناس عنه، سأضطر إلى التقرب منه كي أقف على حقيقة الأمر، ولكي أسمع منه وأرى بأم عيني..

زَفَرَتْ.. ثم ألقت بقطعة القماش على الأرض وهي تتأفف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد ظننت أن الغربة ستغيرك قليلا، لكنك صرت أكثر جنونا من ذي قبل!..

ضحكت من الطريقة التي حوقلت بها جدتي، وقبلت رأسها وخرجت من المطبخ وفي يدي فنجان من القهوة..

ألقيت نظرة على غرفة الضيوف، لأجد رفاقي غرقى في نومهم.. توقفت قليلا وأنا أبتسم تعجبا من يوسف الذي كان نائما على بطنه كدلفين. ثم دلفت الى فناء البيت معانقا دفء الشمس، وشرعت أتفقده غرفة غرفة كمن يسلم على أهله بعد طول غياب، أرتشف قهوتي الزكية مستمتعا بهدوء المكان، مستطربا ألحان العصافير التي تعشش في أرجاء البيت العتيق.. في هذه القرية الرائعة ستتعلم الاستمتاع بالسكون، سيجبرك على اتخاذه غاية لا مجرد وسيلة مانعا ذهنك عن التفكير بما سواه.. لن تحتاج إلى جريدة تسليك وتطلعك على أخبار العالم؛ فمجرد التواجد بين هذه الجبال التي تنتصب في شموخ، تسلية تنسيك بقية العالم.. لن تحتاج إلى المال والجاه لكي تحس برغد الحياة، يكفي أن تكون إنسانا يحسن الشعور بجمال الطبيعة ويحسن التفكر في بديع الصنع الإلهي الذي حبا الله به هذه المنطقة، لتدرك أن جمال الطبيعة من جمال خالقها، ولتصبح على درجة عالية من اليقين بأن الإله الجميل لا يخذل أبدا.. عندئذ ستتذوق الطعم الحقيقي للرغد..

أذكر أنني لم أكن متعبا كالآخرين، ربما كانت فرحتي بالعودة لبلدتي ذات تأثير نفسي أقوى من الإحساس بالتعب، أو ربما لأنني تمكنت أخيرا من إزاحة هم التخرج والاغتراب الذي أثقل كاهلي لسنوات فأصبح كل تعب بعده هينا.. إنه شعور بالارتياح، ولو كان والداي على قيد الحياة لأصبح شعورا بالبهجة والفرح.. دوما ما كانت أمي تعرب لي عن رغبتها الكبيرة في إتمامي لدراستي، ودوما ما كانت تقول إنها ستكون سعيدة جدا يوم تخرجي.. أما

أبي فكان يشكك دائما في مقدرتي على النجاح، وكان يخبرني بأنني كسول بليد لن يعرف الطريق إلى النجاح أبدا.. لسوء الحظ، عجل الزمن برحيلهما قبل أن أفند نظرية أبي، وقبل أن تسعد بي أمي..

***

عندما استيقظ الرفاق من النوم كمومياوات تبعث من موتها، كنت أنا ووجبة الإفطار بانتظارهم.. كان الإفطار مكونا من خبز الشعير؛ وزيت الزيتون وزيت الأركان؛ مع العسل الحر و"البسيس" وهو دقيق الشعير الممزوج بالقليل من الملح والسمن، إضافة إلى "أملو" وهي عجينة اللوز بالأركان؛ مع الشاي المنعنع واللوز المحمص.

نظر المهدي إلى المائدة، وابتهج حين أدرك أنه سينعم بإفطار طبيعي يندر تأمينه في مدينته، ثم سألني:

- هل هذا العسل أصلي؟!

ابتسمت مدركا سبب سؤاله، ثم أجبته قائلا :

- بالطبع!.. وهل تظن أنني سأرحب بك في بلدتي بعسل مزيف؟!
- لا، حاشى لله، إنما سألتك لأنني لم أتذوق عسلا أصليا منذ فترة طويلة.. في مدينتي يبيعون عسلا مزيفا على أنه أصلي!..
- لا يخفى علي ذلك.. إن أردت تقييم العسل فقم بصبه في كأس ماء، إن كان أصليا فسينساب بسهولة إلى القعر، وإن كان مزيفا فسيفقد تماسكه وسيتغير شكله..

شرعنا في الأكل، وغمس المهدي قطعة من الخبز في آنية العسل قائلا:

- وقل ربي زدني علما! الآن صرت أعلم كيف أكشف خداع الباعة وغشهم!..

ثم سكت قليلا وانكمشت عضلات وجهه حين استشعر حرارة العسل وقوة مذاقه في حلقه.. قبل أن يردف:

- قل لي يا أحمد متى سنقابل الشريف إبراهيم؟
- أراك مستعجلا لمقابلته! هل أنت متحمس لتعلم السيمياء إلى هذه الدرجة؟!

وقبل أن يجيب المهدي، سبقه يوسف بضحكته قائلا :

- لا يا أحمد، إنه غير متحمس لتعلم السيمياء بقدر ما يريد مقابلة الشريف لمعالجة عزوز وطرد الجنية قبل حلول منتصف الليل؛ إنه يخاف أن ينام بجوار هذا الممسوس!

توقف عزوز عن الأكل إثر سماعه كلام يوسف، ثم عقب وهو يفرك شعره المجعد :

- لست مستعجلا!.. لقد صبرت لسنين عديدة على هذه الجنية! وبإمكاني أن أتحمل لأيام أخرى إن اقتضت الضرورة..

رد المهدي ساخرا:

- أجل يا عزوز بإمكانك أن تتحمل.. لكن يوسف لن يستطيع تحمل ليلة أخرى من الرعب، لقد كاد أن يبلل ملابسه من الخوف عندما كنت تصيح في الحافلة!..

هم يوسف بالرد على المهدي، لكنني قاطعته كيلا يتطور الأمر إلى جدال :

- لا أدري لماذا تخافون الجن إلى هذه الدرجة!.. إنها مخلوقات كغيرها من المخلوقات!..

حدجني المهدي بنظرة شك.. ثم قال :

- وهل أفهم من قولك هذا أنها لا تخيفك؟

تمهلت قليلا قبل أن أجيب على سؤاله؛ فهو لا يسأل عبثا.. ولو أجبته بأني لا أخافها؛ فسيشك حتما باحتمال تعاملي معها فيما مضى، وهذا ما كنت حريصا على كتمانه وإخفائه عنه. فحين يبدأ بالشك في قضية ما؛ لا يستكين، ويواصل التحقيق والبحث إلى أن يكتشف الحقيقة؛ لذلك فكرت بجواب يجعله مستمرا في تصديق كون اهتمامي بالسيمياء لا يتعدى المطالعة :

- كنت أخاف الجن في صغري؛ لأن الكبار كانوا يخوفونني بقصصها المرعبة! وعندما كبرت وبدأت بقراءة كتب السيمياء، أدركت أنها مخلوقات ضعيفة يمكن التحكم بها عن طريق كتابة أو تلاوة بعض الأسماء والأقسام التي تملك طاقة مؤثرة في طبيعة الجن النارية..

فاستوى المهدي ثم عدل من جلسته كمن خطرت له فكرة في غاية الأهمية، وسألني:

- لماذا ترفض تطبيقها وتكتفي بالشق النظري منها؟!

انشرحت ملامح وجهي فورما تأكدت من انطلاء حيلتي عليه، ثم أجبته بارتياح:

- لا أريد ممارسة السيمياء لأنها خطيرة، فعندما تتحكم في الجن وتسخرها لتنفيذ ما تطلبه رغما عنها، كن واثقا من عودتهم للانتقام منك يوما ما..
- لا أظن أنهم سيستطيعون النيل مني إن كنت دائم التحصين بآية الكرسي والمعوذتين!
- إنهم ينتقمون بطرق كثيرة.. ولو كنت محصنا فإنهم سينتقمون من أحبابك وذويك، أو يدمرون ممتلكاتك كما فعلوا مع الكثيرين ممن قاموا بتسخيرهم.. لقد كنت يا مهدي فيما مضي تخبرني بأنك تود

تعلم السيمياء حبا في المعرفة، لماذا بدلت رأيك الآن وصرت ترغب بتطبيقها والتحكم بالجن؟!

شبك بين أصابعه، ثم نظر إلينا مترددا وكأنه يحاول أن يختلق جوابا مضللا عن نواياه الحقيقية. إلا أن يوسف فطن لأمره، وقال له:

- هيا يا مهدي كن صريحا معنا.. أخبرنا الحقيقة ولا تحاول أن تتهرب بلباقتك المعتادة!

ابتسم المهدي مقرا بصحة تكهن يوسف، ثم زفر وأرخى كتفيه مجيبا:

- أريد أن أتعلم السيمياء لكي أتحكم في الجن، وأسخرها للقضاء على المنظمات السرية الشريرة التي تحكم العالم، وأنشر العدالة على كوكب الأرض! .

عم الصمت للحظة.. تبادلنا أنا ويوسف وعزوز النظرات باستغراب! ثم تعالت أصواتنا بقهقهات طارت من شدتها عصافير شجرة الفناء!.. فاحمر وجه المهدي خجلا وندما ولسان حاله يقول يا ليتني لم أبح لهم!.. لكنه سرعان ما استعاد ثقته بنفسه ورسم ملامح الجدية على وجهه، وقال:

- على أي شيء تضحكون؟! إنكم تضحكون على جهلكم من حيث لا تدرون!

أجابه يوسف وعيونه تدمع ضحكا:

- إنني أضحك لأنك ذكرتني بالسلسلة الكرتونية "بينكي وبراين".. عندما يلتقي براين بصديقه بينكي ويحاولان السيطرة على العالم.. إنك تبدو جادا وواثقا مثل الفأر براين تماما! .

ثم كف عزوز عن الضحك ممسكا بطنه، وعقب بصوت مرتعش النبرات:

- عـذرا صـديقي مهـدي، نحـن معـذورون إن ضـحكنا.. فرغبتـك أشـبه بخيال هوليوود!..

رد المهدي بابتسامة الواثق من نفسه:

- مـا لا تعرفونـه يـا سـادة، أن الإعـلام و الأفـلام الهوليوودية برمجـت عقولكم على نفي الإمكان والواقعيـة عـن أي شـيء غريـب يعرضـونه فـي أفلامهم، لدرجـة أن البعض بمجـرد سماعهم عـن الجـن؛ يطعنـون في الأمر ويقولون بأن لا وجود للجن إلا في عالم السينما والخيال..

ثم عقب يوسف بعد أن زالت ضحكته:

- أنـت تعلـم جيـدا بأننـا نـؤمن بوجـود الجـن.. وأتفـق معـك فـي مسـألة وجود أشخاص لا يؤمنون بها، والغريـب فـي الأمر أن الإعلام الغربي نادرا ما يتطرق إلى هذا الموضوع! وكأنهم لا يؤمنون به! ..

ابتسم المهدي حين رأى في كلام يوسف مدخلا يدافع من خلاله عن فكرته.. ثم قال:

- هـذا تمامـا مـا يريـدون الوصـول إليـه، يريـدون إيهـام النـاس بـأنهم لايؤمنـون بـالجن وبـألا وجـود لهـا، بـل ويحرفـون الحقيقـة محـاولين خداع الناس بأنها الأشباح أو أرواح الأموات كما يسمونها!.. وعندما فطـن الـبعض لخـداعهم، عوضـوا فكـرة الأشـباح بالفضـائيين الـذين يشكلون تهديدا لغزو الأرض..

لاحظ يوسف أن المهدي مقتنع جدا بما يقوله، فتخلى عـن نبرتـه السـاخرة، وسأله:

- ولمـاذا يريـدون طمـس حقيقـة الجـن؟! لمـاذا يريـدون تحويـل أنظـار النـاس نحـو خطـر الغـزو الفضـائي؟! ولنفتـرض أنهـم يريـدون صـرف

أنظـار العـالم عـن حقيقـة الجـن، لمـاذا يحـاولون إقنـاعهم بوجـود مخلوقات خيالية أخرى؟!

أجاب المهدي :

- يجب أن تعلم أن نسبة كبيرة من قطاع الإعلام و شركات الإنتاج السينمائية العالمية تقع تحت نفوذ هذه المنظمات، لذلك لا يدخرون جهدا في الترويج لهاته الأفكار.. إنهم لا يريدون أن يكتشف الناس حقيقة تعاملهم مع الجن سرهم ومصدر قوتهم.. وعندما يصورون الفضائيين في الأفلام على أنهم أعداء، فذلك لكي يقتنع المتلقي بأن علاقة الإنسان مع اي مخلوق آخر هي علاقة تحتمل العداوة فقط، كتدبير وقائي لطمس أي شيء قد يشير إلى تعاونهم مع الجن..

كان تفسير المهدي مشابها للكثير مما ورد في الكتب التي تتحدث عن نظرية المؤامرة، الشيء الذي دفعني للرد عليه:

- من خلال التفسير الذي قدمته لنا أرى أنك مؤمن بنظرية المؤامرة.. نفس الأفكار التى تم ذكرها في العديد من الكتب. لكن لو فرضنا صحة تآمر منظمات سرية، لماذا نجد أسرارها وخططها في الكتب وعلى شبكات الأنترنت؟ أليست سرية؟! أظن أنها لو كانت حقيقية لبقيت طي الكتمان..

أجاب المهدي منفعلا :

- بلى، إنها حقيقية! لقد تم تسريبها من أعضاء سابقين!..

قاطعته قائلا :

- إسمع يا صديقي، قد يوافق كلامك جزء من الحقيقة.. لكن الكثير مما قيل عنها محض أكاذيب.. وأظن أن بإمكان الشريف إبراهيم أن

يفيدنا في هذا الموضوع؛ فهو يتعامل مع الجن، ويملك الكثير منهم تحت إمرته..

سألني يوسف مستفسرا:

- و كيف يستطيع جن الشريف إبراهيم معرفة خبايا المنظمات السرية؟
- الجن القادر على اقتفاء أخبار السماء والتجسس على أحاديث الملائكة، لن يصعب عليه الاستعلام عن أخبار هذه المنظمات.
- أجل يا أحمد، صدقت؛ لقد قرأت في الأحاديث النبوية أن الملائكة يقذفون الجن الذين يتجسسون على أخبار السماء بالشهب..
- عدا عن الأحاديث النبوية، الآيتان الثامنة والتاسعة من سورة الجن تشيران إلى ذلك على لسان الجن أنفسهم عندما قالوا : (وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)

حينها ضرب المهدي كفيه ببعضهما متحمسا، ثم صاح بالقول دون أن يشعر:

- الآن صرت على يقين بأن الشريف إبراهيم سيفيدني بشيء جديد بخصوص نظرية المؤامرة!

طلبت من عزوز صب كأس أخرى من الشاي.. ثم أكدت كلام المهدي قائلا:

- أجل سيفيدنا؛ فهو ملم بهذه الجوانب الخفية أكثر من الكتاب الذين تقرأ لهم.. هذا إن كانت هناك منظمات أصلا!
- لطالما أردت أن أسألك سؤالا يا أحمد!
- تفضل.
- ممن تعلم الشريف علم السيمياء؟!
- تلك حكاية أخرى..

- لا بأس، قم بسردها علينا فكؤوس الشاي المنعنعة هاته تصفي الذهن، وتحسن المزاج لاستقبال معلومات جديدة..

نظرت إلى يوسف وعزوز الذين أبدوا بدورهم اهتماما لسماع قصة الشريف، ورشفت رشفة من كأسي مستلذا طعم الشاي والحديث معا.. قبل أن أشرع في السرد قائلا:

- كان الشريف ابراهيم وقتذاك طالبا في إحدى المدارس العتيقة لتعليم القرآن والعلوم الشرعية.. وكما حكى لي بنفسه، كان حينها في العشرين من عمره، وبالتحديد قبل موعد ختمته الثالثة للقرآن الكريم.. وللإشارة فمدارس القرآن هنا توفر المأكل والمبيت لطلابها وتخصص غرفة لكل واحد منهم. فكانت غرفة الشريف الأبعد في الجناح؛ مما يصعب عليه سماع تهليل المؤذن و آذانه للصلاة، سيما وأن المنبهات ومكبرات الصوت لم تكن متوفرة بالمدرسة وقتها، إضافة إلى نوم الشريف الثقيل؛ مما كان يفوت عليه حضور دروس ما قبل الفجر وصلاة الصبح مع الجماعة ويحرمه من وجباته اليومية؛ عملا بالقانون الداخلي للمدرسة الذي يحرم الطالب المتخلف عن صلاة الفجر من الطعام ليوم كامل.. فحدث أن فوت الشريف صلاة الصبح مرتين متتاليتين، ليجبره الجوع على سهر ليلة اليوم الثالث كاملة خشية أن يفوت عليه النوم حضور الصلاة وما ينتج عنه من حرمان للطعام.. وعندما كان مستلقيا في فراشه سمع حركة وجلبة تصدر من المكان المخصص للوضوء، فنهض وارتدى جلبابه مسرعا بشمعته إليه.. لم يجد أحدا! لكنه سمع الطلبة وهم يتلون القرآن في حجرة الدرس!!.. تعجب من ذلك؛ إذ لم يكن من المعتاد أن يستيقظ الطلبة ويبدؤوا بالقراءة في ذلك التوقيت!..

بالرغم من ذلك، شكك في نفسه، وتوضأ مسرعا للحجرة حيث يقرأ الطلاب.. وقبل أن يدخل، أسدل قلنسوته وأخفى وجهه خشية أن يوبخه الفقيه على تأخره، ثم اختار مكانه قرب الباب، وجلس دون أن يلقي بالا للطلبة.. التفت إلى الطالب الذي يجلس عن يمينه سائلا: "متى بدأتم الحصة؟" فالتفت إليه الطالب دون أن ينطق، ووجم الشريف في مكانه عندما رأى أن ملامح الطالب تتغير بوثيرة مخيفة لا تثبت على شكل محدد! ثم التفت الشريف مذعورا إلى الطالب الآخر، فكانت الدهشة أكبر حين التفت الطالب الثاني بوجه بومة تعلوها أذنان طويلتان! ليسقط الشريف مغشيا عليه من هول الصدمة.. عندما استعاد وعيه، كان في غرفته والفقيه يضع يده على صدره يتلو آيات من القرآن وحوله جماعة من الطلاب يحملقون في ذهول.. كان قلبه يخفق بقوة وكان جبينه يقطر عرقا، قبل أن يهدئ الفقيه من روعه ويكلمه بلهجة تجمع بين اللطف والصرامة: "ما الذي جاء بك إلى حجرة الدرس في منتصف الليل؟! ألم يعينوا لك أوقات الدراسة عند انخراطك في المدرسة؟!".. وجم الشريف عاجزا عن النطق، إلى أن أخبره الفقيه بأن القوم الذين سببوا له الذعر، كانوا طلابه من الجن المسلمين، وأنه يقوم بتدريسهم ليلا موازاة مع البشر الذين يدرسون نهارا.. لم يغادر الشريف غرفته ذلك اليوم من شدة الصدمة، وظل حبيس جدرانها ليومين كاملين، قبل أن يقرر بعد ذلك ترك المدرسة ويختار الدخول إلى عالم الجن والإطلاع على أدق أسراره.. فكان له ذلك عندما قصد بعض الروحانيين الذين علموه أصول السيمياء؛ ليصبح بدوره خبيرا بها بعد سنوات من الممارسة، ويصبح له أعوان وخدام من الجن يساعدونه في فك السحر عن المتضررين، وطرد الجن عن الأشخاص الممسوسين، وأحيانا أخرى

في استخراج الدفائن والكنوز.. إلا أن الشريف يظل شخصية مثيرة للجدل، فإلى جانب الذين يرون فيه رجلا طيبا صالحا، هناك فئة أخرى تعتبره دجالا لا أقل ولا أكثر!

عندما أنهيت حديثي هم يوسف بالكلام، لكن المهدي قاطعه من شدة حماسه للموضوع دون أن يشعر:

- سبحان الله! كلما حكيت لي عن الشريف ابراهيم ازددت يقينا أنه الشخص الذي أبحث عنه!.. لكن من يكون الفقيه الذي كان يدرسه ويدرس الجن؟! إن أمره مثير للإهتمام! ..

ضحكت من سؤاله بعدما توقعت أن فضوله سيدفعه إلى طرحه.. ثم أجبته قائلا:

- يدعى الحاج عبد الكريم، ويتعدى عمره المائة سنة.. عالم ورع حباه الله بهيبة منقطعة النظير، الجميع يحبه ويتحدث عن علمه وتقواه، ويتفقون على أنه ولي من أولياء الله الصالحين الذين أكرمهم الله بخوارق العادات..

شرع صدر يوسف بالاهتزاز من الضحك، وعقب قائلا:

- هل تقصد بخوارق العادات الطيران في الهواء، والمشي على الماء؟! صدقا لا أؤمن بهاته الخرافات!..

ابتسمت حين رأيت في يوسف دليلا قويا على صدق مقولة الضحك الذي ينتج عن الجهل بالأشياء.. ثم سألته مستفسرا:

- ما الذي يدفعك لإنكار هذه المسألة؟!

أجاب رافعا حاجبيه وهو يتناول حبات اللوز:

- المعجزات تخص الأنبياء دون غيرهم!..

هم المهدي بالكلام، لكنني أشرت عليه بالانتظار.. ورددت على يوسف:

- قولك أنها غير ممكنة تحجير كبير على الله، أنسيت أنه على كل شيء قدير؟! وأنه إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون، خوارق العادات تسمى معجزات لدى الأنبياء صلوات الله عليهم، وتسمى كرامات عند الأولياء.. فمريم العذراء لم تكن من الأنبياء وأوحى الله إليها بهز جذع النخلة وتساقطت منها الرطب رغم يبسها. وعندما كان النبي زكرياء يدخل عليها المحراب، كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.. أضف إليها أصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمئة سنة وتسعة سنوات، ثم بعثهم من جديد كرامة لهم.. وإن كنت تتعجب من الطيران في الهواء فما قولك في وزير سليمان الذي أحضر عرش بلقيس من اليمن في رمشة عين؟!

ثم علق المهدي قائلا :

- أتفق معك يا أحمد فيما قلته للتو، وأود أن أضيف بأن للصحابة والتابعين أيضا كرامات، منهم عمر بن الخطاب الذي كانت الشياطين تفر منه وتهاب ملاقاته، وعثمان بن عفان الذي تستحيي منه الملائكة، وعلي بن أبي طالب الذي رفع يوم معركة خيبر باب الحصن بيد واحدة، وعمران بن حصين الذي كانت الملائكة تسلم عليه، وخباب بن عدي الذي أسره المشركون بمكة وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة واحدة، وأذكر كذلك أم أيمن التي خرجت مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء و كادت أن تموت من العطش لولا أن سمعت حسا على رأسها فرفعته لتجد دلوا معلقا فشربت منه حتى رويت ..

ابتسم يوسف دون أن ينبس بكلمة، ودون أن أعلم ما إن كانت ابتسامته تلك اقتناعا بردودنا أم مكابرة وتمسكا برأيه.. ثم سألته مستدركا:

- عندما أنهيت سرد حكاية الشريف مع الجن، أردت أن تتكلم لكن المهدي قاطعك.. أكنت تود الاستفسار؟ أم أنك شككت في حقيقتها كما شككت في كرامات الحاج عبد الكريم؟..

أجابني :

- لا، لم أكن أود الاستفسار.. ولم أشكك في حقيقة قصة الشريف مع الجن، بل على العكس من ذلك تماما.. لقد عشت بدوري قصصا مرعبة مع هذه الكائنات، وهذا ما أردت إخباركم به قبل قليل..

أردت أن أستفسره.. إلا أن شغف المهدي المعتاد وحبه لكل ما يتعلق بالعوالم الأخرى حال دون ذلك عندما سبقني لسؤال يوسف:

- ولماذا آثرت الصمت، ولم تخبرنا بها عندما كنا نناقش قصص الجن في الحافلة؟!

كنت سأوبخ المهدي على مقاطعاته المتكررة وعدم التزامه بآداب الحوار، لكنني تركت ذلك عندما لاحظت أن سؤاله في محله.. قبل أن يجيبه يوسف قائلا:

- عندما قصصت لأصدقائي ما وقع لي مع الجن، سخروا مني وكذبوني!.. وبناء على إنكارهم علي؛ قررت أن أحتفظ بما عايشته لنفسي، وأن لا أخبر به أحدا تفاديا للإحراج ودرءا للسخرية.. لكن، بما أنك تعشق سماع هذه الغرائب يامهدي فسأقصها عليك..

ثم تنحنح يوسف، وتأبط وسادة، واستند على الحائط قائلا:

- عشت أولى حكاياتي مع الجن عندما كنت في سن الخامسة. أتذكر تفاصيلها بوضوح وكأنها حدثت بالأمس.. كان الفصل شتاء والبرد

قارسا، وكنا يومها نحضر عرسا في أحدى قرى ورزازات.. كان البيت ممتلئا عن آخره، وكانت النساء ترقصن على أنغام الأهازيج الأمازيغية التي كانت تسمع على بعد مسافة كبيرة من البيت.. أذكر أنني اختبأت وراء شجرة محاولا أن أتوارى عن أنظار صبي ألعب معه الغميضة، قبل أن ألمح جروا أسودا صغيرا يقف بقربي.. جذبتني هيأته الصغيرة الجميلة، ثم انحنيت وأخذته في حضني أمسح فروه المبلل من قطرات المطر.. في تلك اللحظة سمعت وقع خطوات تقترب؛ فالتفَتُّ لأندهش بمجموعة أرجل تدنو مني!.. كانت عبارة عن سيقان آدمية طويلة بأقدام كأضلاف الحمير؛ أصبت بالذعر الشديد، وتركت الكلب الصغير من يدي، ثم ركضت بكل ما أوتيته من قوة وقلبي يكاد ينفجر من شدة الرعب.. لم أتوقف عن الركض إلى أن ألقيت بنفسي في حضن والدتي مرتجفا.. سألتني عن سبب اصفرار لوني، وحكيت لها ما وقع؛ فهدأت من روعي ثم عادت لتنخرط في الغناء دون أن تصدقني.. أما المرة الثانية التي رأيت فيها الجن فقد كانت مختلفة كليا عن الأولى، ووقعت أحداثها أثناء دراستي بالمرحلة الإعدادية قبل وفاة جدي رحمه الله بأشهر قليلة.. فلما اشتد به المرض وسقط طريح الفراش؛ كنت ملزما بالتردد على الأطباء والصيدليات في ظل غياب والدي، متابعةً لحالته الصحية، ولاقتناء الأدوية التي توصف له من حين لآخر.. ولكي أجلب الدواء؛ كنت مجبرا على السير لمسافة تقارب العشر كيلومترات لكي أصل إلى أقرب صيدلية من القرية. وهذا ما حصل في ذلك اليوم الذي لا ينسى.. فبعدما طلبت مني أمي جلب الدواء، خرجت قبل آذان العصر بقليل، ووصلت إلى وجهتى عند الغروب.. اقتنيت الدواء من الصيدلية، ثم أخذت طريق العودة إلى البيت في ذلك الليل المقمر..

كنت أحمل مصباحا أستضيء به خلال المسير، بيد أنه لم يشفع لي حين اصطدمت بحجر أصاب قدمي؛ فاستندت إلى جدار قديم على الطريق. وبسبب الألم؛ لم أمعن النظر إلى الجدار وانشغلت بمسح الدماء عن أصابع قدمي.. سمعت صرير باب يفتح، فوجهت ضوء المصباح عليه ورأيت سيدة مسنة تقف عنده.. سألتني من أكون، فأخبرتها باسمي و بما أصابني وبأنني في طريق العودة إلى قريتي.. طلبت مني الدخول، فدخلت وقامت بتفقد جرحي وتطبيبه. ثم قدمت لي تمرا وحساء ساخنا.. لاحظت أنها لوحدها، لكنني لم أجرؤ على سؤالها؛ فكلامها القليل لم يكن ليشجعني على فتح حوار معها.. أنهيت تناول الحساء، ثم قالت لي : "هيا قم، لقد وصل!".. استغربت قولها و سألتها: "من الذي وصل؟! أنا لا أنتظر أحدا".. أجابتني بأنها تعلم، ورافقتني إلى الباب.. خرجت فلمحت شاحنة قادمة. وأخبرتني العجوز أن مسار الشاحنة يمر على قريتي وبأن سائقها سيقلني إليها.. ذهبت مسرعا إلى حيث يستطيع السائق رؤيتي ثم أشرت عليه.. توقف، ثم التفَتُّ لأودع العجوز ولم أجدها، لقد اختفت! لكن الصدمة كانت أكثر وقعا في نفسي عندما اكتشفت اختفاء الباب الذي خرجت منه أيضا! ومن خلال أضواء الشاحنة اكتشفت أن البيت الذي استضافتني فيه ما هو إلا جدار قديم قد انهار معظمه!.. عاودني الإحساس بالخوف ذاته الذي اعتراني في المرة السابقة، إلا أن حيرتي كانت أشد هذه المرة!.. تساءلت، من تكون تلك العجوز؟! وأين اختفى البيت بحجمه الفسيح؟!.. هرولت إلى الشاحنة وجلست بجانب السائق وأنا أرتعد فرقا! ثم طلبت منه إيصالي إلى قريتي.. لاحظ السائق علامات الخوف علي وجهي، ثم سألني عن ذلك.. أجبته بما حصل لي؛ فأخبرني أنه يمر كل يوم من

ذالك المكان، ويسمع من الركاب الذين يقلهم نفس القصة التي وقعت معي، عن امرأة عجوز تظهر للعابرين ليلا، تقوم باستضافتهم ريثما يصل من يقلهم، ثم تخرجهم وتختفي!.. سألته عنها من تكون؟.. أجابني بأن اختفاءها واختفاء البيت بتلك الطريقة دليل على أنها من الجن.. أما آخر عهد لي بالجن فكان قبل ثلاث سنوات، وفي نفس القرية.. كان الفصل صيفا، وبسبب شدة الحر التي لا تطاق؛ فضلت النوم في فناء البيت لكونه أقل حرا.. استويت على فراشي ملتحفا بإزار خفيف اتقاء للحشرات، ثم أغمضت عيني في انتظار أن يغلبني النعاس. فجأة أحسست بشيء يحاول أن ينزع عني غطائي.. تمسكت بالإزار من شدة الخوف، وقاومت بكل ما أوتيته من قوة وأنا أتلو آية الكرسي.. بعد لحظات توقف ذلك الشيء عن منازعتي، ثم أحسست به يبتعد عني. وبصعوبة بالغة وخوف شديد ألقيت عليه نظرة من طرف الإزار مرتجفا.. لقد كان جسما داكنا طويلا جدا! راقبته وهو يتبخر ويغوص في الأرض إلى ان اختفى، ثم هرولت مسرعا لغرفتي وأنا أقسم بأنني لن أعاود النوم بالفناء مجددا!..

عندما انتهى يوسف من سرد حكايته، سأله عزوز:

- وهل سبق لك أن استشرت معالجا روحيا بخصوص المسألة؟ قد تكون رؤيتك المتكررة للجان إشارة على المس!

أجابه يوسف وقد تغير لونه:

- لا، لم أفعل!.. لقد سبق و حذرني عم لي بأن لا أفعل!..

أثار جواب يوسف عدة تساؤلات في ذهني.. ما دفعني لاستفساره عن السبب:

- ولماذا يشير عليك عمك برأي كهذا؟! قد يكون عزوز محقا في قوله!..

فرفع يوسف كفه وأشار إلى راحة يده قائلا:

- رؤيتي للجن لم تكن بسبب المس؛ بل لأنني شخص زهري، وهذا الخط المتصل دليل على صحة ما أقول..

تحلق المهدي وعزوز حول يوسف فورما سمعا جوابه، وشرعا يتفحصان راحة يده، ثم نطق المهدي بنبرة المندهش:

- سبحان الله!.. أعرفك منذ ثلاث سنوات، ومع ذلك لم أنتبه قط لكونك زهريا..

لم أتعجب من ردة فعل المهدي تجاه يد يوسف، فللإنسان الزهري مكانة مميزة في عالم الروحانيات؛ حيث يعتقدون أنه الإنسان الذي تشترك في تكوينه النطفة البشرية والجنية معا، ما يؤهله ليكون إنسانا ذا قدرة على رؤية الجن والتواصل معهم خلافا لبقية البشر، ولهذا يلجأ السحرة والمعالجون الروحانيون إلى استخدامه كوسيط روحاني للتواصل مع الجن.. كما يعتبره المنقبون عن الكنوز مفتاحا رئيسا لإنجاح أعمالهم، وقد يصل الحال بهؤلاء المنقبين إلى اختطاف الشخص الزهري وذبحه كقربان للجن تسهيلا لاستخراج الكنز، الشيء الذي يدفع الكثير من الناس إلى تحذير أقاربهم وأبنائهم الزهريين من خطورة كشف أمرهم أمام العامة.. ويعرف الشخص الزهري بعلامات عديدة، أشهرها بريق غير عادي في حدقة العين، ووجود الخط العرضي المتصل في راحة اليد..

أنهى الإثنان تأملهما ليد يوسف.. وكما كان متوقعا سأله المهدي الذي لا يكف عن طرح الأسئلة:

- يوسف هل سبق وتعرضت لمحاولة اختطاف من قبل صيادي الكنوز؟!

ليمسك يوسف لا إراديا براحة يده، وتظهر على قسماته علامات الحذر وهو يجيب:

- لا.. لم يسبق لي! لأنني كنت دائم الحرص على ألا يرى أحد يدي ويكتشف أمري! ولأنني دوما ما كنت أسمع أخبارا عن اختطاف أطفال زهريين وقتلهم أو بتر أعضائهم؛ الشيء الذي جعلني دائم الاحتياط!..

أضاف عزوز قائلا :

- لقد سبق وشاهدت شريطا وثائقيا حول الأطفال الزهريين الذين تتم إراقة دمائهم من قبل المشعوذين كطقس لإرضاء الجن.. وعندما كنت أتردد على الفقهاء للمعالجة من المس، كنت كثيرا ما أسمع من بعض من يزورنهم أخبارا مماثلة، منهم من يؤكد صحة الخبر، ومنهم من يفنده باعتبار مسألة الزهريين مجرد خرافة لا أساس لها من الصحة..

ثم التفت إلي عزوز بشكل مفاجئ وسألني سؤالا لا علاقة له بالموضوع الذي نتحدث عنه:

- قل لي يا أحمد أين والداك و إخوتك؟ !

طأطأت رأسي وأنا أمسك جبهتي ضاحكا من سؤاله المفاجئ، ثم رفعته بعدما شرع المهدي و يوسف بالضحك بدورهم.. ليسألني عزوز مرة أخرى متلعثما:

- ما.. ما المضحك.. في سسسؤالي.. يا أححمد؟ !
- إنني أضحك من الطريقة التي طرحت بها السؤال، كنت تتكلم عن الأطفال الزهريين ثم التفت إلي وسألتني عن عائلتي دون سابق

إنذار.. إنني أتعجب من الطريقة التي يشتغل بها دماغك وتتسلسل بها أفكارك!.. كيف خطر لك أن تسألني هذا السؤال فجأة؟!

أجابني وهو يفرك لحيته الخفيفة المهملة:

- أثناء حديثي عن الأطفال الزهريين خطر لي خوف آبائهم وحرصهم عليهم، فقفز بي تفكيري إلى المرحوم أبي وأمي، وتذكرت أنني لم أهاتف أمي منذ أسبوع، ليقودني التفكير إلى والديك أيضا، فاستغربت عدم ذكرك لهما.. ثم سألتك عنهما..
- اعذرني يا عزوز، إن قلة احتكاكي بك لم تسمح لي بأن أخبرك أنني يتيم لا أخوة له..

ارتفعت حواجب عزوز ووجم للحظات متأثرا، ثم قال:

- فليرحمهما الله! هم السابقون ونحن اللاحقون.. اعذرني لم أكن أعلم !..
- لا عليك يا عزوز..

ثم ربت يوسف على كتف عزوز وخاطبه قائلا:

- نحن الاثنان نشترك في صفة اليتم، أنت فقدت أباك مثلي ولا يخفى عليك مدى صعوبة الأمر! أما أحمد فلقد فقدهما معا وهذا أصعب!.. فليرحم الله موتانا، وليحفظ أحيائنا !..

أمنا جميعا على دعاء يوسف، ثم ذهبت لإلقاء نظرة على وجبة الغذاء التي تحضرها جدتي، بعد أن أعطيت المهدي هاتفي ليتصل بوالديه، ويعلمهم بوصوله إلى تافروات..

***

بعد أن تناولنا "طاجين" بلح البحر كما اعتادت جدتي أن تطبخ لضيوفها على وجبة الغذاء، وبعد أن قررت اتخاذ منزل والدي الشاغر مقرا لمكوثي أنا

وأصدقائي طيلة أيام تواجدهم بتافراوت؛ أخذت منها المفاتيح وحملنا حقائبنا.. ثم سلكت بهم طريقا جبليا طويلا بدل الطريق المعبد؛ وذلك لاشتياقي لهذه الجبال التي لم تطأ قدماي شعابها منذ سنوات، وكذلك لحرصي على أن يكتشف أصدقائي روعة مناظرها ويتعودوا على طبيعة تضاريسها الوعرة..

كان الجو ساعتها صحوا، وكان لخرير المياه التي تترقرق من الينابيع سحر يطرب الأسماع وينزل السكينة على القلوب. فكنا نسير في صمت مكتفين بحديث الطبيعة عما دونه من الأحاديث.. كان يوسف يتخطى الصخور الزلقة بمنتهى الرشاقة والمرونة، بينما كان المهدي يبذل جهدا مضاعفا للحفاظ على توازنه تفاديا للانزلاق.. أما عزوز فبالإضافة إلى ثقل دراجته التي كان يحملها على كتفيه كان يرتدي حذاء كلاسيكيا بكعب لايتناسب مع طبيعة الصخور الملساء؛ الشيء الذي تسبب له في التعثر والسقوط مرارا، قبل أن يتمزق حذاؤه ويلقي بدراجته على الأرض منفعلا :

- اللعنة!.. لقد تمزق حذائي الجميل!..

توقف الجميع عن المشي فيما شرع المهدي في لوم عزوز:

- لو أنك أخذت بنصيحتي وتركت الدراجة في بيت الجدة لما فقدت حذاءك الآن!..

استغرب عزوز، ثم تساءل وهو ينظر إلى عجلات دراجته التي ما زالت تدور من شدة الارتطام:

- وما دخل الدراجة بحذائي؟!

حوقل المهدي وحدجه بنظرة ازدراء.. ثم عقب وهو يضع يديه على خصره وينظر إلي:

- أرجوك يا أحمد أجب هذا البليد على سؤاله! فلا طاقة لي اللحظة بغبائه!..

أخذت الحذاء الممزق من يد عزوز، وأخذت أتفحصه وأنا أجيبه:

- إن المهدي يقصد أن حملك للدراجة حال دون أن تنتبه لخطواتك. لكن لا تقلق فحذاؤك لم يتمزق، وإنما انفصل جزؤه العلوي عن نعله السفلي.. هناك إسكافي على بعد مسافة قريبة من هنا، سيقوم بإصلاحه..

أعدت لعزوز حذاءه وحملت دراجته على كتفي حتى يتسنى له التقاط أنفاسه، فيما قام هو بنزع فردة حذائه الأخرى ليتابع السير حافيا..

في تلك اللحظة، صادفنا نسوة من القرية يحملن جرار الماء على رؤوسهن.. لمحننا ثم توقفن على جانب الطريق، وأشحن بوجوههن إلى الجهة الأخرى وهن يخفينها بألحفتهن السوداء إلى أن مررنا، ثم استأنفن سيرهن.. فاستغرب المهدي فعلهن، وظل يلتفت إليهن مرارا.. قبل ان يسألني:

- هل تخاف نساؤكن الغرباء إلى هذه الدرجة؟!

أجبته ضاحكا:

- لا علاقة للخوف بالموضوع ولا علاقة له بالغرباء أيضا، إنهن يفعلن هكذا مع الرجال كنوع من الاحترام..

رد متعجبا:

- أوليس في فعلهن مبالغة؟!
- هكذا تنص تقاليد المنطقة يا مهدي، ونحن نحافظ عليها ما استطعنا..
- وماذا سيحدث إن عجزتم عن الحفاظ عليها؟ سيحل بكم الهلاك مثلا؟!.. إنكم تبالغون!..

رد عليه يوسف وهو يستعرض مهارته في التنقل بين الصخور كقطة مرنة:

- إسمع يا مهدي.. لقريتي أيضا تقاليد وعادات يحرص السكان على اتباعها، قد تتسم بنوع من المبالغة والتفاهة أحيانا، لكنها ما يحدد هويتنا ويميزنا عن بقية القبائل والشعوب..

ثم قفز قفزة كبيرة واستقر أمام المهدي رافعا يديه كلاعب جمباز، وأردف قائلا:

- وإن حدث وتخلينا عن تقاليدنا يوما ما فسنصبح أحياء بلا هوية.. وهذا عين الهلاك يا صديقي!..

***

كان الإسكافي إدريس شيخا أمردا أصلعا في السبعين من عمره، وكان من الأصدقاء المقربين لوالدي، مشهورا بين الناس بروحه المرحة وحسه الفكاهي، أما مشغله فكان عبارة عن خيمة رمادية صغيرة تستظل بصخرة كبيرة..

عندما توقفنا أمام خيمته كان يجلس إلى منضدة حديدية، منهمكا بخياطة حذاء رياضي قديم.. وما إن رآني حتى ترك الإبرة من يده، ونهض من مكانه فاتحا ذراعيه يضحك:

- أهلا بالغالي أهلا بالغالي!.. إنه ليوم عظيم أن أراك بعد طول غياب!..

ضحكت بدوري ثم عانقته مقبلا رأسه :

- أجل إنه يوم عظيم!.. لقد اشتقت إليك يا عم!..

سلم عليه الرفاق، ثم عمد إلى كومة أحذية كانت بجانبه، فأخرج منها مقعدين صغيرين وأعطانيهما قائلا:

- مررها لرفاقك.. فلتجلسوا!..

جلست على طرف المنضدة الحديدية، وأعطيت يوسف مقعدا ثم أخذ المهدي مقعدا، فيما فضل عزوز الاتكاء على دراجته بعد أن وضع فردة حذائه الممزقة على المنضدة..

أخذ الإسكافي الحذاء وشرع في فحصه، قبل أن يثبته على السندان وهو يقول:

- إنه يحتاج إلى القليل من الغراء، وإلى بضعة مسامير..

ثم فتح أسطوانة الغراء.. وأردف:

- أحمد.. لقد سألت عنك عمك عبدالسلام، فأخبرني أنك هاجرت إلى البيضاء لتتابع دراساتك الجامعية، وأخبرني أيضا أنك تعمل مع خالك علي في متجره.. إلى أي حد استطعت التوفيق بين الأمرين؟

نظرت إلى الرفاق مبتسما، ثم أجبته وأنا أفرك قفاي:

- يمكنك القول بأنني نجحت في التوفيق بينهما، إلا أن ذلك تطلب وقتا طويلا!..
- وما كان تخصصك؟
- علوم الاقتصاد.

نظر الإسكافي إلى عزوز، وحدق إليه مطولا وهو يمرر الغراء بفرشاته على نعل الحذاء.. ثم سأله:

- مالي أراك عابسا يا ولدي؟!

أجابه يوسف ساخرا:

- ليس من عادته العبوس يا عم.. لعله حزين لأجل حذائه الجميل!..

ضحكنا جميعا قبل أن يقاطعنا عزوز متجهما:

- مشكلتي أكبر!..

توقف الإسكافي عن العمل وقطب حاجبيه متعاطفا، ثم سأله مرة أخرى:

- وما هي هذه المشكلة يا بني؟!.. افتح لنا قلبك، ربما ساعدناك في حلها!..

خرس لسان عزوز ودارت عيناه في محاجرها، ثم أجاب مراوغا:

- إنها كبيرة لدرجة أنني لا أستطيع إخبارك بها..

رد الإسكافي ناصحا:

- دع أمورك في يد الخالق يا بني.. ابتسم، تبايعك السعادة ملكا!

عقب عزوز وكأنه يسخر:

- إنك تقول هذا لأنك لا تحس بما أعانيه!..

ابتسم الإسكافي، ثم أجاب وهو يفتش في علبة المسامير:

- لقد عانيت أكثر مما عانى أي شخص في هذا البلد يابني، لو أخبرتك بقصة حياتي التعيسة لرأيت أن مشكلتك لا تساوي شيئا أمامها!

رد عزوز معاندا:

- لا أظن ذلك؛ مشكلتي أكبر!..

سأله الإسكافي:

- تراهن؟!

رد عزوز واثقا:

- نعم.. لك عشرون درهما إن تأثرت بقصتك..

سكت الإسكافي للحظة، وتوقف عن دق المسامير وزفر متنهدا.. ثم شرع في سرد حكايته:

- لقد نشأت فتى يتيما أمرطا!.. كنت محروما من الأب!.. ومحروما من الأصدقاء كذلك! كلما هممت بأن أنسى يتمي باللعب مع أقراني،

ابتعدوا عني وعيروني بالأمرط!.. هذه الإهانات استمرت معي حتى في المدرسة!.. والأقسى من ذلك، أن أستاذا أهانني أمام الطلاب بسبب منظري! فخرجت باكيا وأنا أقسم بأغلظ الأيمان أنني لن أعود إلى المدرسة مجددا!.. لكن أمي كانت كل شيء!.. كانت أمي وأبي!.. صديقي الذي يلعب معي!.. ومعلمتي التي تدرسني!.. كانت تهدئ من روعي، وتمسح دموعي وتحن علي من قسوة الزمان الذي لا يرحم!.. ذات يوم رأيت ولدا يأكل حلوى؛ فطلبت منها أن تبتاع لي واحدة، لكن فقرها حال دون ذلك؛ فخرجت من البيت غاضبا متذمرا كأي طفل صغير لا يجد ما يريده!.. وعندما عدت، وجدت حشدا من الجيران أمام البيت!.. كان الصراخ ونواح النساء يتعالى في السماء في مشهد رهيب!.. لقد توفيت أمي! ماتت وهي تعد لي قالبا من الحلوى!.. أذكر أنني بكيت شهرا متواصلا جراء ذلك!.. وكيف لا ولقد صرت وحيدا.. وحيدا، فقيرا، حقيرا ومنبوذا.. لم يتقبلني أحد، ولم يتبناني أحد!.. وضعوني في ملجأ مع الأيتام. وكما كنت متوقعا لم يتقرب مني أحد، ولم يرغب أحد من الأطفال في الحديث إلي، والأسوء من ذلك أنهم التحقوا جميعا بعائلات جديدة إلاي!.. أغلقت الدولة الملجأ، وتركتني شريدا بين شوارع المدينة.. انتقلت من فشل إلى فشل، وصارت حياتي سلسلة من الفشل المتواصل؛ فضاع شبابي كما ضاعت طفولتي.. تعبت كثيرا وشقيت، عملت وجمعت مالا على حساب جوعي وعرائي.. تزوجت.. ثم صدمت عندما علمت أنني عاقر لا أنجب! فحرمت من الأبناء كما حرمت من الآباء.. رغم ذلك أنجبت زوجتي! فكانت صدمة قاسية أن تعرضت للخيانة!.. اعترفت بذنبها وأخذت منها الطفل كرها، حرصا مني على أن لا تضيع حياة البريء كما ضاعت حياتي.. أخذته وحملته إلى قرية بعيدا عن كل ما

يـؤلمني!.. لكن حدث أن جـرف سيل كوخنا وذهب بالطفل بعيـدا.. أذكر أنني تابعته بعيناي باكيا وخداه المحمرتان كبرتقالتين تطفوان على المياه! شعرت بالعجز و...

قاطع عزوز حديث الإسكافي متأثرا:

- مهلا لا تكمل!.. لقد أشعرتني حقا بأن حزني لا يساوي شيئا أمام ما عايشته يا سيدي!..

ثم أخرج العشرين درهما وسلمها للإسكافي.. فابتسم الإسكافي ودس النقود في جيب كندرته.. صمت قليلا وهو يحاول أن يتمالك ضحكته، ثم انفجر في وجه عزوز مقهقها:

- لقد خدعتك يا أبله!.. كيف صدقت ذلك يا بليد! متى سمعت قط شخصا يصف خدود طفل فقيد ببرتقالتين؟!..

انفجرنا من الضحك وشعر عزوز بالإهانة، لكنه تصنع الضحك معاندا وهو يخاطب الإسكافي:

- أنا من خدعك يا عم، لم أكن أعاني من مشكلة أصلا، فقط كنت أتظاهر بالحزن..

فرد الإسكافي دون أن يتوقف عن الضحك:

- الآن وبعد أن فقدت عشرين درهما، أصبح لديك عذر لتحزن. في المرة القادمة لا تخرج من بيتك إلا وأنت مبتسم، فالحزينون دوما ما يكونون عرضة للنصب والاحتيال يا بني!..

ثم علق يوسف ضاحكا:

- أنا أيضا تأثرت بحكايتك ياعم، لقد أتقنت مقلبك!.. وأظنني لو كنت مكان عزوز لصنعت مثل صنيعه!..

عقب الإسكافي وهو يضع أخر لمساته على الحذاء:

- أنا لا أحب الرهان، وإنما فعلت ذلك لأنني أكره أن أرى عابسا في مجلسي!..

ثم نظر إلى عزوز مبتسما وسلمه حذاءه :

- لاتقلق يا بني، فأنت لست بليدا، وإنما انخدعت بمقلبي لرحمة في قلبك!..

وأخرج العشرين درهما من جيبه وأعادها له:

- هاك نقودك يا رحيم القلب!..

استعاد عزوز ابتسامته بعدما استعاد نقوده، وعندما هم بدفع أجرة الإسكافي، منعه هذا الأخير قائلا:

- لا لن أقبل منك مالا ياعزوز، لكنني أسألك الدعاء في المقابل، من يدري.. قد تكون مستجاب الدعوة!..

***

وصلنا إلى بيت والدي في تمام الساعة الرابعة عصرا.. كان مكونا من قبو وطابقين، مشيدا على النمط الحديث بالإسمنت والآجر.. وبمجرد أن فتحت بابه الخشبي؛ تسللت رائحته المميزة إلى أنفي حاملة معها مشاهدا وذكريات لما عشته فيه مع والداي.. أذكر أنني انغمست في الحنين إلى الماضي للحظات من الزمن، قبل أن يخرجني منه ضجيج يوسف وعزوز حين هرعا إلى الداخل بحثا عن المرحاض..

كان يوسف يقف على باب الحمام مستجديا عزوز بوجه منكسر:

- أرجوك دعني أدخل المرحاض أولا!..

وكان الأخير يسحب يوسف من كتفه ويضع يده الأخرى على بطنه متوجعا مسترحما:

- أتوسل إليك أن تسمح لي بالدخول أولا؛ إنني أعاني من إسهال حاد!..

قبل أن أتدخل منهيا مفاوضاتهما وأنا أجر يوسف من يده:

- تعال معي ودع عزوز يدخل أولا؛ إنه في حالة يرثى لها!.. سأدلك على مرحاض آخر..

نزلنا إلى القبو، ثم وقفت قليلا تحت أشعة الشمس التي تنساب عبر الشبابيك الصغيرة وترسم أنوارا دائرية على جدرانه القرمزية.. لطالما أحببت تشكيل ضلال من هاته الأشعة التي تنعكس على الحيطان، ولطالما افتقدت ذلك المشهد في البيضاء.. استغرقت قليلا في ذكريات الصبا، لكنني سرعان ماتذكرت أمر يوسف وقمت بإرشاده إلى باب المرحاض. فهرول إليه مسرعا، وأغلق الباب وراءه دون أن يكبس زر الإنارة. ثم دلفت إلى غرفة في نهاية الممر..

كانت الغرفة مستودعا لأغراضنا القديمة من أدوات وصناديق وأثاث، إضافة إلى كيس ملاكمة يتدلى من سقفها.. عمدت إلى الكيس المعلق، وتحسست جلده الأسود السميك، ثم ضربته ضربا خفيفا كمن يضرب على صدر صديق التقاه بعد فراق طويل.. لم أكن ألكم الكيس، ولم أكن أتدرب عليه كما أوهمت جدتي.. بل كنت أستعمله خزينة سرية للأشياء التي لا أريد لها أن تراها أو تعلم بوجودها.. فصلته عن السلسلة التي تربطه بالسقف، ثم قمت بفك رباط فتحته العلوية.. كان فتحه أمرا بسيطا، لكن لم يكن ليخطر على بال جدتي التي تنظف البيت مرة كل أسبوعين أن بداخله سبعا من مخطوطات السيمياء المحرمة.. إنها بضعة من مجموعة مخطوطات وجدها أبي أثناء حفره لبئر قديمة، وعندما علم أنها تتعلق بأعمال السحر والسيمياء؛

قرر حرقها وإتلافها قبل أن يتمكن أحد من الحصول عليها. بيد أنني تمكنت من اختلاس سبع منها في غفلة من أبي، وقمت بإخفائها..

الوصفات المذكورة في ست منها تحتاج رياضة روحية شاقة قبل الشروع في تطبيقها، كالخلوة والسهر لأيام عديدة أو الصوم لأشهر متتابعة؛ ما جعلني أنصرف عنها لصعوبة شروطها. أما المخطوط السابع، فيسمى "عرش الملوك"، مجهول الكاتب ومجهول التاريخ.. إلا أن تطبيق ما جاء في أبوابه يشترط الكتابة فقط، مع حرق المكتوب أحيانا؛ الشيء الذي شجعني على تطبيق وصفاته فيما مضى، علما أن تجاربي اقتصرت على ما يتم عن طريق التلاوة والتعزيم، كتسخير الجن لتحريك الأشياء عن بعد أو لإخفائها بشكل مؤقت. أما التطبيقات التي تتم عن طريق كتابة الطلاسم والجداول فلم تكن لتنجح معي، والسبب في ذلك أن الحبر الذي كنت أستخدمه في كتابتها كان مفتقرا لشروط الحبر الروحاني وعناصره الحقيقية..

أخرجت المخطوط من الكيس، ثم جلست على صندوق في زاوية الغرفة وشرعت في تصفحه.. كانت يدي تمتد لا شعوريا إلى جيبي وتتحسس قارورة الحبر التي أوصاني "دافيد بن حيون" بإيصالها إلى "الشريف".. قاومت جاهدا أن لا أقوم بإخراجها من جيبي، لكن هوسي القديم وضعفي تجاه كل ما هو روحاني؛ أجبرني على إخراجها.. كنت أنظر إليها وضميري يحاول أن يقنعني بأن خيانة الأمانة فعل مشين، فيما كنت أحاول إقناعه بأن الحصول على القليل من الحبر لا يعد جريمة كبيرة.. حاولت مقاوما أن لا أفتحها، إلا أنني فشلت في ذلك عندما لمحت قارورة فارغة ملقاة الأرض..

فقمت من مكاني والتقطت القارورة، ثم أغلقت باب الغرفة احتياطا من دخول أحد الرفاق. فتحت قارورة الحبر، وسكبت القليل منه في القارورة

الأخرى، ثم أحكمت إغلاقها.. أعدتها إلى جيبي وخرجت من الغرفة، بعد أن أخفيت المخطوط وقارورة الحبر المسروق خلف الصندوق..

***

عندما عدت إلى الطابق الأرضي كان عزوز ما يزال في الحمام، وكان يوسف مستلقيا على أريكة في البهو يشاهد التلفاز.. أما المهدي فكان في مكتبة والدي، يجول وسط الغرفة ويحملق بشغف في رفوف الكتب التي تحيط به من كل جانب.. راقبت لهفته للحظات وأنا مستند إلى الباب، ثم خاطبته قائلا:

- تبدو متلهفا وكأنك طفل في متجر الحلواني، تحدق إلى الحلوى دون أن تمتد يدك إليها!..

استدار رافعا حاجبيه، ثم ابتسم قائلا:

- هذه الكتب تراودني عن نفسي، إنها تزيد عن ثلاث آلاف كتاب في مختلف المجالات!.. هل كان والدك كتبيا؟!
- لا، لكنه كان عاشقا للكتب والقراءة!..
- أتسمح لي بقراءة كتاب؟
- بالطبع، تصرف وكأنك في بيتك..

ثم توجه مباشرة إلى كتاب في أقصى يمينه.. فسحبه قليلا بسبابته، ثم أخرجه من بين الكتب برفق وهو يقرأ عنوانه:

- "الأمير".. للكاتب نيكولو ماكيافللي.. لطالما رغبت في قراءته!..

سألته ساخرا:

- من بين هذه الكتب كلها، اخترت كتاب ماكيافللي! ألم تستطع إيجاد كتاب أفضل من ترهات ذلك الشيطان؟!

أجابني وهو يتصفح الكتاب:

- أصبت في كونه شيطانا، لكنك لن تستطيع إنكار عبقريته.. يكفى أن معظم الحكام يتوسدون كتابه هذا ويصبحون عليه كل صباح!..
- أولئك حكام، وهم معذورون إن فعلوا؛ فالحاكم دوما ما يكون محفوفا بالذئاب والشياطين، ولكي يعيش بينهم يتوجب عليه أن يفكر مثلهم، وإلا فلن يسلم من كيدهم.. أما أنت يا مهدي فمجرد فتى مغربي بسيط لا علاقة لك بالحكم لا من قريب ولا من بعيد.. أرجوك لا تصدق أنك قادر على حكم العالم وتخليصه من الشرور!..

شرعت في الضحك متهكما، فيما أخذت معالم الإحراج بالانتشار على قسمات وجهه.. قبل أن يسألني:

- وما المانع من ذلك؟
- لقد أخبرتك سابقا بأن طموحك هذا خيالي!.. حتى وإن سلمنا بإمكانية وقوعه، فإنك ستكون أشبه بقط يحلم بالسيطرة على غابة مليئة بالوحوش.

ارتبك قليلا وأغلق الكتاب.. ظننت أنه سيعيده إلى مكانه، لكنه تأبطه، ورد مبتسما:

- إسمع يا أحمد!.. طموحي كبير! وقد يكون خياليا كما تراه! وقد أكون أشبه بقط في عالم من الوحوش كما تقول!.. لكنني أعرف ما أريد، وسأسعى جاهدا في تحقيقه مهما كلفني الأمر. إنها حياتي أنا! ولن أسمح لأحد بأن يملي علي قراراتي، أو يثبط من عزيمتي!.. أنا إنسان يملك هدفا، أما أنت يا أحمد، مجرد إنسان يهيم على وجهه في هذه الدنيا، ولا يعرف ما يريده منها!..

ثم خرج من المكتبة بعدما نجح كلامه الأخير في إثارة زوبعة من التساؤلات في ذهني.. تساءلت عن السبب الذي يجعل الإنسان متعطشا للحكم والتسلط.. هل هي غريزة فطرية لدى الإنسان؟! أم أنه ناتج عن المبالغة في تقدير الذات؟!.. هل هي الرغبة في تحقيق العدالة من دفعت المهدي إلى هذا الطموح؟ أم أنها الأنانية التي جعلته يرى نفسه أحق بالبطولة من بقية الناس؟.. كنت سأصفه بالجنون لولا أن تذكرت طموح الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بتولي الإمارة قبل نيلها. ولولا أن تذكرت أن حلم تحرير القدس راود الناصر صلاح الدين منذ صباه..

يولد الطموحون بشرا كغيرهم، لكنهم يتفوقون على الآخرين بهممهم.. فمن الناس من يقبل أن يكون مسكينا متسولا، ومنهم من لا يقبل إلا أن يكون ملكا متوجا.. إنها حكمة الرب، فلولا الملوك لما علمنا بأنه المعز، ولولا المتسولون لما عرفنا أنه المذل.. لولا الأخيار لما أدركنا رحمته ونعمته، ولولا الأشرار ما أدركنا قهره ونقمته. إنها مظاهر الكمال الإلهي التي تخلق التوازن في هذا العالم، و تثبت بحق أن الله فعال لما يريد..

مقابلة الشريف..

غادرنا البيت قبيل آذان المغرب قاصدين المسجد المجاور لمنزل الشريف إبراهيم.. كنت أنوي لقاءه هناك لكي أسلمه أمانتيه، وأعرض عليه عزوز ليعالجه؛ سيما وأن عزوز قد أبدى حماسا كبير لملاقاة المعالج.. لقد تخلى أخيرا عن بدلته الرسمية، وانتقى من دولابي كندرة زرقاء ونعلا جلديا أصفر كالذي يحترف إسكافيو تافراوت صناعته.. بل وانعكس تفاؤله على حديثه أيضا؛ كان يجد في سيره ويثرثر كثيرا على غير عادته، وفي إحدى اللحظات صعد إلى أكمة، وشرع في ترديد أهازيج باللهجة الشمالية الجبلية. فبدا مضحكا عندما رفع الهواء كندرته وكشف عن ساقيه النحيفتين.. وكما يحصل في كل مرة، استغل يوسف الفرصة للسخرية منه قائلا:

- إنزل من عندك أيها المهرج، أتلك ساقاك أم أعواد ثقاب؟!

رمقه عزوز بنظرة فوقية وكأنه أمير على برجه العاجي.. ثم أجابه بنبرة رقيقة كمن يخاطب طفلا صغيرا:

- يا ولدي ألا تستطيع احترام من يكبرونك سنا؟! ألا تحسن شيئا آخر غير السخرية؟! أنظر إلى ما حولك؛ ستجد أشياء كثيرة لتنشغل بها عن تتبع عورات الناس.. أنظر إلى جمال هذه اللحظات التي تسبق الغروب!.. إلى انسدال شعاع الشمس على الجبال والسهول! وانعكاس لون السماء الساحر على صفاء المياه!.. أنصت لزقزقات العصافير العائدة إلى أعشاشها، واستشعر هبوب النسيم وراقبه وهو يحرك الأغصان!.. ارتق قليلا وكفاك تدخلا فيما لا يعنيك، وكفاك خوضا في أعراض الناس..

ضحك المهدي، وصفق إعجابا بخطاب عزوز:

- أحسنت يا عزوز!.. رغم أنني عاجز عن تصنيفك إلا أنني أشد على يدك بقوة هذه المرة؛ لقد سحقت يوسف دون أن تنزل لمستواه!..

حينها عقب يوسف بنبرته الساخرة مستفزا:

- أووه جميل!.. أرى أنك تحولت إلى شاعر مرهف الحس يا عزوز، لكن لا تنسى أنك مقبل على جلسة صرع بعد قليل.. سيغمى عليك، وسوف تصدر أصوات غريبة، وسيخرج الزبد من فمك وأنت تتخبط كسمكة على الشاطئ؛ حينها ستفقد شاعريتك، وسأكون حاضرا لكي أوثق اللحظة بهاتفي الجميل، وإن أعجبني الفيديو؛ فسأنشره على الانترنت بعنوان "عندما يرقص المجنون".. ما رأيك؟

لم أكن مهتما لما يدور بينهما، كان تفكيري حينها منشغلا بالحبر المسروق، وبما يمكنني أن أصنع به من أعاجيب.. لكن، عندما شاهدت عزوز يقفز من على الأكمة متوجها إلى يوسف وهو يستشيط غضبا مما قاله؛ ارتأيت أن أضع حدا لتصرفاتهم الصبيانية التي لا تنتهي، ثم جذبت عزوز من عضده ووضعت يدي على كتفه مبعدا إياه عن يوسف:

- هيا يا عزوز دعك من يوسف الآن.. لقد أعجبني ما كنت تغنيه، هل لك أصول من الشمال؟!

تلاشى غضبه بسرعة، وأجابني بعفويته المعتادة:

- أجل! أجل!.. أمي تنحدر من مدينة تطوان، وهي التي لقنتني هذه الأهازيج..
- جميل.. ألا تشتاق لأمك؟
- وهل هناك من لا يشتاق لأمه؟! أشتاق لها وهي معي، فكيف لا أشتاق لها وهي بعيدة عني!..

تنهد بعمق.. ثم أردف وهو يبتسم:

- إنها تكلمني على الهاتف كل يومين، وترسل لي المال كل أسبوع!..

أضحكني قوله، وضربت على ظهره ممازحا:

- ترسل لك المال؟! لقد شارفت على الأربعين يا صاح.. ألا تستحيي من أن تأخذ مصروفك من أمك؟!

أجاب ضاحكا:

- إنها من يصر على ذلك.. وأنا مجبر على تقبل الوضع، فلا شهادة لي تؤهلني للعمل! ولا أحد يقبل بي موظفا!..
- ولم لا تتاجر؟! التجارة خير من الإجارة..
- سأفعل.. لكن يتوجب علي أولا التخلص من الجنية سعاد واستعادة استقراري النفسي! ..

رن هاتف عزوز.. ثم أخرجه من الجيب الأمامي لكندرته، ونظر إلى شاشته.. ليصيح فرحا:

- إنها أمي يا أحمد!!

ابتسمت، فيما ابتعد عني قليلا وهو يكلم أمه ويفرك رأسه مبتجها.. تذكرت أمي.. لكنني سرعان ما تعمدت الانسلاخ من ذكرياتي كيلا تتحول إلى حنين محزن وانشغلت بما حولي، ثم توقفت عن السير، واستدرت لأكتشف أنني سبقت المهدي ويوسف بأمتار كثيرة..

كان المهدي يسير واضعا يديه خلف ظهره، بينما كان الآخر يحدثه ويحرك يديه كثيرا وكأنه يشرح شيئا ما.. حاولت اقتناص كلمة أو كلمتين مما يقوله لعلني أستنتج موضوع حديثهما، إلا أن بعدهما وزقزقات العصافير التي تملأ الأجواء حالت دون ذلك.. تابعت سيري، ثم عاد عزوز مهرولا وهو يكرر:

- الأم أجمل شيء في الدنيا!.. الأم أجمل شيء في الدنيا!..

سألته ضاحكا:

- ما الأمر؟! أراك مبتهجا..
- صوت أمي كفيل بأن يجعلني مبتهجا يا صاح! وما زاد من ابتهاجي أنها أرسلت لي حوالة مالية أيضا!..

تأمل شاشة هاتفه مرة أخرى وتلا أرقاما، ثم أردف قائلا:

- إنها الشيفرة المخصصة للحوالة.. قل لي أين توجد وكالة تحويل الأموال؟ أريد استلام المال!..
- أقرب وكالة من هنا تقع على بعد ست كيلومترات..
- ألا توجد واحدة أقرب؟
- كانت.. لكنها أغلقت بعد تعرضها للسرقة..

ثم توقفت عن السير، وشرعت في الضحك.. ليسألني عزوز مستفهما:

- ما بك تضحك؟!
- لقد تذكرت قصة سارقها!..
- أخبرني عنه!
- "بوخنونة".. هكذا يطلقون عليه، شاب في الثلاثين، أشعث، أغبر.. مخاطه لا يفارق منخريه، وإن فعل؛ فإنه يترك أثره على طول شاربيه! ..

قاطعني عزوز متقززا:

- يععع مقرف!
- مقرف؟!.. ماذا لو رأيته وهو يزيل جواربه عن قدميه في وضح النهار، تخيل، يزيلها ببطء حتى تتسنى لك رؤية الخمائر العفنة وهي

تنسلخ من قدمه، قبل أن يلفحك عبقها الذي يعيد ذاكرتك إلى مزابل التاريخ.. لطالما كانت الرائحة مرتبطة بالذاكرة!.. بالتأكيد ستتحاشى النظر إليه.. ولست الوحيد الذي سيفعل ذلك، فالجيران أيضا فعلوا، كانوا لا ينظرون إليه البتة!.. لكنني كنت ألقي عليه السلام بود كلما رأيته جالسا في مكانه المعتاد بالقرب من وكالة تحويل الأموال. يتكئ على بويب عداد المياه، ويقضى اليوم بنهاره مستجديا المارة.. وعندما يحل الليل؛ يلتحف بغطائه وينام، ليستيقظ في اليوم الموالي ويعيد نفس السيناريو.. ذات يوم تغير السيناريو! اختفى "بوخنونة"، واختفت معه أموال الوكالة.. فتح الناس بويب العداد، فوجدوا بداخله فتحة إلى الوكالة.. قام بوخنونة بعمليته والناس نيام، خطط لكل شيء منذ البداية.. بعد سنة، وعندما كنت عند إشارة المرور، توقفت أمامي دراجة نارية فارهة عليها شاب أنيق.. نظر إلي، ثم قال: " ألا تتذكرني؟! أنا بوخنونة، اعتذر لك عن قذارتي التي أزكمت أنوفكم وأعمت أبصاركم". ثم ألقى بورقة نقدية ومضى في حال سبيله ..

- ألم تكن الوكالة مزودة بكامرات مراقبة؟
- بلى، لكنهم لم يحسنوا تحديد هويته، كان حينها كثيف شعر الرأس، بشارب يغطي فمه! .. وبلحية تخفي نصف وجهه، عدا عن ذلك لا أحد يعلم هويته الحقيقية ..
- ولِمَ لم تبلغ عنه عندما صادفته؟!
- لا أحب مخافر الشرطة ولا جلسات المحاكم!.. اكتفيت بالحياد .
- لقد استطاع أن يخدع الجميع بمظهره يا صاح !..
- أجل.. المظاهر خداعة، تستطيع إثارة الانتباه، وتستطيع صرفه أيضا..

حين وصلنا إلى المسجد كانت الشمس قد استترت خلف الجبال وهي تجر أذيالها الحمراء لتفسح للظلام الذي بدأ بالتسلل من الجهة المقابلة، تأملنا قليلا مشهد السماء وهي تخلع ثوب الضياء.. ثم خلعنا نعالنا ووضعناها في أكياس بلاستيكية قبل أن ندخل المسجد مبسملين.. وحين أخذنا أماكننا بين الصفوف، صدح المؤذن بالآذان..

***

فرغنا من الصلاة، وأجلت بصري داخل المسجد متفقدا المصلين لعلني أجد الشريف إبراهيم بينهم.. كان المسجد فسيح المساحة، وكان ازدحام المصلين عند مخرجه يربك بصري ويصعب علي تمييزه بين الحشود؛ لذلك خرجت مع الرفاق ووقفت عند الباب مراقبا..

مكثنا على تلك الحال إلى أن خرج الجميع، وأغلق المسجد أبوابه دون أن يظهر الشريف.. ولما هممنا بالانصراف والذهاب إلى بيته، انحرفت عن الطريق المعبد سيارة رمادية فخمة من نوع مرسيدس، ثم أبطات من سرعتها وسارت بمحاذاتنا إلى أن تجاوزتنا قليلا، ثم توقفت..

فُتِحَ بابها وترجل منها كهل قصير سمين، بشعر أشيب إلى حدود منكبيه، ونظارات سوداء.. بدا لي مألوفا من حيث لا أدري، وعندما نزع النظارات؛ تأكدت أنه الشريف إبراهيم، وأخذت أضحك وأنا أشير إليه مخبرا أصدقائي:

- إنه الشريف!.. لقد تغير مظهره كثيرا!

انطلقنا إليه.. وأقبل علي بوجهه البشوش مصافحا:

- وأخيرا عدت لبلدتك يا أحمد!..

فعانقته ضاحكا كالمعتاد :

- عدنا والعود أحمد يا شريف.. تليق بك الطلة الجديدة! أرى أنك أطلت شعرك، وخففت من لحيتك.

ابتسم.. وأجابني وهو يمسح شعره:

- هذا من باب التجديد وكسر الروتين.

ثم قدمت له الرفاق، فيما شرع في مصافحتهم الواحد تلو الأخر بالبشاشة نفسها.. قبل أن أردف قائلا:

- كنا نقصد بيتك؛ صديقي عزوز مريض ويحتاج إلى مساعدتك!

عقد الشريف حاجبيه وضم شفتيه وهو ينظر إلى عزوز مترددا.. ثم قال لي:

- إنني الآن مستعجل لحضور حفل زفاف في مدينة "تيزنيت"! لكن ما رأيك أن أقلكم إلى بيتك أولا وأرى حالة عزوز هناك؟..
- فكرة جيدة!.. من حسن حظنا أنك مررت من هنا ولمحتنا!

أشار علينا بالصعود إلى السيارة؛ وألقيت عليها نظرة فاحصة.. ثم سألته بخصوصها:

- أهذه سيارتك الجديدة؟!

أجاب وهو يفتح بابها:

- أجل، اقتنيتها قبل شهرين.. عقبى لك بواحدة مثلها..

صعد الثلاثة إلى المقاعد الخلفية.. وعندما فتحت باب المقعد الأمامي، فوجئت بقطة صغيرة تستلقي عليه. حملتها بين يدي، واستويت على المقعد وأنا أداعب فروها الأبيض.. ثم أغلقت الباب تزامنا مع المهدي الذي أغلق الباب الخلفي بقوة، قبل أن ينطق معتذرا:

- أستسمح!

ثم اقترب برأسه من مقعدي وهمس لي في أذني:

- لم أتوقع أن يكون الشريف بهذا الشكل العصري، تخيلته محلوق الرأس، ويرتدي جلبابا مرقعا مع سبحة عملاقة حول عنقه..

ضحكت مستظرفا تأثره بالصورة النمطية التي ترسمها السينما حول المشعوذين، وتابعت مداعبة القطة قبل أن ينتبه الشريف إلى تبسمي ويسألني :

- هل أعجبتك القطة؟!
- بالتأكيد! إنها جميلة وهادئة!.. كما أنها لا تبدو كقطط هذه المنطقة، إنها أجنبية أليس كذلك؟!

دلف بالسيارة إلى الطريق المعبدة.. وانطلق عبرها مسرعا وهو يجيبني:

- إنها قطة أوروبية، أهدتها حماتي لابنتي الصغرى..

عقب المهدي مستحضرا من ذكرياته:

- أنا أيضا تلقيت قطة من جدتي كهدية!.. أهدتني إياها في أول عام دراسي لي، وأوصتني بالاعتناء بها!.. أذكر أنها فتحت عينيها بين ذراعي. وبعد أن عنفتها؛ تعلمت وضع فضلاتها في الحمام كبني البشر، بعد أن كانت تفعلها في الدولاب وعلى التنور.. كنت ألاعبها دوما، وكانت تأكل كل شيء بما في ذلك بذور عباد الشمس والبطيخ!.. كانت ترافقني إلى الباب حين أخرج، وتستقبلني عنده حين أعود!.. تعودت عليها لسنتين كاملتين حتى أدمنتها كأخت صغيرة.. ذات مساء خرجت ولم تعد.. بحثت عنها في كل مكان، تحت السيارات، في أسواق السمك، حتى أنني سألت عنها المارة والجيران.. أذكر أنني حزنت حينها كثيرا، لدرجة أقسمت معها أنني لن أتعلق بشيء بعدها؛ لكيلا أحزن مجددا، ولكيلا ينفطر قلبي أبدا..

ضحك الشريف من عبارات المهدي الأخيرة، ثم قال:

- القطط جميلة، لكنها لا تعرف الوفاء..

تفاعل يوسف مع الموضوع قائلا:

- صدقت يا سيدي، القطط لا تفي لأصحابها كما تفي الكلاب.. القطة تهتم لطعامها فقط، أما الكلب فلا يهمه إلا صاحبه. والعجيب في الأمر أن وفاء الكلاب لا يشفع لها في مجتمعنا الذي يعتبرها رمزا للسفالة والحقارة !. أتساءل دوما عن ذنبها، لكنني لا أهتدي إلى جواب!..

أجابه الشريف وهو ينظر إليه عبر المرآة المعلقة:

- هذا المجتمع ظالم في بناء أحكامه.. ذنب الكلاب الوحيد، أنها أحبت الإنسان أكثر من نفسها.

صمت الشريف قليلا، وتفقد هاتفه.. ثم سأل عزوز:

- مماذا تشكو بالضبط؟!

فأجابه متلعثما:

- أنا.. أنا.. أش.. أشكو من جنية عا.. عاشقة..

انفلتت ضحكة من يوسف، وأتبعها المهدي بقهقهة بعدما عجز عن تمالك نفسه.. فابتسم الشريف.. وتابع عزوز:

- لقد تسلطت علي قبل عشرين سنة، ثم تزوجتها، وعندما أردت الانفصال عنها غضبت ورفضت.. قصدت شيخا، ثم قرأ علي القرآن وطردها، لكنها ما تزال ترعبني كل ليلة، تتشكل في صورة معزة مجنحة، وتجثم على صدري؛ لأدخل في نوبات من الصياح كالديك..

سأله الشريف مرة أخرى:

- كيف تم الزواج؟ وهل كانت تتجسد أمامك في اليقظة؟ أم أنها كانت تظهر في أحلامك فقط؟

أجاب عزوز:

- تم الزواج بمراسيم عجيبة، حيث أخذت خصلة من شعري وخصلة من شعرها ووضعتها في إبريق ماء مغلي، ثم شربنا من ذلك الماء.. كانت تتشكل في اليقظة على صور نساء عديدات، كما كانت تتسوق، وتقوم بأعمال البيت كلها..
- هل كانت تمضي اليوم كله معك؟
- لا، كانت تحضر لساعات، وتغيب لساعات أخرى
- أحصل بينكما جماع؟
- لا..

حينها التفَتُّ إلى عزوز وانفجرت مع الآخرين من الضحك.. كان يوسف يضحك ممسكا بطنه، وكان المهدي يقهقه ويضرب فخذيه بكفيه، فيما طأطأ عزوز رأسه مبتسما.. إلى أن سأله الشريف:

- وكيف أمكنك أن تعتبره زواجا، وأنت لاتجامعها يا عزوز؟!..

فأجاب عزوز وهو يرفع رأسه ببطء:

- لا أدري!.. لقد كانت الجنية تخدمني وتناديني ب"زوجي"..

وصلنا إلى البيت، وركن الشريف السيارة على جانب الطريق، ثم خاطب عزوز:

- إسمع ياعزوز، الزواج من جنية لا يتم إلا عن طريق شاهدين من الجن أو أكثر. وعندما يتم فإن الجماع يكون غالبا عن طريق الأحلام، وعن طريق اليقظة في حالات نادرة.. يجب أن تعلم أيضا

أن القدرة على التشكل لا تتأتى إلا للمردة الأقوياء من الجن، وحتى هؤلاء، لا يستطيعون البقاء على صورة الإنسان لساعات طويلة؛ فالتشكل يرهقهم ويستنزف طاقاتهم.. المحير في الأمر هو عودة الجنية لإرعابك بعد طردها من جسدك كما قلت.. سأضطر إلى التحدث مع قرينك قبل البدء في علاجك.

ثم سأله يوسف:

- كثيرا ما أسمع بالقرين، أهو جني أم شيطان؟

فأجاب الشريف:

- كل شيطان جني وليس كل جني شيطان، الجني الكافر وحده من تطلق عليه لفظة شيطان. أما القرين فهو جني يولد مع الإنسان ويترعرع معه، يصاحبه ولا يفارقه ولو للحظة، يعلم عنه كل شيء، يوسوس له ويجري منه مجرى الدم في العروق، وعندما يموت الإنسان يعيش قرينه بعده لمئات السنين أو ربما لآلاف.. باختصار، قرين الإنسان هو نسخته الجنية..

كان المهدي ينصت باهتمام كبير لحديث الشريف، قبل أن يسأله متحمسا:

- وكيف يتم التحدث مع القرين؟

ضحك الشريف، وصمت قليلا وهو يحك صدغه.. ثم أجاب:

- الكثير من المعالجين الروحانيين والسحرة لا يحبون الإجابة على سؤالك هذا، لكن لا بأس، سأجيبك.. هناك علم يسمى بعلم الوشوشة، هذا العلم يعلمك طرق التواصل مع قرينك خطوة خطوة، وحين تتكلل خطواتك بالنجاح؛ يصبح بإمكانك التكلم مع قرينك، وسماع كلامه على شكل همسات، وهذا هو المقصود بالوشوشة..

رفع يوسف حاجبيه متعجبا، وتجلت بوضوح أمارات الفضول على وجه المهدي.. ثم تابع الشريف حديثه:

- علم الوشوشة شائع أيضا بين السحرة والنصابين.. على سبيل المثال قد تصادف عرافا يقوم بإخبارك باسمك واسم أمك وأبيك أو لون سيارتك أو عن موقف حدث معك في الماضي دون أن تخبره بذلك، ستستغرب الأمر، وسوف تتعجب منبهرا من قدراته، وقد تصل به الوقاحة إلى الكذب وافتراء أنباء مستقبلية. ما يجب أن تعلمه أن هؤلاء لا يعلمون إلا ما يخبرهم به قرينك عنك، أي المعلومات التي تتعلق بالماضي أو الحاضر، أمام بخصوص المستقبل فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.. وهذا ما سأفعله مع عزوز، سوف آمر قريني لكي يستعلم من قرينه ويخبره بحقيقة الجنية التي تزوجها.. انتظروا قليلا! ..

أمال الشريف رأسه على كتفه الأيسر وبدأ بتلاوة أسماء باللغة السريانية، ثم شرع في التحدث إلى قرينه بصوت منخفض وسط ذهول الجميع.. استغرق الأمر قرابة العشرين دقيقة، قبل أن ينتهي الشريف من قرينه، ويخاطب عزوز:

- لقد تبين أن الجنية لم تكن جنية! بل مجموعة من الجن المسلطين الذي تناوبوا على خداعك!..

ازداد ذهولنا، وتسمر عزوز في مكانه فاغرا فاه، ثم استرسل الشريف:

- أبوك متوفى، وأمك متزوجة، وأنت تسكن في شقة المرحوم أبيك الكائنة بعمارة سيدة تدعى مريم أليس كذلك؟

لم ينطق عزوز، لكنه أومأ برأسه مؤكدا صحة المعلومات.. ثم أستأنف الشريف:

- لم يكن أبوك ميسورا، لكنه استطاع أن يقنع أب مريم قبل موته بأن يبيعه الشقة بالتقسيط رغم أن المالك يؤجر ولا يبيع.. توفي والدك قبل أن يتمكن من تسديد كامل الأقساط، لكن المالك لم يطالبك بتسديدها، وعندما مات بدوره، حذت ابنته مريم حذوه ولم تطالبك بالدفع.. صحيح؟

أكد عزوز صحة الخبر بإيماءة أخرى، ثم تابع الشريف:

- لكن أمك تنحدر من أسرة ثرية، كما أنها الوريثة الوحيدة.. ما حدث، أن زوج أمك قصد ساحرا.. هذا الأخير سلط عليك أعوانه من الجن ليصيبوك بالجنون ويفقدوك عقلك، ولعله فعل ذلك لكي يضمن أنك لن تزاحمه في ميراث أمك، ولكي يتسنى له التحكم في أموالها فور حصولها على الإرث.. أما مسألة الزواج فمجرد خدعة لعزلك وإبعادك عنها. حتى الطعام الذي كانوا يوهمونك في كل مرة أن زوجتك الجنية تطبخه، كان مجرد دقيق مسحور يتهيأ لك في كل مرة أنه أكلة مختلفة ..!

غطى عزوز وجهه بكفيه، وأطرق رأسه من شدة الصدمة.. فيما راح المهدي يربت على كتفه متعاطفا. حتى يوسف الذي سخر منه مرارا، التزم الصمت متأثرا هذه المرة.. أما أنا، فكنت أتعجب من قدرة المال الرهيبة على تحويل الناس إلى وحوش مادية.. تلك العينة من الناس التي تجردت من كل ضمير في سبيل الحصول عليه.. ألا يعلم هؤلاء أن ما يحاولون الحصول عليه لن يرافقهم إلى قبورهم؟!.. ألا يعلم هؤلاء المجرمون أن هناك حسابا عسيرا وعقابا شديدا بانتظارهم؟!.. لا، أقسم بأن هؤلاء لا يؤمنون برب أصلا! ..

نظر الشريف إلى ساعته اليدوية، ثم تفقد جيب قميصه، وأخرج منه قلمه المصنوع من القصب قائلا:

- فلندخل إلى البيت لنتمم ما بدأناه.. علينا فك السحر!..

نزل الرفاق، وتأخرت عنهم متظاهرا بمداعبة القطة.. ثم أخرجت قارورة الحبر من جيبي، وسلمتها للشريف:

- هذه أمانتك التي أوصيتني بأخذها من " دافيد" ..

ثم أخرجت ظرف الحاجة مريم من الجيب الآخر:

- وهذا الظرف، بعثته لك السيدة التي كنت أقطن بعمارتها، العمارة نفسها التي يسكن بها عزوز..
- تقصد السيدة مريم؟ !
- أجل..
- ألم تخبرك بما تريد؟
- لا..

***

حين دخلنا إلى البيت، دلفنا إلى البهو وأخذت مكاني على أريكة إلى جانب يوسف والمهدي، بينما جلس عزوز مستقبلا الشريف بوجهه على الأريكة المقابلة..

فتح الشريف قارورة الحبر، ووضعها بالقرب منه، ثم تناول القلم القصبي وغمسه في الحبر قائلا:

- أعطني كفيك يا عزوز..

ساد الصمت، ومد عزوز كفيه، ليشرع الشريف بالكتابة عليها.. لاحظت أنه رسم جدولا على راحة يده اليسرى، وجدولا مماثلا على راحته اليمنى، ثم

أخذ يكتب عليها رموزا.. لم استطع تحديد ماهية الرموز، لكن المهدي الذي كان يشرئب بعنقه طوال الوقت، استطاع أن يحددها حين همس لي قائلا:

- إنه يكتب أرقاما عربية!..

أومأت له برأسي، ونظرت إلى يوسف الذي كان في أشد لحظات تركيزه.. ثم عدت إلى متابعة ما يحدث ..

انتهى الشريف من الكتابة، ووضع القلم إلى جانب القارورة، ثم طلب من عزوز أن يرفع كفيه ويباعد بينهما.. فرفع الأخير كفيه، وشرع الشريف في القراءة:

- "أطبقوا على كفيه بارك الله فيكم وعليكم ! أطبقوا على كفيه بارك الله فيكم وعليكم! "..

استمر في ترديد الجملة نفسها، فيما بدأ عزوز بالتعرق وهو يقاوم جفونه المتثاقلة.. كانت أنفاسه المسموعة تتسارع، وكانت كفاه تقترب ببطء من بعضها البعض، إلى أن انطبقت كليا وخر مغشيا عليه؛ حينها طلب الشريف أن أجلب له دلوا ..

جلبت دلوا من المطبخ ووضعته أمامه، ثم عدت إلى مكاني.. كان عزوز حينها ما يزال فاقدا لوعيه، وكان الآخران يراقبانه عن كثب ترقبا لما سيؤول إليه الوضع.. ثم اقترب مني المهدي مرة أخرى وهمس لي:

- ما حاجة الشريف لدلو؟!
- لا تستعجل شاهد بنفسك لكي تعلم يا صديق..

أمسك الشريف بيد عزوز وقام بإدخالها في الدلو، ثم شرع بعد ذلك في قراءة أذكار غير مسموعة.. استمر بالقراءة لمدة تزيد عن الدقيقتين، قبل أن يسكت وهو ينظر إلى الدلو مترقبا.. فجأة بدأ الدلو بالاهتزاز؛ وانتفض يوسف

في مكانه فزعا ينظر إلى السقف وكأنه رأى شيئا ما، ثم استفاق عزوز ونزع يده من الدلو مرتعبا ..

هدأ الشريف من روعه وهو يمد له الدلو قائلا:

- لا تخف! أعد يدك إلى الدلو وأخرج ما فيه..

في البداية تردد عزوز وامتنع.. لكن الشريف طمأنه مرة أخرى؛ ليتشجع ويدخل يده إلى الدلو مرتجفا، قبل أن يخرج منه جسما كرويا ملفوفا في قماش ملطخ بالوحل ..

اندهش الجميع، وابتسم الشريف مخاطبا عزوز:

- إنه السحر المعمول لك، افتحه!..

مزق عزوز طبقة القماش، وأخرج منها جمجمة قط.. انقبضت ملامح وجهه قليلا، ثم أخرج من الجمجمة صورة صغيرة محشورة بين أسنانها. نظر إليها مصعوقا.. ثم أخبرنا بصوت مبحوح:

- إنها صورتي عندما كنت في الثامنة عشر من عمري! ..

استمر في التحديق إليها وانهمرت دموعه دون أن ينطق!.. لا أدري ما دار في خلده حينها، ولم أكن راغبا في الدراية به.. اكتفيت بالصمت أسوة بأصدقائي الخرس؛ عندما أدركت أن دموعه أكبر من أي فكرة، وأبلغ من أي كلام!..

شد الشريف على يد عزوز وأخبره قائلا:

- كان السحر مدفونا بمقبرة في تطوان، ولقد قام الروحانيون بإحضاره بعدما حددوا مكانه.. لقد شاءت الأقدار اليوم أن تنتهي معاناة استمرت لثمانية عشر سنة.. قدر الله وما شاء فعل، لا اعتراض على حكمه يا عزوز، أوصيك بتلاوة سورة البقرة كل ثلاثة ليال، وألا تنام

إلا وأنت على طهارة.. أما بخصوص الذين ظلموك، فأنت أدرى بما ستفعله بهم..

ثم سأله يوسف:

- ألن تعاود الجن إزعاجه مرة أخرى؟

أجابه:

- لن تتجرأ على الاقتراب منه ما دام محصنا.. لقد تم فك السحر، وما عادت هناك عقدة بين الساحر والجان..

قام الشريف بإغلاق قارورة الحبر، وشفط المداد الروحاني عن قلمه القصبي بالمنشفة، وحدق إلى يوسف وسأله مبتسما:

- لماذا انتفضت عندما بدأ الدلو بالاهتزاز؟

تردد يوسف قليلا.. ثم أجابه:

- لقد رأيت هالة زرقاء تنطلق من الدلو وتخترق السقف! ..

عقب المهدي مستغربا:

- هالة زرقاء؟! أنا لم أر شيئا!

فسر الشريف الأمر للمهدي قائلا:

- تلك الهالة كانت هالة الروحانيين الذين قاموا باستخراج السحر.. الزهريون فقط من يستطيعون رؤيتها..

فسأله المهدي:

- ومن هم الروحانيون؟! ..

أجاب الشريف:

- الروحـاني هـو كـل إنسـان أو جنـي تجـاوز مرتبـة الـنفس إلـى مرتبـة الـروح، فصـارت لـه قـدرات فـوق قـدرات الآخـرين، ولقـد قصـدت بهـا أعواني من الجن المسلمين..

ثم استفسره يوسف قائلا:

- أتقصد بقولك أن هناك روحانيين من الإنس لهم قدرات خارقة؟! ..

فأجابه الشريف:

- نعم.. لكن لا علاقة لهم بعالم السيمياء أو السحر، لأن قدراتهم أعلى من الاستعانة بالجن!.. بل هم أقوى بكثير!..

نقر يوسف على كتفي وغمز لي طالبا انتباهي، ثم سأل الشريف وهو ينظر إلي بمكر :

- سيدي، أريـد أن أسـألك عـن مسـألة لطالمـا سـببت لنـا جـدلا.. إن أحمـد والمهدي يؤمنان بوجود الأوليـاء الـذين يحلقـون فـي الهـواء ويمشـون علـى المـاء، أمـا أنـا فـلا أصـدق هـذه الخـزعبلات!.. هـل تـدخل هـذه الخوارق ضمن قدرات الروحانيين الذي تحدثت عنهم؟!

تنحنح الشريف وغير من جلسته ثم شبك بين أصابعه مجيبا:

- سؤال في محله.. يجب عليك أن تعلم أن قدرة الإنسان على الطيـران أو المشـي علـى المـاء لا تعـد دليلا علـى الصـلاح والولايـة، فـالميزة لا تقتضـي التفضـيل.. ولـو كانـت كـذلك؛ لكانـت الطيـور والأسـماك أشـرف المخلوقات. هذه الخوارق التي ذكرتها يا يوسف لا علاقة لها بالتقوى، بـل تتحقـق فـي أدنـى مسـتويات الرياضـات الروحيـة، ويسـتطيع اي شـخص القيـام بهـا إن خـالف أهـواءه و شـهواته ولـك فـي البـوذيين والهنـدوس أكبـر دليـل.. إن الـنفس ناتجـة عـن اتحـاد الـروح والجسـد، واتبـاع الشـهوات الجسـدية هـو مـا يجعـل الـنفس أسـيرة للمـادة، وقهـر

الشهوات هو ما يحررها لترتبط بالروح ويسهل عليها التحكم في عناصر الطبيعة..

ثم عقب المهدي سائلا:

- وكيف تفسر كرامات الصحابة رضوان الله عليهم، وخوارق الخضر التي ذكرها القرآن؟!
- إنهم يمثلون درجات عليا من الصفاء الروحاني الذي لا يتحقق إلى بالتقوى وتصفية النفس البشرية من كافة العلل والأمراض المعنوية.. تأمل هذه الأحاديث القدسي: "مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ"، " اتق الله ترى عجبا"، "من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم".. ولك أن تتصور مايمكنك فعله إن كانت قوة الإله معك..

عقب المهدي سائلا:

- هلا أعطيتنا مثالا واحدا عن القدرات التي يملكها الروحانيون المتقون؟

نظر الشريف إلى ساعته ورفع حواجبه:

- أووه لقد تأخرت! لكن سأعطيك مثالا.. لقد جاء في الآثار "إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت؛ ورجعت إلى أصحابها بِطُرَفِ الفوائد من غير أن يؤدي إليها عالم علما".. هذا مايسمى بالعلم اللدني، ولك في قصة الخضر أكبر مثال على ذلك..

ثم سكت.. واستأنف قائلا:

- ليس هذا فحسب، إن لهؤلاء الروحانيين قدرة على نقل أسرار وعلوم كاملة لطلابهم دون كتابة أو تلاوة أو إملاء.

كنت قد قرأت فيما مضى كلاما مشابها لما قاله، لكنني أحببت أن أستفسره عما استشكل علي.. وقلت له:

- أجد صعوبة في فهم الأمر.. كيف يتم تلقين معارف وعلوم دون الحاجة إلى كتابة وإملاء؟ !

فأجاب قائلا:

- يتم ذلك عن طريق الواردات القلبية.. سأعطيكم مثالا تقريبيا.. كلكم تتذكرون أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبمجرد أن أسألكم "هل تتذكرون أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟" فسوف تخطر على أذهانكم صور الطائرة وهي تخترق البرجين، ثم مشاهد الدخان والنيران، أناس يسقطون وآخرون يهربون، انهيار الأبراج، الرئيس الأمريكي يلقي خطابا يتوعد بالانتقام، البوارج الأمريكية تنطلق، الطائرات تقصف أفغانستان.. وستتوالى الصور والأحداث في أذهانكم دون حاجة إلى حاسة الإبصار، وهذا مجرد مثال بسيط من الطرق التي يستخدمها الروحانيون ..

ثم قام الشريف من مكانه وأعاد القلم إلى جيبه.. قبل أن يأخذ القارورة بيمناه وهو يربت على كتف عزوز قائلا:

- لا تنس ما أوصيتك به! واجعل لي نصيبا من دعائك!..

هم الشريف بالمغادرة، ثم قام المهدي من على الأريكة وهرول إليه عند الباب:

- سيدي، يجب أن تعلم أنني جئت إلى تافراوت خصيصا لكي أقابلك، وإني لأرجو منك أن تعلمني السيمياء وكل ما يتعلق بها من العلوم الروحانية..

التفت إليه الشريف، وسأله مبتسما:

- ولماذا تريد تعلمها؟!

رد يوسف ضاحكا:

- إنه يريد استعمالها للسيطرة على الجن، ولكي يحكم بهم العالم..

فحدجه المهدي بنظرة شزراء توبيخا له على ثرثرته الزائدة.. وأجاب قائلا:

- أريد القضاء على المنظمات السرية التي تحكم العالم!

ضحك الشريف بدوره، وسكت قليلا.. ثم قال:

- لو كان الشر ينتهي بهذه الطريقة، لساد العدل منذ وقت طويل.. الجني ليس كائنا خارقا كما يعتقد الجميع، بل على العكس، الإنسان أخطر منه بمئات المرات؛ بإمكانك ردع الجني بكلمة، أما الإنسان فلا.. الجني مجرد كيان كهرومغناطيسي أغلب ما يستطيع فعله لا يتعدى التأثير على وظائف الدماغ.. حتى وإن نجحت في السيطرة على الجن، فإنها لن تستطيع التغلب على أولئك الأشرار؛ فهم أيضا على دراية بالسحر والسيمياء، ولهم تحصينات لهذا النوع من الحروب..

تساءل المهدي منفعلا:

- وكيف سنهزم هؤلاء المجرمين إن كانوا يحتكرون كل شيء؟!

أجاب الشريف:

- إنها عدالة الله، لقد خلق الكون وخلق معه قوانينا وأسبابا للقوة. هؤلاء اجتهدوا وعملوا بكد وجهد؛ فاستحقوا الحصول على القوة بغض النظر عن طبيعة عقيدتهم أو دينهم.. لكن، لا تنس أن معظم الشائعات التي تروج حول هذه المنظمات لا أساس لها من الصحة، إنهم مجرد جماعة من المفكرين والأثرياء والسحرة، شعروا برغبة في شيء يحققون من خلاله ذواتهم؛ فأنشأوا أخويات ووضعوا لها

دساتيرا، ثم نسجوا حولها ما يكفي من الأساطير، والرموز التي دعموها بقصص لاسترهاب الناس والتلاعب بعقولهم، ولأن الناس ينجذبون للغموض؛ صدقوا الخدعة وصاروا مهووسين بنظرية المؤامرة!..

رد المهدي بانفعال أكبر:

- لكنهم يشجعون على الانحلال الأخلاقي! ويزرعون الفتنة في كل مكان.. مخططاتهم تنجح دائما!

عقب الشريف:

- صدقت.. لكن لا تنس أننا من يسمح بنجاحها.. إننا نستكر، ونستهجن، ولكننا لا نبذل جهدا من أجل التغيير!

سأله المهدي مجددا:

- وما الحل؟!

أجاب الشريف:

- كن تقيا، ومخلصا في عملك؛ حينها سيكون الرب نفسه في صفك، ولن تكون بحاجة إلى الجن حينها..

استدعاء المتنبي..

عندما انتصف الليل يومها، كنت على السطح مع الرفاق مستلقيا على فراشي أتأمل السماء.. لقد تعمدت أن أقنعهم بالمبيت على السطح متعللا بالحر، وبجمال النجوم التي تبدوا أجلى وأقرب مما تبدوا عليه في سماء الدار البيضاء. والحق أنني أردت بذلك إبعادهم عن القبو بأقصى مسافة ممكنة؛ احتياطا من كشفهم لأمري وتطفلهم علي أثناء قيامي بتجاربي السيميائية، سيما وأن حصولي على الحبر الحقيقي جعلني أنتظر نومهم بفارغ الصبر لتجربته..

التفَتُّ إلى المهدي الذي كان مضطجعا عن يميني.. لم أكن متأكدا من نومه حينها، لكنني كنت متأكدا من غضبه من الشريف الذي رفض تلقينه السيمياء.. أيضا كنت على يقين بأن غضبه سيستمر لأيام عديدة، هذا إن لم يتحول إلى حقد وكراهية؛ فلقد كان متلهفا بما لا يقاس لمقابلة الشريف، ولم يكن في حسبانه أن هذا الأخير سيرفض طلبه بمنتهى اللباقة ..

صراحة، توقعت ذلك؛ فطموحه كان كبيرا جدا، ولم يكن عليه أن يكشف عنه منذ البداية؛ فكما من شأنه أن يكون مجلبة للسخرية، من شأنه أيضا أن يكون مجلبة للحساد وأعداء النجاح الذين يسعون دائما إلى إقبار الآخر وقتل عزيمته خشية أن يتفوق عليهم.. للسبب ذاته، كانت أمي تنصحني بكتمان طموحي وأحلامي، وكانت دائما ما تقول لي: " إن نويت على شيء عظيم فاكتمه وقاوم رغبة إفشائه، وعندما تحققه سيرى الجميع ذلك دون الحاجة إلى إخبارهم، حينئذ سيفرح أصدقاؤك لنجاحك، وستفوت على حسادك فرصة

منعك وإيقافك".. لعل المهدي لا يؤمن بهذه الحكمة، أو لعل أمه لم تلقنه إياها أصلا ..

التفَتُّ إلى يساري حيث كان عزوز منبطحا على بطنه. لقد كف عن الكلام منذ أن علم بحقيقة سحره، والتزم الصمت من هول الصدمة وفرط الألم.. أشفقت على حاله، وأشحت ببصري عنه إلى يوسف الذي كان مستلقيا على مقربة منه. كانت أصابعه الطويلة لا تكف عن النقر على شاشة هاتفه التي تضيء وجهه.. فجأة ألقى الهاتف من يده، وشرع في ضرب جبهته منفعلا.. لأسأله مستغربا:

- ما بك يا هذا؟!

نظر إلي، ثم التقط هاتفه وهو يجيبني:

- كنت ألعب لعبة الساموراي، ولقد عجزت عن الوصول إلى المرحلة الأخيرة مجددا!
- وبماذا سيفيدك الوصول إلى المرحلة الأخيرة؟! إنك تهدر وقتك فحسب!.. من الأفضل لك أن تنام..
- على العكس، هذه الألعاب ممتعة يا صاح. إنها تساعد على التخفيف من الإحساس بالملل.
- إنها متعة زائفة. هناك العديد من المتع الحقيقية التي تحقق الفائدة، وتحول دون الشعور بالملل..
- مثلا؟
- جرب أن تبتعد قليلا عن عالم التقنية.. أطفئ كل الأجهزة، وافصل كل شيء متصل بالكهرباء.. خذ كتابا واقرأه في أحضان الطبيعة.. تنفس بروية، واستمتع بالشهيق والزفير.. افترش الأرض واستنشق رائحة النبات الندية.. خذ قبضة من التراب، وتصالح مع الأرض أمك..

راقب وادي النمل أو تسلق جذع شجرة، استمتع بالحديث إلى أناس من مختلف الأعمار وكون صداقات جديدة.. استفد من اللحظة بأقصى ما يمكنك، ولا تتركك رهينة لشاشات العرض؛ فبسببها ما عاد الناس يحسنون استعمال مشاعرهم، وما عادوا يتقنون فن العيش!..

ابتسم يوسف وأبدت ملامحه إعجابا بقولي، ثم أطفأ هاتفه ووضعه تحت وسادته قائلا:

- نصائحك جميلة، ومع أن الاستغناء عن التكنولوجيا أصبح أمرا صعبا، إلا أنني قادر على ذلك، لكنني لست قادرا على الحديث إلى أي كان أو تكوين صداقات جديدة..!
- وما المانع؟
- أنت تعلم بأنني شخص محدود الأصدقاء؛ أجد صعوبة في الوثوق بالآخرين، وأحيانا أفضل أن أكون وحيدا منعزلا عن الناس..
- لا أنصحك !.. لقد جربت العزلة عندما فقدت والداي، إنها إحساس فظيع يا صاح..!
- قد يكون الإحساس بالوحدة شعورا قاتلا يا صديقي، لكنه سيجنبك السواد الأعظم من المشاكل.. وكما يقول سارتر الجحيم هو الآخرون..
- لا أتفق معه..
- أقنعني إذن!
- إسمع يا يوسف.. عندما تخرج من بيتك صباحا أو مساء أو في كل وقت، ستصادف وجوها في الرخاء وأخرى في الزحام.. ستستلطف بعضها لأنها توافق هواك، وقد تنفر من بعضها لأنك ضحية فكر لايتقبلها، أو لأن لها شبها بذكريات لاتحبها.. لكن وقبل أن تسمح

لنفسك بالنفور منها، تذكر أنهم أقاربك على هذه الأرض وإخوانك شئت أم أبيت. وقبل أن تحكم عليهم بما تملكه من فكر مسبق، حاول أن تضع نفسك مكانهم،وتخيل أنك مررت بنفس ظروفهم. فأنت كإنسان، مطالب بالتماس الأعذار لإخوانك،وإن لم تجد لهم أعذارا؛ فاتهم نفسك بالتقصير عن إيجادها، وبعجز قلبك الضيق عن تقبل الآخرين باختلافاتهم..الحب هو فطرة الإنسان..أما غيره فمجرد صفات دخيلة. وإن ظننت أن العداوة بين الناس أمر ضروري لامفر منه،تذكر عندما كنت صغيرا بريئا، لقد كنت تحب الجميع.. ولم يكن للظنون السيئة طريق إلى قلبك..

- يستحيل أن تحب الجميع يا أحمد!
- هذا لأنك تصنف الناس، وتحكم على أفعالهم..
- إنه أمر طبيعي، وهل هناك من لا يحكم على أفعال الناس؟!
- لا يحق لنا أن نحكم على الآخرين بالسوء، الله وحده من يستطيع ذلك؛ لأنه الوحيد الذي يطلع على أعمالهم كلها، قد يتبنى المرء فكرة ما، ثم يتراجع عنها لاحقا، وقد يذنب مساء ويتوب ليلا؛ فيغفر الله له دون ان تدري..
- وما الصواب في رأيك يا أحمد؟
- أن يكون تعاملك مع الناس قياسيا.
- أي؟
- عاملهم بلطف ولين كيفما كانوا، لا تنتقص من قيمتهم إن بدوا لك أشرارا سيئين، ولا ترفع منها إن بدوا لك تقاة طاهرين؛ فالمظاهر خداعة، والصور التي نكونها عن الناس لا تحتمل الصواب دائما..

تثاءب يوسف، وتكلم بلكنة تشوبها بوادر النعاس:

- كلامك صحيح، لكن معاملة الجميع بلطف سياسة صعبة التحقيق..

ثم استوى في فراشه، وأدار وجهه إلى الجهة الأخرى قائلا:

- سنكمل الحديث لاحقا.. تصبح على خير..
- وأنت من أهله..

وبمجرد أن أجبته، شعرت بتدفق الأدرينالين الذي حولني إلى كتلة من الحماس لا تفكر إلا في القبو.. بالرغم من ذلك، تحكمت في رغبتي، وقررت الصبر لساعة أخرى حتى يستغرق يوسف في النوم ..

مرت ساعة أو أكثر.. رفعت رأسي عن الوسادة متظاهرا بالبحث عن شيء ما. كان شخير المهدي ويوسف يملأ المكان، ومع ذلك، استرسلت في التمثيل وتعمدت وضع يدي على بطني كمن تعرض لإسهال حاد احتياطا من أن تلتقطني عين أحدهم وأثير الشكوك؛ خصوصا وأنني أعلم أن المهدي من الطينة الفضولية التي لا تجد حرجا في تعقب الآخرين والتجسس على أفعالهم.. أمسكت هاتفي، وقمت من فراشي على مهل.. كنت على وشك ارتداء صندلي، لكنني عدلت عن ذلك لما فكرت أنه قد يحدث صوتا وخطوت نحو الدرج حافيا ..

نزلت الدرج على أطراف أصابعي، واجتزت الطابق العلوي وضوء الهاتف يسبقني إلى وجهتي.. تذكرت أني سأحتاج إلى ورق وقلم وشمعة؛ فعرجت إلى المكتبة، وأخرجت من قمطر مكتبها دفترا به صفحات فارغة وقلما كنت قد صنعته أيام الثانوية.. ثم توجهت إلى المطبخ، وشرعت في البحث عن الشمعة..

تفقدت الأدراج والرفوف حيث اعتادت جدتي أن تخبئ الشموع تحسبا لانقطاع الكهرباء، لكنني لم أجدها.. بحثت عند الموقد لعلني أجد واحدة

مستعملة، لكن دون جدوى.. بدأت أفقد أعصابي، وأخذت أبحث كالمجنون بين الأواني وفي سلال الخضر، حتى أنني تفقدت البراد أملا في العثور عليها.. وعندما يئست من البحث، جلست على المنضدة وصدري يتلجلج من الخيبة.. لحظتها، خطر لي أن تعسر الأمر قد يكون إشارة من الله الذي يريد أن يبعدني عن أعمال السيمياء، لكنني سرعان ما دفعت هذا الخاطر بخاطر آخر أقنعني بأن ما أنوي القيام به لا يؤذي أحدا.. وقبل أن أعلم ما إن كان هذا الخاطر الأخير من نفسي أو من الشيطان، تذكرت الشمعدان المثبت على مدخل القبو؛ فضربت بكفي على جبهتي مبتسما، وأخذت القداحة من على المنضدة بعد أن نسيت الخواطر كلها..

هرعت إلى القبو.. وعند مدخله كانت شموع الشمعدان ما تزال في مكانها، ابتسمت عندما وجدت أن واحدة منها لم تستعمل بعد، ثم نزعتها ودلفت إلى الغرفة حيث تركت المخطوط والحبر.. فأضأت الشمعة، وثبتتها في منتصف الغرفة وأنا أستمتع برؤية اللهب وهو ينتشر على فتيلها ليضيء الجدران؛ ثم أطفأت مصباح هاتفي الذي بدا حقيرا أمام ضوء النار وتأثيره الساحر ..

أخذت المخطوط وقارورة الحبر ووضعتهما على مقربة من الشمعة، ثم هممت بإغلاق الباب كتدبير احترازي.. ولما قمت بإطلالة على الممر الخارجي وتأكدت من خلوه من المهدي المتجسس؛ ارتأيت أن لا أغلقه كاملا، وأن أترك منفذا للهواء نظرا لارتفاع درجة الحرارة.. فوضعت المخطوط على الأرض وجلست على ركبتي، ثم بدأت في تصفحه بحثا عن الوصفة التي سأقوم بتطبيقها.. كان المخطوط يحتوي على العديد من الأبواب التي تغري بتجربة ما فيها، كطريقة المشي على الماء، طريقة طي المسافات، طريقة التحليق في الجو، وطريقة الارتفاع في الهواء.. فاخترت تجربة الباب الأخير كونه سهلا

وأقل خطورة.. كانت طريقته تنص على رسم الطلسم في ورقة ووضعها تحت العمامة أو في الجيب إن وجد، ثم الشروع في تلاوة قسم على خدام الطلسم.. فأخذت ورقة من الدفتر، ووضعتها على الأرض، ثم فتحت قارورة الحبر وبدأت بنسخ الطلسم المرسوم على المخطوط..

وفي اللحظة التي أوشكت فيها على الانتهاء من النسخ، سمعت صرير الباب؛ ثم توقفت عن الكتابة عندما استغربت حدوث ذلك في مكان لا ريح فيه! وكردة فعل لا إرادية استدرت نحو الباب، وتفاجأت برأسين يطلان منه.. كان المهدي يطل برأسه عند منتصف الباب وعلى وجهه ابتسامة ماكرة، وتحته مباشرة يظهر النصف من رأس يوسف، ومن حاجبيه المرتفعين أدركت أنه يبتسم أيضا.. تسمرت في مكاني واجما بلا حراك وفي يدي قلمي يقطر حبرا ويخلف بقعا حمراء قانية على الأرض .. حينها سألني المهدي بنبرة لينة وهو ما يزال يبتسم:

- هل بإمكاننا الدخول يا سيدي السيميائي؟

ابتسمت رغما عني، وأخذت أفرك لحيتي مدركا أنه لا مفر لي من إخبارهما بعدما انكشف كل شيء أمامهما.. ثم أجبته:

- تفضلا..

دخل المهدي مندفعا نحو المخطوط، ثم تبعه يوسف الذي سارع إلى التقاط قارورة الحبر.. تأملها قليلا.. ثم توجه بالسؤال إلى المهدي وهو يضحك:

- هل هذه هي القارورة التي جلبها أحمد من مراكش؟

أجابه المهدي وهو يقلب صفحات المخطوط:

- لا أدري!

فسألتهم والدهشة تتملكني:

- كيف علمتم بذلك؟!

أجاب المهدي:

- إسمع يا أحمد.. أنت لم تحترم ذكائي منذ البداية، ظننت أنني غبي بما يكفي لأصدق أن اهتمامك بالسيمياء لا يتعدى الجانب النظري.. من تحاول خداعه يا صديقي؟!

ثم قهقه وأردف قائلا:

- عندما طلبت منا النزول في مراكش والقيام بجولة بها استغربت ذلك؛ خصوصا وأنك أخبرتني ذات مرة أنك غير معجب بها ولا تطيق أجواءها البعيدة كل البعد عن الهدوء والسكينة التي تحبها؛ فشككت أنك توقفت بها لأمر لا تود الإفصاح عنه، وما أكد لي ذلك؛ أنك لم تكن مهتما بما يجري حولك، كنت تسير إلى جانب يوسف مطرقا رأسك، ولا تتكلف عناء النظر إلى أناسها وبناياتها، وعند "الحلقة" كنت تقف وكأنك على الجمر، وكنت تراقبنا طوال الوقت؛ لأعلم أن ذهنك كان منشغلا بموضوع آخر وقتها؛ فتظاهرت بأنني غير منتبه لك، إلى أن تسللت من الحلقة، وتعقبتك من بعيد دون أن تشعر بي.. وحين خرجت من عند الخياط، أسرعت وسبقتك ركضا إلى "الحلقة" وكأن شيئا لم يقع.. عندما عدت، لاحظت أن جيب سروالك أصبح منتفخا عما كان عليه، ومن خلال شكل الانتفاخ علمت أنها قارورة صغيرة لكنني لم أعلم ما بها، فأخبرت يوسف بذلك وطلبت منه أن يبقي الأمر سرا.. من سوء حظك أن يوسف لم ينم، وشعر بك تتسلل دون أن ترتدي صندلك؛ فتملكه الفضول، وأيقظني طالبا مني تعقبك. فعاودتني الشكوك واقترحت عليه أن ننتظر قليلا.. وعندما تأخرت

عن العودة إلى فراشك؛ نزلنا وبحثنا عنك إلى أن وجدناك هنا، وها نحن أمامك يا صديق..

أعاد يوسف القارورة إلى مكانها، وانهمك في ضرب كيس الملاكمة ساخرا..

- صراحة يا أحمد، لم أتوقع يوما أنك ساحر مشعوذ، لقد تجاوزت سقف توقعاتي يا صديق!

أضحكني قوله.. ثم أجبت وأنا أنظر إلى المهدي الذي جلس على الأرض وانغمس كليا مع صفحات المخطوط:

- لا تلمني إن أخفيت أمر تجاربي يا مهدي؛ فهناك العديد من الخرقى أمثال يوسف الذين يسيئون الظن، ولا يفرقون بين المشعوذ والسيميائي..

توقف يوسف عن اللكم.. وابتعد عن الكيس وهو يسألني:

- وما الفرق يا ساحر؟!

أغلق المهدي المخطوط، وأجابه:

- لقد سبق وأخبرتك أن المشعوذ يستطيع إلحاق الضرر بالآخرين، كأن يفرق بين الأزواج، أو يجلب شخصا لآخر غصبا عن إرادته، أو يطلب من الجن إيذائه في ماله وبدنه وعرضه.. أما أعمال السيمياء، فتتمحور حول ممارسها فقط، ولا يتعدى بها غيره من الناس..

سكت يوسف قليلا ليستوعب ما سمعه.. ثم عاد إلى لكم الكيس وكأن جواب المهدي لم يقنعه كفاية للعدول عن رأيه.. فأخذت المخطوط من يد المهدي وأعدت فتحه على الصفحة التي كنت أنقل منها، ثم بدأت أقارن بين الطلسمين.. لاحظت أنني أخطأت في عدة مواضع؛ ثم مزقت الورقة منفعلا:

- تبا!.. علي إعادة رسم الطلسم من جديد..!

التقط المهدي أجزاء الورقة الممزقة من على الأرض، ثم سألني وهو يحاول ترتيبها:

- هذا الطلسم لأي غرض؟
- إنه طلسم مخصص لإبطال الجاذبية، والارتفاع في الهواء..

ابتسم المهدي منبهرا، وسكت لهنيهة.. ثم سألني مجددا:

- وكيف حصلت على المخطوط؟!
- لقد عثر عليه أبي مع مخطوطات أخرى، وقبل أن يقوم بحرقها تمكنت من سرقته..

ثم نزعه من يدي وشرع في تصفحه مرة ثانية:

- "عرش الملوك"!!.. غريب أمر هذا المخطوط ، عدا عن عنوانه لا توجد به توطئة، ولا حتى اسم كاتبه..

استمر في تقليب صفحاته وهو يقرأ أبوابه:

- باب رؤية الجن.. باب تحريك الأشياء.. باب التحليق في الجو.. باب التخفي.. باب التنكر.. باب استدعاء القرين..

ثم توقف ونظر إلي قائلا:

- إنه باب مثير للاهتمام.. هل سبق واستدعيت قرينا؟
- لا.. لا أحبذ الفكرة! ولم أقم قط بالإطلاع على طريقة القيام بذلك!

رمقني بازدراء مصطنع.. وقال:

- أعتقد أنها الفرصة المناسبة لكي تطلع عليها ..

أخذ يقرأ في سره، فيما راقبت علامات الدهشة وهي تتحول إلى ابتسامة عريضة على محياه.. قبل أن يشرع في القراءة جهرا:

- باب تجسيد القرين.. إن أردت استدعاء قرين أي إنسان؛ قم بكتابة الطلسم أعلاه بالمداد الروحاني، واحرقه مع صورة ذلك الإنسان، أو مع كتاب من أقواله سواء كانت نثرا أو شعرا؛ وسيأتيك القرين مجسدا في صورة صاحبه، شريطة أن يكون القرين على قيد الحياة..

حينها كف يوسف عن ضرب الكيس وأقبل علينا ضاحكا:

- أحببت الفكرة.. إن كان الأمر حقيقيا فسيصبح بإمكاننا استدعاء قرين هتلر في صورة هتلر فقط بإحراق كتابه "كفاحي" مع الطلسم.. تخيل أن نتجول برفقة هتلر هنا في تافراوت !! وعندما نمل منه؛ نقوم ببيعه لدول الحلفاء !! ..

عقب المهدي:

- وما يدريك أن قرين هتلر ما يزال على قيد الحياة؟!

أجاب يوسف:

- أنسيت أن الشريف أخبرنا بأن القرين يعيش بعد موت صاحبه لمئات السنين أو ربما لآلاف!.. قد يكون على قيد الحياة، فلنجرب لنتأكد!

تبسمت، ثم تدخلت محطما رغبة يوسف:

- من سوء حظك يا يوسف أنني لا أملك نسخة من كتاب هتلر، عدا عن ذلك لا أحد منا يتقن التحدث بالألمانية..

تحمس المهدي، وقام من مكانه مصرا على القيام بالتجربة:

- سوف نستدعي قرينا الليلة مهما كان الثمن!..

جال ببصره في أنحاء الغرفة، ولمح كومة كتب قديمة على طاولة في ركنها، ثم عمد إليها واختار منها كتابا.. نفض عنه الغبار، ثم وضعه أمامي:

- إنه ديوان الشاعر أبي الطيب المتنبي، فلنجرب معه..

ليعقب يوسف مؤيدا الفكرة:

- هيا يا أحمد دعنا نرى شكل المتنبي؛ لطالما أرهقني أبي بترديد أبياته!..

وافقت على مضض! ثم أخذت من الدفتر ورقة أخرى.. وفي غضون دقائق معدودة، أنهيت رسم الطلسم.. دققت في تفاصيله للمرة الأخيرة. وحين تأكدت من تطابقه مع الطلسم الأصلي؛ وضعت الورقة فوق الكتاب قائلا:

- لقد أصبح الطلسم جاهزا! لكن قبل الشروع في تطبيق الطريقة، سيتوجب علينا تحصين أنفسنا بآية الكرسي.

تحلقنا حول الشمعة، وأخذ كل منا يتلو الآية في سره.. كانت يدا يوسف ترتجفان، وكان المهدي يبالغ في الحفاظ على رباطة جأشه بنحو انكشف فيه تصنعه، وظهر بجلاء في إيماءات وجهه التي لا تتناسق مع حركات يديه. أما أنا، فبالرغم من تبريراتي ودفاعي عن علم السيمياء، إلا أنني وكالمعتاد، لم أستطع إقناع ضميري بشرعية ما كنا نقدم على فعله؛ كان الأمر بالنسبة لي وقتذاك، أشبه بخيانة لقوانين الطبيعة بشكل من الأشكال. لكن صوتا في دواخلي، كان يخفف علي من تأنيب الضمير، ويقول بأن السيمياء ربما تكون واحدة من قوانين الطبيعة التي لم يتقدم العلم الحديث كفاية لإثباتها..

أنهينا التلاوة.. ثم أخذت قطعة من قطع الورقة الممزقة، أشعلتها، ووضعتها عند طرف الكتاب.. بدأت النار بالتهام صفحاته ببطء، ووصلت إلى غلافه فتأججت، ثم أحرقت الطلسم قبل أن تتمكن من الكتاب بالكامل وتحوله إلى رماد..

تبادلنا النظرات في صمت ونحن نكمم بأكفنا أفواهنا وأنوفنا كيلا نستنشق الدخان الذي ملأ المكان.. وما هي إلا لحظات، حتى انبطح يوسف على بطنه منفجرا من الضحك:

- لم يحدث شيء!.. لقد كنت أعلم منذ البداية أن هراءكم هذا مجرد خرافات يا أغبياء..!

ثم قام من مكانه وقد تساقطت دموعه على وجنتيه من شدة الضحك:

- علي العودة إلى فراشي، تصبحان على خير أيها المغفلان! .

فجأة.. رجت الأرض بقوة!! وانجرفت مع قوة اهتزازها لأصطدم بالحائط.. .

فقد يوسف توازنه، وهوى بثقله على ركبة المهدي الذي لم يسلم بدوره من الارتطام بالجدار.. وقبل أن يتسنى لنا استيعاب ما يحدث، تسمرت أنظارنا على السقف الذي تكونت في منتصفه غيمة سوداء!.. شعرت بنبضات قلبي عند حنجرتي وأنا أرى في ذهول وخوف، جسد رجل عار ينزل من الغيمة ليستقر على الأرض.. فقد المهدي مقدرته على الكلام، ودخل يوسف في نوبة من الهلع والارتعاش وهو يحملق في ذلك الكائن الذى أتى من المجهول.. كان رجلا شابا بين الثلاثين والأربعين، أبيضا مائلا إلى الحمرة، مديد القامة، عريض المنكبين، بلحية كثة وشعر شديد السواد يصل إلى صدره، وكانت نظرته الحادة توحي بفرسان العصر الوسيط..

لم أتخيل قط أن يكون أبو الطيب المتنبي بهذا الشكل، ودخلت في مقارنات بين أوصاف الذي أراه ماثلا أمامي، وبين ما أورده المؤرخون عنه من الصفات.. قبل أن أتشجع وأسأله:

- هل أنت قرين المتنبي؟!

لم يجب.. وأشار إلى مئزر معلق على شماعة قرب الباب؛ فقام المهدي من مكانه مسرعا، وجذب المئزر ثم ناوله إياه.. وعندما ارتداه، استكشف الغرفة ببصره ورمقنا بنظرات ثاقبة.. ثم خاطبنا بصوت جهوري حاد:

- إنني لا أحسن الكلام وعورتي مكشوفة للناس!.. وإن كنت تسأل عن القرين، فاعلم أن القرين لا يرى، لكن، إن قلت بأنني قرين فقد أصبت، وإن قلت أنني المتنبي فقد أصبت أيضا..

رد عليه يوسف بلكنة مبحوحة وهو يرتعد فرقا:

- كفاك تضليلا! بل أنت قرين المتنبي في صورة المتنبي!..

احمرت وجنتا المتنبي ورد بقسوة:

- وهل كان أبو الطيب المتنبي ليكون شاعرا عظيما لولا وجودي؟! لقد خلقت معه، وصاحبته خلال حياته لحظة لحظة! أنا من وسوس له! أنا من فكر له! أنا من أوحى له الشعر! أنا المتنبي لا هو!..

تقدم المتنبي نحونا.. تجمدنا في أماكننا، وأفسح له يوسف الطريق وقد عاوده الخوف مجددا. ثم جلس المتنبي وأخذ المخطوط بيسراه يتفحصه.. قبل أن يسألنا:

- في أي بلاد أنا؟

أجبته:

- أنت على أرض تافراوت، في جنوب المغرب الأقصى..

سأل مرة أخرى:

- وفي أي عام؟

أجابه المهدي:

- نحن في العام السابع عشر بعد الألفين الميلادية..

حينها همس لي المهدي:

- لا أفهم! لمذا يصر هذا المخلوق على كونه المتنبي ولا يعترف بأنه قرين؟!

فكرت قليلا.. ثم أجبته:

- الأمر يبدو معقدا، لكنه بسيط.. خذ نفسك كمثال، أنت تعلم جيدا أن معك قرينا منذ ولادتك، يشاركك في تفاصيل حياتك، ويشهد معك أحداثها كلها، يكبر معك يوما بعد يوم.. تسمع صوته في دواخلك، ولكنك لا تميزه عن نفسك؛ وهذا مايجعله جزءا منك شئت أم أبيت..
- هذا يعني أن المتنبي وقرينه وجهان لعملة واحدة!
- تماما ..
- إذن؟
- لقد عاد المتنبي مجددا ! ..

***

حين أشرقت شمس اليوم الموالي، كنا برفقة المتنبي في غرفة المكتبة.. كان يجلس على المكتب وقد وضع أمامه أزيد من سبعين مؤلفا في مختلف المجالات، وكنا نجلس أمامه ونراقب تصرفاته عن كثب.. لقد أمضينا الليل كله على هذه الحال، منذ اللحظة التي دله المهدي فيها على المكتبة، مرورا بالساعة التي أمضاها في اختيار الكتب، وصولا إلى الساعة التي بدأ فيها بقراءة تراجم الشعراء، والساعتين التي انكب فيهما على مطالعة كتاب "كيف تمسك بزمام السلطة" للكاتب روبرت غرين .. لم يأكل شيئا، ولم يطلب ذلك حتى، بل لم يرفع ناظريه عن الكتب ولو للحظة ..

كنت أنظر إليه محاولا تكوين صورة عن شخصيته من خلال ملامحه وإيماءاته التي يقوم بها من حين لآخر، ولاشك أن المهدي كان يقوم بالأمر

ذاته، خصوصا وأنه ظل يحدق إليه دون كلل أو ملل.. الشيء الذي دفعني إلى سؤاله همسا:

- ما رأيك بضيفنا الجديد؟!

أجابني دون أن يبعد أنظاره عن المتنبي:

- إنه أعسر!
- لقد لاحظت ذلك منذ الوهلة الأولى.. وماذا أيضا؟
- إنه شغوف بالمطالعة..

تأففت منه ساخرا:

- ما لاحظته يا مهدي يلاحظه أدنى الناس فراسة!.. أريدك أن تخبرني بما بين السطور..

تبسم ضاحكا وأجاب:

- من خلال جلسته يظهر أنه معتد بنفسه!.. انظر إليه، إنه يجلس كالملوك دون أن يأبه لمن حوله! وحين يقلب صفحة من صفحات الكتاب، يفعل ذلك بطرفي إبهامه وسبابته بحذر وأناقة كمن يتعامل مع بلورة يخشى انكسارها.. إنه يحمل هما كبيرا، هما كبيرا لدرجة أنه لم يبد أي اهتمام للتعرف علينا أو لمعرفة الطريقة التي استحضرناه بها، لم يشكرنا ولم يسألنا عن أسمائنا!
- نعم إنه يبدو جادا، ولا يحب إضاعة الوقت؛ بمجرد أن دخل المكتبة أقبل على قراءة الكتب المعاصرة محاولا فهم العالم الذي جاء إليه.. لقد أدرك بخبرته القديمة أن محادثات التعارف حوارات لا طائل منها؛ لذلك لم يكلف نفسه عناء التعرف إلينا.
- لا شك أن الحياة علمته أن يعرف الناس من خلال أفعالهم لا أقوالهم!

- إنه المتنبي وما أدراك ما المتنبي! يكفي أن أشعاره وحكمه ما تزال خالدة إلى يومنا هذا!
- قل لي.. هل أجد هنا دراسات معمقة حول نفسية المتنبي؟
- لا، فقط كتب التراجم ..
- استأذنك يا أحمد، سأذهب إلى غرفتك لكي أستخدم الحاسوب؛ علي الاستعانة بالانترنت والإطلاع على جميع الدراسات التي حللت شخصية هذا الرجل.
- تفضل.

وما إن غادر المهدي الغرفة، حتى دخل علينا عزوز وهو يتثاءب:

- السلام عليكم يا أصحاب..

رددنا عليه أنا ويوسف السلام، في حين اكتفى المتنبي بالنظر إليه دون الكلام.. ثم أردف عزوز مبتسما بعفويته المعتادة وكأنه تجاوز الصدمة التي تعرض لها بالأمس:

- أرى أنكم استيقظتم باكرا اليوم!

ثم حدق إلى المتنبي قليلا، وقال لي:

- عرفني على هذا الرجل يا أحمد!.. إنه يشبهك قليلا، أهو عمك؟!

أصدرت قهقهة طويلة جراء سؤاله، أعقبها يوسف بقهقهة متقطعة تحمل آثار الإعياء وقلة النوم، قبل أن يقوم إلى عزوز ويصطحبه خارج الغرفة وهو يقول:

- لقد فاتتك أحداث مهمة يا عزوز!.. هيا بنا إلى المطبخ، سأحكي لك كل شيء بينما نقوم بتحضير الإفطار..

في تلك اللحظة التي تلت خروجهما، رغبت في فتح حوار مع المتنبي والتعرف عليه عن قرب، لكن سلوكه المترفع، جعلني حائرا بخصوص الطريقة التي يجب علي اتباعها في الحديث إلى شخصية من هذا العيار الثقيل؛ لذلك قررت فتح المحادثة بسؤال بسيط:

- ألا تشعر بالجوع يا متنبي؟

لم يجب، وكما كنت متوقعا لم ينظر إلي؛ فكررت عليه السؤال بنبرة أكثر حدة:

- ألا تشعر بالجوع؟!

حينها نظر إلي، واتكأ على الكرسي ثم وضع ساقه اليمنى على اليسرى وهو يجيبني:

- ألا ترى أنني في حضرة القراءة؟! لو كنت جائعا لطلبت منك أن تأتيني بالطعام يا غلام..

استغربت جوابه المستفز، وأجبته ضاحكا:

- لقد ولى زمن العبيد والجواري.. ولا تنس أنك ضيف في بيتي!

تبسم وحك أرنبة أنفه، ثم ربع يديه قائلا:

- امتلاكك للبيت لا يتوجك سيدا، بل ما تحسن صنعه وتتقنه..!
- ومن قال لك إنني لا أحسن صناعة شيء ما، لا أذكر أنني أخبرتك عني! ..

ضحك المتنبي حتى برزت نواجده، ثم أجاب:

- لا حاجة لي بسؤالك، يكفيني علمي بامتهانك للسيمياء..
- وما العلاقة؟
- لا يمتهن السيمياء إلا الفاشل العاجز الذي لا يستطيع ضربا في الأرض!

- لقد صدق الذين قالوا أنك مغرور فخور بنفسك!.. ألا تلاحظ أن سلوكك هذا لا يليق بشاعر كبير مثلك؟
- لو قرأت أشعاري لما سألتني هذا السؤال..
- لِمَ؟
- لعلك لم تقرإ البيت الذي أقول فيه، "وفؤادي من الملوك وإن.. كان لساني يرى من الشعراء .."
- ممم هكذا إذن!
- نعم، أنا شاعر بروح ملك؛ فلا تقارني ببقية الشعراء..!

غادرت المكتبة وأنا أكرر "مغرور.. مغرور..".. كنت أشعر بالجوع، لكن ما لاقيته من المتنبي جعلني أنحرف عن مساري إلى المطبخ، وأدلف إلى غرفتي حيث كان المهدي جالسا وبيده حاسوبي المحمول.. عمدت إلى الدولاب، وأثناء بحثي عن قميص أرتديه، أخبرت المهدي:

- لقد حاولت التحدث قليلا مع المتنبي، لكنه ترفع عن ذلك وعاملني كخادم له. لا بل ويظن نفسه ملكا!.. لا أصدق أن أشهر شعراء العرب إنسان متعجرف!

ضحك المهدي وهو ينظر إلى شاشة الحاسوب:

- وأنا لم أكن أعلم أن المتنبي عبقري!
- ما الذي يدفعك لقول هذا؟!
- هل قرأت ديوانه الشعري؟

أخرجت القميص من الدولاب وأجبته وأنا أضحك:

- لا لم يسبق لي أن لمست ديوانه ذاك إلا لحظة أحرقناه بالأمس. لكنني قرأت القليل من شعره في المدرسة، وكنت دوما ما أردد أبياته التي تتسم بالحكمة والقوة..

- إنه شخصية خارقة؛ بمجرد أن كتبت اسمه في محرك البحث صعقت بعدد المواضيع التي تتحدث عنه، أما عدد المؤلفات التي تتناول دراسة سيرته وأشعاره فتتجاوز المائة والسبعين.. هذا دون احتساب آلاف الأطروحات الجامعية التي تسيل مداد الطلاب كل يوم. والعجيب في الأمر، أنني قرأت للتو بيتين من شعره يتنبأ فيهما بهذا الإقبال الكبير الذي ما زالت تلقاه أشعاره إلى حد الآن.
- وما هي هاته الأبيات؟
- *وما الدهر إلا من رواة قصائدي*

إن قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا

وغرد به من لا يغني مغردا

- إن أمره لعجيب..!

استمر المهدي في القراءة وأمسك برأسه وأصدر زفيرا طويلا:

- علي تحميل النسخة الإلكترونية من ديوانه يا أحمد، سأقرأ قصائده لكي أفهم طريقة تفكيره..

ارتديت القميص.. وقبل أن أزرره علي، أخرجت هاتفي ورميته للمهدي قائلا:

- فكرة جيدة.. عندما تنتهي من تنزيل الديوان قم بتمريره إلى هاتفي. أعتقد أنني سأتفرغ لقراءته هذه الأيام.

شاعر العربية الأول

أمضى المتنبي شهرا ونصف قبل أن يبرح المكتبة ويخرج أخيرا إلى سفوح تافراوت.. خمس وأربعون يوما انقطع فيها عن العالم كما ينقطع الرهبان في صوامعهم، واعتكف على القراءة والمطالعة دون كلل أو ملل.. التهم الكتاب وراء الكتاب، وكان لا يترك كتابا إلا لحمل كتاب آخر.. كان لا يأكل من الطعام إلا لقيمات يسيرة، ولا يهجع من الليل إلا ساعات قليلة.. نهم شديد للقراءة، وحب كبير للكتاب لم أر له مثيلا في حياتي، وهذا الشغف من دون شك، عامل من العوامل التي جعلته شاعرا واسع المدارك، منفتحا على العديد من التيارات الفكرية المختلفة المشارب، والتي انعكست بجلاء على قصائده التي انكببت على قراءتها ودراستها طيلة أيام اعتزاله.. لقد استنتجت من خلال أشعاره ومن عشقه للكتب أنه امتلك المادة الخام، تلك المعارف التي تفاعلت مع شاعريته وتحولت إلى أبيات لا يخمل ذكرها أبدا.. لكن استنتاجي هذا لم يكن كافيا لتفسير تفوقه علي بقية الشعراء، فما توفر له من المعارف، قد توفر أيضا لأقرانه ممن عاصروه في القرن الرابع الهجري، إلا أنهم لم يتبوأوا تلك المكانة التي انفرد بها دونهم، ولم يحظ أحد من الشعراء الذين سبقوه أو الذين أعقبوه بذلك الاهتمام الذي حظي به. وأدل دليل على ذلك، انبراء أشهر اللغويين لتفسير ديوانه، واهتمام النقاد الذي لا ينقطع بدراسة أشعاره.. حتى أولئك الذين اجتهدوا في ذكر مثالبه ونقائصه، اعترفوا من حيث لا يشعرون بانشغالهم واهتمامهم لأمره حين سخروا أوقاتهم وأقلامهم لنقده دونا عن بقية الشعراء.. ولعل أصدق ما يعبر عن حالتهم تلك، هو بيت المتنبي نفسه الذي يقول فيه " أنام ملء جفوني عن

شواردها.. ويسهر الخلق جراها ويختصم".. الأعجب من ذلك، أنني أيضا لم أسلم من مخاصمة نفسي ومجادلتها في شأن المتنبي، فتارة أراه نبيلا شجاعا حكيما، وأحيانا أراه طماعا مغرورا محتالا ..

ومع أنني لم أشكك ولو للحظة في عبقريته التي أكسبت شعره الجمال والجلال معا، وميزته بعمق الحكمة وصدق الإفصاح عن خواطر النفس البشرية، إلا أنني عجزت عن التوصل إلى سر هذه العبقرية، وأمضيت ساعات وساعات في بناء فرضيات وهدمها، قبل أن أقرر ذات صباح الاستعانة بالمهدي واستفساره عن الأمر، سيما وأنه قد اطلع في تلك الفترة على العديد من الدراسات والأبحاث التي تناولت شخصية المتنبي من مختلف الجوانب..

أذكر أنني كنت يومها جالسا على غصن شجرة في سفح "أملن".. أقرأ قصيدة من ديوان المتنبي، وشعاع الشمس يخترق الأغصان ويرسم ضلالها على صفحاته.. وعندما وصلت إلى أبياته التي تصف آلام الحمى، لم أقاوم رغبتي في الجهر بها وإسماعها إلى المهدي الذي كان تحتي مستندا إلى جذع الشجرة؛ فاسترعيت انتباهه طالبا منه الإصغاء إلي، وشرعت أنشد:

- *وزائرتي كأن بها حياء*
  فليس تزور إلا في الظلام
  فرشت لها المطارف والحشايا
  فعافتها ونامت في عظام
  يضيق الجلد عن نفسي وعنها
  فتوسعه بأنواع السقام
  إذا ما فارقتني غسّلتني
  كأنا عاكفان على حرام!
  كأن الصبح يطردها فتجري

مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق

مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر

إذا ألقاك في الكرب العظام

أبنت الدهر عندي كل بنتٍ

فكيف وصلت أنت من الزحام

جرحت مجرحاً لم يبق فيه

مكان للسيوف ولا السهام

التزم المهدي الصمت إعجابا بالأبيات، وشرع في التصفيق انبهارا بشاعرية المتنبي.. ثم أردفت سائلا:

- أرأيت كيف شبه الحمى بالفتاة الخجولة معبرا عن آلامها بأعذب الألفاظ؟ !..
- أجل يا أحمد.. إن هذه الأبيات تجعل سامعها يتمنى الإصابة بالحمى! وإنها لتجعل المحموم مستلذا بآلامها ! ..
- وما سر عبقرية المتنبي في نظرك؟
- إنه يصنع أشياء من لا شيء!.. يستخرج أروع المعاني من أتفه الأمور! ..
- لقد وصفت عبقريته يامهدي، لكنك لم تمط اللثام عن سرها..
- لقد حاولت ذلك طيلة الأسابيع الماضية، واطلعت على العديد من المقالات والأبحاث التي خاضت في هذا الأمر.. منهم من فسر تفوق المتنبي بمشاركته الناس آمالهم، وتصويره لعلل أخلاقهم وأمراض قلوبهم ووصفه لعلاج ذلك كله، وكأنه أخذ على نفسه أن يترجم ما

في نفوسهم في ظروف الحياة كلها.. ومنهم من فسر ذلك بسطوة شعره على محبيه وأعدائه لما يحمل في قراراته من صحة الفكر وقواعد السلوك المنشود في حياة الأفراد والمجتمع.. وآخرون يفسرون شهرته التي لا تضاهى بفهمه لأسرار النفس البشرية، ولقدرته على صياغة تجاربه حكما جرت مجرى الأمثال، إلا أني لم أقف بعد على تفسير مقنع لسر عبقريته.. لكن لا تقلق، فما دام المتنبي بيننا؛ سوف نرى ذلك بأنفسنا دون الحاجة إلى آراء الآخرين..

تعجبت في قرارة نفسي عندما شاءت الصدفة أن أمر على بيت يوافق كلمات المهدي الأخيرة، ثم أغلقت الديوان وأخبرت المهدي قائلا:

- صدق الذين قالوا أن المتنبي يترجم ما في خواطر الآخرين؛ لقد أصاب بيت من أبياته معنى كلماتك الأخيرة يا مهدي!
- أي بيت؟!
- *خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به*
  في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

ضحك المهدي.. ثم قام من مكانه مبتعدا عن الشجرة، وشرع ينفض التراب عن بنطاله وهو يقول:

- إنه لا ينطق بالحكمة فحسب، بل يصوغها في أجمل القوالب بعيدا عن التصنع والتعقيد؛ ولعل هذا ما يجذب الجميع إلى أشعاره..

نزلت عن الشجرة.. وأخذت أمدد أطرافي التي تكلست من طول الجلوس.. ثم أرسلت بصري على امتداد السهل الفسيح رياضة لعيني التي لم تتخلص بعد من صور الحروف التي انطبعت عليها، والتي صرت أراها في كل مكان كلما ارتد إلي طرفي.. كنت أراها في انبساط الأرض، في زرقة السماء،

في خضرة النباتات، وعلى صخور الجبال.. أحببت اللعبة وبدأت أرمش في كل مكان مزخرفا الطبيعة بجمال الحروف العربية، محولا إياها إلا لوحات كاليغرافية تجمع الشرق بالغرب.. قبل أن ألمح عزوز مستظلا بشجرة زيتون، وفي يديه قلم وكتلة ورق لم أحسن تمييز جنسها.. كان يشرد بناظريه إلى السماء، ثم أطرق رأسه إلي الدفتر بحركة سريعة وشرع في الكتابة مبتسما.. بدا وكأنه استلهم شيئا ما ثم سارع إلي تدوينه.. رجحت في بادئ الأمر، أنه يملأ خانات الكلمات المتقاطعة.. لكن المهدي الذي راح ينظر إليه مشفقا، وضح لي حقيقة ما يقوم به عزوز حين قال:

- إني لأعجب من أمر عزوز أشد العجب يا أحمد! كيف له أن يستكين ويبدأ في التأليف والكتابة بعد كل ما حصل معه؟! لو تعرضت للسحر الذي تعرض له لقمت بالانتقام من السحرة المعتدين بدل الجلوس تحت الأشجار وتدوين الترهات!.. أي مجنون هذا؟!
- أنا أيضا تعجبت من برودة دمه، بيد أنني لم أشأ استفساره عن الموضوع لكيلا افتح جراحاته وأنغص عليه حياته.. لكن ماذا يكتب؟!

نظر إليه المهدي مرة أخرى وحدجه بنظرة استخفاف، ثم التفت إلي وأجابني إجابة تقطعها ضحكاته:

- إنه يكتب قصصا تافهة! إضافة إلى ذلك شرع في تأليف كتاب لا يقل تفاهة!.. بل وعنونه بالعنوان الأكثر تفاهة على مر العصور! ..

ثم جثا المهدي على ركبتيه مطرقا رأسه من شدة الضحك، وبدأت أضحك بدوري حين اعتراني فضول كبير لمعرفة العنوان.. قبل أن يستانف قائلا:

- لقد عنونه المجنون ب" علم البديهيات في الحياة قبل الممات " !

أصدرت قهقهة تردد صداها في الأرجاء، ثم علقت على طرافة العنوان وأنا أنظر إلى عزوز الذي انتبه إلينا وشرع في التحديق كما يحدق السرقاط:

- أي عنوان هذا! وهل يحتاج المرء إلى تعلم البديهيات!.. إنها مسائل فطرية يا صاح..
- الأدهى من ذلك أن الكتاب عبارة عن قواعد زعم في مدخلها أن الأخذ بها ضروري لفهم الحياة.. لقد قرأت منها قاعدتين فقط وتوصلت إلى استنتاج يلخص الكتاب كله.
- وما هو؟
- أن عزوز يستهلك المخدرات!..

ثم قهقه المهدي مجددا، ودخلت في سلسلة من الضحك الهستيري؛ ليتضاعف فضولي لقراءة كتاب عزوز، ونتوجه إلى حيث يجلس رغما عنا..

سلمنا على عزوز، وجلست عن يمينه فيما ظل المهدي واقفا يحاول السيطرة على ضحكاته المهددة بالانفجار.. اقتربت منه برأسي محاولا الاطلاع على ما يخطه في صفحات دفتره، إلا أنه فطن لي وأبعد الدفتر عن أنظاري وهو يبرر حركته تلك مبتسما:

- لا يحق لك التلصص على خصوصيات الآخرين يا أحمد!

فقمت من مكاني على الفور، وابتعدت عنه قليلا وأنا أبالغ في الإعتذار:

- فلتسامحني يا عزوز على تطفلي، لقد بلغني أنك تؤلف كتابا باهرا وقصصا رائعة؛ فارتأيت أن اقرأ منها قليلا لعلني أستنير ببديهياتك الحكيمة..

فانفجر المهدي أخيرا وأفرج عن ضحكاته، بينما وجم عزوز في مكانه وهو يحدجنا بنظرات ارتياب.. ثم قطب حاجبيه، وسألني وهو يفتل خصلة من خصلات شعره المجعد:

- تسخر مني أليس كذلك؟!

دارت عيناي في محاجرها وأنا أبحث عن رد دبلوماسي لسؤاله، قبل أهتدي إليه وأجيبه قائلا:

- كيف لي أن أسخر منك وأنا لم أقرأ بعد ما كتبته؟! لقد كنت أصانعك فقط! ..

غمغم قليلا.. وراح يقلب صفحات دفتره، إلى أن توقف عند صفحة في منتصفه ثم مده لي قائلا:

- خذ.. إقرأ هاته الأقصوصة، وقل لي رأيك بها؟

أخذته منه، وحين لاحظت جمال خطه، انفتحت شهيتي للقراءة؛ وجلست أتلو في نفسي أقصوصته التي كتب فيها: ".. فكرت في كتابة قصة، قصة فريدة، لا تختص بزمان أو مكان، أن تكون حية؛ لذلك قررت أن أجعلك أنت قصتي أيها القارئ، أنت تعلم علم اليقين أنني كتبتها منذ مدة، لكنك تحس بأنها تخاطبك وتتفاعل معك بشكل مباشر، ستستغرب الأمر، هذا إن لم تبتسم، وقد يعتريك فضول لمعرفة ما قد تأتي به الأسطر القادمة.. صراحة عندما كتبت هذا السطر الذي أنت فيه أقسم أنني لم أكن أعرف ما سأكتبه في الذي يليه، مثلك تماما في هذه اللحظة، فقط سرقت انتباهك للحظة من الزمن لكي نصنع معا قصة من لا شيء.. اعذرني، فعندما لا أجد شيئا لأفعله؛ أكتب مثل هذه الترهات التي تقرأها الآن يا عزيزي" ..

وأنا أقرأها، شعرت أن كلماتها تطوقني من كل جانب، واكتشفت أنها تصف أحاسيسي بنوع من الدهاء الذي لم أعهده من قبل في عزوز؛ لذلك كان من البديهي أن أسأله متعجبا:

- أأنت حقا من كتب هذه القصة يا عزوز؟!

ابتسم، وخطف الكتاب من يدي وهو يقول:

- سؤالك هذا، وعلامات الاندهاش البادية على وجهك اعتراف كبير بموهبتي، وإطراء ما بعده إطراء ! ..

فأعدت تلاوتها.. وعقبت منوها بموهبته:

- إنها قصة مميزة.. لقد فاجأتني يا صديق! ..

ثم قاطعني المهدي وهو ينتقد القصة:

- عن أي تميز وموهبة تتحدث يا أحمد؟!.. إنها قصة تورط القارئ دون فائدة.. لا حبكة، لا شخصيات، ولا تهدف إلى شيء حتى!!

فرد عليه عزوز:

- صدقت يا مهدي.. لا حبكة لقصتي، ولا شخوص بها من المنظور المعتاد، لكنها تجعل كل قارئ لها شخصية من شخصياتها؛ الشيء الذي يجعلها قصة بأعداد لا تحد من الشخصيات، وهذا ما يميزها يا فهيم..

استحسنت دفاع عزوز عن قصته.. وتشبث المهدي برأيه السلبي مكررا:

- هراء!.. هراء! ..

فارتسمت على وجه عزوز ابتسامة منتصر ورد عليه قائلا:

- يكفيني فخرا أن المتنبي أشاد بها.. أم تخال نفسك أرفع منه ذوقا وأدبا؟!

سكت المهدي وهو يحدج عزوز بنظرات شك.. قبل أن يواصل عناده قائلا:

- إعجاب المتنبي بقصتك لا يعد مقياسا لتميزها وروعتها؛ إنه أديب قديم الطراز، ولقد تغيرت المعايير الأدبية عما كانت عليه في عصره..

تحولت ابتسامة عزوز إلى ضحكة عميقة، وعقب على انتقادات المهدي ساخرا:

- حججك واهية، وإني لأتأسف حين أرى أناسا مثلك.. تجادل فقط من أجل الجدال! ..

تفوه المهدي بكلام لم أتمكن من سماعه حين تبادر إلى ذهني أن أقاطعه، وأستفسر عزوز قائلا:

- لقد تواضع المتنبي أخيرا.. متى تحدث إليك؟! وعن أي شيء دار حديثكما؟!
- في الخامسة فجرا.. لقد استيقظت باكرا حين شعرت برغبة كبيرة في الكتابة، فتوجهت إلى المكتبة حاملا دفتري، ووجدت المتنبي منشغلا بالقراءة كعادته.. وعندما رآني أكتب، اهتم لأمري وطلب أن أطلعه على ما كتبته؛ فقرأت عليه مجموعة من قصصي، وأشاد بجودتها.. وعندما طلبت منه النصح والإرشاد، دخل يوسف وطلب مني مرافقته إلى السوق الأسبوعي.. فرفضت ذلك، لكن المتنبي وافق على مرافقته، وأخبرني بأنه سيقدم لي ما سيجعلني كاتبا محترفا فور عودته من السوق..
- وأي حاجة للمتنبي في السوق؟!
- الله أعلم..
- ويوسف؟

- لقد قال إنه ذاهب لاقتناء كرة قدم أصلية، وسيمر بعدها إلى الملعب لكي يتمرن عليها قليلا..

***

لم يكن من الغريب أن يستيقظ يوسف باكرا على غير عادته ويقطع مساحة الملعب الفسيحة طولا وعرضا وهو يجري خلف كرته "الأصلية" - على حد زعمه - وحيدا كالمجنون.. فلقد أمضى شهرا كاملا في التبرم من كتل الدهون التي غزت جسمه، وازدادت شكواه من سمنته وهو يرى عضلات بطنه الست تتلاشى تباعا خلف بطنه التي برزت كبطن حامل في شهرها الثالث.. ما دفعه مرارا إلى محاولة إقناعي بالإبكار ومرافقته إلى الملعب فجرا، معددا على مسامعي محاسن كرة القدم تارة، ومحذرا إياي مما قد يفعله تراكم الكوليسترول في دمائي تارة أخرى.. إلا أن دفء وسادتي كان ذا تأثير أقوى من ترغيباته وترهيباته كلها، حتى إنه ليحول تهليل المؤذن وآذانه إلى ترانيم سحرية يحلو معها النعاس؛ لذلك اعتبرت بيع ساعات من النوم اللذيذ، بتعب الركض خلف كرة وسط الغبار، ضربا من ضروب الجنون..

صراحة، كنت لأفعل ذلك لو أنني استمررت في حبي لكرة القدم كما أحببتها في صغري.. أذكر أنني كنت أتجرد من ثيابي رغما عن أمي المسكينة، وأبقى بملابسي الداخلية وفي يدي كرتي المطاطية الحمراء، منتظرا مسلسل الكابتن ماجد على شاشة التلفاز لكي أنفذ ضربته اللولبية على الأرائك، وفي تلك اللحظة التي أتلهف فيها لظهور شارة البداية وسماع اللحن الحماسي، تقوم القناة بنقل وقائع البرلمان، ويحرقون أعصابي على إيقاع مداخلاتهم التافهة الغبية.. كنت أستغرب وأرمي الكرة من يدي منفعلا، ثم أصيح بمنطق طفل صغير.. ما دخلي بمشاكل دوار "زعير"؟! وما علاقتي بإصلاحات ولاد

سگير؟!.. ولعل الشطط الذي مارسته علي الدولة حينها هو الباعث على كرهي للسياسيين، والسبب الذي حال دون أن تستمر محبتي لكرة القدم.. لكن يوسف تفانى في حبه لهذه اللعبة، وأخلص في عشقها أيما إخلاص؛ سيما وأنه اقتنى شباكا لمرمى الملعب، وتكلف عناء تنظيف أرضيته من الحجارة وترطيبها بالماء دون مساعدة من أحد، وحين وصلت إلى الملعب كان قد أمضى ثلاث ساعات من اللعب المتواصل ..

فوقفت خارج حدود الملعب، وأخذت أتفرج عليه وهو يلهث بشكل يفضح تعبه، وينذر بنفاذ قوته.. وكما كنت متوقعا، لم يلبث إلا قليلا حتى توقف عن ملاحقة الكرة، واستلقى في منتصف الملعب وقد خارت قواه.. لأدخل الملعب، وأقف عند رأسه وأنا أمد له يدي قائلا:

- إن استمررت على هذه الوثيرة؛ فستذيب لحمك أيضا، لا دهونك فحسب!

فحدق إلي قليلا، ثم أعطاني يده وقام وهو ينفض التراب عن ملابسه قائلا:

- أن يذوب لحمي أرحم لعقلي من هذا العالم السريالي الذي نعيش فيه!
- ماذا تقصد؟!
- أتحدث عن الأحداث العجيبة التي عايشتها مؤخرا.. لقد بات لدي صديق ساحر، وآخر يزعم أنه سيحكم الآرض، وثالث مجنون يمسي كاتبا.. وصرت أتمشى مع المتنبي في الأسواق، وصارت لي بطن وأنا الذي لطالما كنت رمزا للرشاقة!.. وكأن أحدهم زج بي في رواية خيالية رغما عني..

أضحكني جوابه، وتجاهلت اتهامه لي بالسحر درءا للجدال.. ثم قلت له:

- ما الحياة إلا رواية يا صديقي، وأجمل ما فيها نهايتها غير المتوقعة..
- وما الجميل في جهلنا بالنهايات؟!
- دفء الأمل.. ذلك الشعور الذي يخبرك دوما أن المستقبل أفضل..

ثم أردفت سائلا :

- أين تركت المتنبي؟!

فأجابني وهو يراقب كرته التي بدأت تتدحرج بفعل الرياح:

- في السوق..

لأطرح عليه السؤال الذي دفعني إلى المجيء إلى الملعب:

- وماذا يفعل في السوق؟!

فالتفت إلي ضاحكا.. وأجابني:

- لقد تحول الشاعر إلى تاجر! ..

سكتت للحظة وأنا أحدق إليه مستغربا.. قبل أن يستأنف موضحا:

- حين أخبرت عزوز برغبتي في اقتناء كرة من السوق، طلب المتنبي مرافقتي.. تعجبت من طلبه وهو الذي لم يكلمني قط قبل اليوم، فوافقت، وأخذنا طريقنا إلى السوق دون أن أكلمه أو يكلمني.. وعندما وصلنا إلى حيث تباع الأنعام، بدأ بالاستخبار والطواف حول الباعة، إلى أن وجد امرأة تعرض خمس معزات.. فسألها عن ثمنها، فأخبرته أنها تريد أربعة آلاف درهم لقاءها كلها.. ثم ذهب إلى مدخل السوق، وشرع يعترض سبيل الوافدين إليه ويعرض عليهم شراء الماعز.. إلى أن صادف عجوزا أجنبية ترغب في شراء ماعز ودجاج لخمها، فرافقها إلى المرأة العارضة، وبعد أخذ ورد، باعها المعزات

الخمس بأربعة آلاف وثمانمائة درهم.. فدفع للبائعة الثمن الذي طلبته سلفا، واحتفظ بالثمانمائة لنفسه.. بعد ذلك، أخبرني برغبته في اقتناء ملابس جديدة، فدللته على رواق الملابس، وتوجهت إلى رواق اللوازم الرياضية..

- دخل إلى السوق خالي الوفاض، وجني ثمانمائة درهم!.. صدق المهدي حين قال أن المتنبي يصنع شيئا من لا شيء..

فأطرق يوسف رأسه.. وأخذ يرسم بطرف حذائه خطوطا على التراب وهو يسألني:

- أخبرني يا أحمد، أين كان المتنبي بعد وفاة قرينه أبي الطيب؟!
- لا أدري.. هناك الكثير من الأسئلة التي أنتظر فرصة لأطرحها عليه!

ثم رفع رأسه، وهم بقول شيء ما.. قبل أن يزيغ ببصره عني، ويقول:

- إنه المتنبي!.. لقد عاد من السوق..

فالتفَتُّ ورأيت المتنبي يدخل الملعب مقبلا نحونا.. كان يرتدي ثيابه الجديدة.. قميصا أسود وبدلة رمادية، مع حذاء أسود لماع. ويحمل في يده كيسا ورقيا أيقنت أن به ما كان يرتديه عند خروجه من البيت.. راقبت رشاقة خطواته التي تتفادى إثارة الغبار، ثم ابتسمت، وقلت ليوسف:

- انظر إليه.. لقد جاء من القرن العاشر وتعلم أصول الأناقة في ظرف لا يقل عن شهرين!

فمال على أذني، وهمس لي قائلا:

- الأناقة أمر فطري لا علاقة له بالعصور.. وأكبر دليل على ذلك الفرق الكبير بين ذوق المتنبي وذوق عزوز..!

ثم كتم ضحكته التي خرجت من أنفه كالفحيح والتقط كرته من على الأرض، فيما توقف المتنبي على بعد خطوات منا.. ولاحت في وجهه ابتسامة إشفاق وهو يخاطبنا:

- لا حديث في السوق إلا عن هذه الجلدة المنفوخة! لقد ضاع القوم وضاعت الأمجاد حين تعلقت قلوبهم بسفاسف الأمور! ..

فضحكنا على مقولته، وأجبته قائلا:

- لقد انقلبت الآية.. في الماضي كنتم تحققون الأمجاد بالفتوحات والمعارك، أما الآن وبعد أن صارت الكرة تصنع أمجاد الشعوب؛ اكتفى القوم بالعراك على الملاعب! ..
- هزلت!

ثم عقب يوسف منافحا عن لعبته المفضلة:

- يا متنبي !.. إن عشق كرة القدم لن يفهمه إلا من مزق النعل والحذاء على ملاعبها!.. لن يفهمه إلا من لعب بالكرة حافيا دون اكتراث لحصى التراب وشوكه!.. لن يفهمه إلى الذي تعثر في الهجوم! أو أصيب في الدفاع!.. للكرة حلاوة حين تتحسسها بيديك! وتضرب بها الأرض لتعود إليك، ولها حلاوة عندما تستقبلها عند ساقيك !.. وما أحلاها عندما تقذفها بقوة لتستقر في الشباك بهدف جميل! أو عندما ترتطم بالعارضة؛ فيتوقف النبض وتصيح الجماهير!.. إنها رائعة حينا تلتف حول نفسها مرات ومرات وتميل لتدخل التسعين!.. أو حينما تهيئها بصدرك قبل ركلها، كقطف تفاحة قبل أكلها.. والأجمل في ذلك كله، حين تحرص على قذفها على الطائر؛ إحساس مضاعف.. أما الروعة فتكمن في المراوغات.. عندما تنساب بين الخصوم كما ينساب الماء بين الجمادات.. خصوصا عندما تنحرف

بقـوة عـن الخصـم؛ تجـره علـى الأرض ليتبـع الـوهم، فيتمـرغ وجهـه بالعشب والتراب بالعا الطعم.. والأحلى من ذلك كله، عندما تمررها بين ساقيه لتلتقي بها من ورائه؛ ليقف جامدا أو يسقط في مكانه أمام أنظار الناس وصفيرهم.. لكنك لن تدرك هذه المعاني يا متنبي؛ ففي زمانكم لم تعرفوا إلا السيف والترس والحجارة..

فوضع المتنبي كيسه على الأرض، وأخذ الكرة من يوسف.. ثم رد وهو يقلبها بين يديه:

- يبدو أنك جاهل بالتاريخ يا فتى!.. لقد عرف العرب في زماننا انفتاحا على العديد من الثقافات، وتوفر لي وقتها ما لا يتوفر لك الآن من الرياضـات.. لقـد لعبـت بالصـولجان، وسـابقت بـالخيول، ومارسـت السـباحة، ولعبـت الشـطرنج، وصـارعت الـروم والفـرس والهنـود وهزمتهم!.. ولا أظن أن كرتك هذه ستغلبني..

قهقه يوسف ضاحكا.. وقال:

- يـا متنبـي.. إن براعتـك فـي الرياضـات التـي ذكرتهـا لا يمنحـك حـق انتقـاد رياضـة لـم تمارسها قط.. فلكي تنتقص من شأن كرة القدم، عليك أن تبرع فيها أولا؛ بهذه الطريقة فقط سنقبل منك الانتقاد.. أما أن تنتقص مما لا تجربة لك فيه، فذلك أشبه بقط يتعفف عن أكل سمكة لا يستطيع نيلها ! ..

وبينمـا كنـت منهمكـا فـي اسـتيعاب التشـبيه الـذي أشـار إليـه يوسـف.. تكلـم المتنبي قائلا:

- فهمت عليك.. لكن كيف السبيل إلى أن تقبل انتقادي؟

فتراجع يوسف خطوتين إلى الوراء، واستدار متوجها إلى المرمى.. وحين وقف بين القائمين، ابتسم وقال متحديا:

- إن استطعت أن تسجل علي هدفا؛ فسأضع لرأيك اعتبارا.. هذا إن استطعت التصويب نحو المرمى !..

ثم كتم ضحكته وهو ينظر إلى المتنبي باستخفاف.. لكن الأخير رفع من حدة التحدي، وابتعد عن المرمى إلى أن وصل إلى وسط الملعب، ثم وضع الكرة على خط المنتصف.. وصاح قائلا:

- سوف أسجلها من هنا!..

فقهقه يوسف من فرط استخفافه بخصمه، وبدا المتنبي مؤمنا بنفسه وهو يقف على بعد خطوات قليلة من الكرة.. ثم ابتعدت عن الملعب لكي أحصل على رؤية شاملة لما يجري أمامي، وشرعت في قراءة كل حركة تصدر عن الطرفين متحمسا لمعرفة النتيجة التي سينتهي بها الرهان.. لا أنكر أنني رشحت يوسف فائزا في بادئ الأمر، لكن حركة المتنبي الأخيرة، أبانت عن ثقته الكبيرة بنفسه وأرغمتني على الاعتراف بنديته، كما استطاعت أن تحول استهزاء يوسف إلى توتر تجلى في ترقبه واحتياطه رغم بعد المسافة بينه وبين الكرة.. وما هي إلا لحظات حتى ركض المتنبي نحو الكرة، ومال على جذعه مرتكزا على رجله اليمنى، ثم قذفها بقوة منعتني من تعقب مسارها، لترتطم بالقائم منفجرة، وتسقط داخل المرمى جلدا ممزقا دون أن ترتد عن الأرض ..

لم يتململ يوسف من مكانه، واكتفى بالنظر إلى كرته التي لفظت أحشاءها مندهشا.. فيما بدأت ضحكاتي تتوالى وتتعالى بالتدربج وأنا أرى المتنبي يتوجه نحو كيسه ويحمله بهدوء وتؤدة مغادرا.. قبل أن يتوقف، وأتوقف عن الضحك حين استدار ووجه أنظاره إلينا وهو يقول:

- *إذا اعتاد الفتى خوض المنايا*
فأيسر ما يمر به الوحول!

ثم ابتسم.. وخرج من الملعب وهو يخاطب يوسف دون أن يلتفت إليه:

- لا تقلق بشأن الكرة، سوف أعوضك بخير منها! ..

ليتصنع يوسف الابتسام وهو يفرك قفاه محرجا، ويحمل كرته الممزقة مقبلا نحوي وهو يقول:

- إنه ليس هدفا!.. لقد انفجرت الكرة قبل أن تدخل الشباك، أليس كذلك؟

لم أجبه، واكتفيت بابتسامة تشفق على غروره المسحوق؛ ليسترسل الحديث باحثا عن أعذار تخفف من إحساسه بالهزيمة:

- لقد نسيت أن المتنبي نصف جني، ولعل ذلك ما جعل ساقه قوية كمدفع!.. لو امتلك كل لاعب ساقين بتلك القوة لانفجرت كل الكرات! ولما تمت المباريات! ولتوقف الناس عن ممارسة هذه اللعبة منذ زمن! إن أمثال المتنبي لا يصلحون لكرة القدم..

استمررت في تجاهله، واستمر في تبرير خسارته طوال طريقنا إلى البيت.. وعندما أدرك كما يدرك الخاسرون أن التبريرات لا تخفف من حرقة الهزيمة؛ كف عن الكلام ورمى بأشلاء كرته بعيدا.. حينها بادرت إلى التخفيف عنه، وضربت على كتفه متعاطفا:

- لعلك نادم على تحديك للمتنبي!.. إنها مجرد خسارة صغيرة فلا تشغل بالك بها..

فأجابني قائلا:

- لا يا أحمد.. لست نادما، وإنما تذكرت مقولة لجدي..!

- وما هي؟
- "عند الهزيمة لا تقبل التبريرات من نفسك، ولا تنخدع بتعاطف من حولك!.. بل سارع إلى الثأر! فلا كرامة لك بدون ثأر ولا حياة لك بدون كرامة! "

***

وعملا بمقولة جده، قرر يوسف الانتقام من المتنبي.. فعلى الرغم من كون هزيمته حدثا بسيط لا يؤبه له عادة، إلا أنه حز في نفسه، وشعر بأن كرامته قد تمزقت كما تمزقت كرته.. لم يستسغ أن يهزم أمام شخص يقذف الكرة لأول مرة، ولم يتقبل أن يجمعه المتنبي على خسارتين، وهو الذي أفنى سنينا طويلة في ممارسة اللعبة.. لذلك قرر أن يرد الصاع صاعين، وأن يذيق المتنبي ضعف ما ذاقه منه ..

في بادئ الأمر، فكر في دعوة المتنبي إلى نزال ثأري.. لكنه، وبعد تفكير طويل؛ رأى أن الانتصار على المتنبي في مباراة كرة القدم لن يشفي غليله، وأن عدالة القصاص تفرض عليه أن يهزم المتنبي في أكثر شيء يبرع فيه، ألا وهو الشعر.. بيد أن يوسف لم يكن شاعرا، ولا علم له بقواعد الشعر وفنون صناعته، فضلا عن كون المتنبي واحدا من أئمة الشعر الذين تصعب مجاراتهم، ويستحيل التفوق عليهم..

ومما لا شك فيه، أن يوسف كان مدركا لهذه الحقيقة المؤلمة، خصوصا وأنه أمضى عشية يومها في الاستلقاء على كنبات البهو مغموما مهموما، يضرب الحائط بكرته الصغيرة النطاطة، لترتد في يده ويضرب بها الحائط من جديد.. قبل أن يتوقف عن ذلك، ويقوم من مكانه فجأة ويسألني:

- كم نسبة نجاحي في الفوز على المتنبي في مباراة شعرية؟!

فتوقفت عن تقشير موزة كانت بيدي، ونظرت إليه متعجبا من سعة خياله التي دفعته إلى طرح سؤال كهذا، ثم تابعت التقشير وأجبته بعد أن استحييت من الإعراض عن إجابته:

- نسبة نجاحك، واحد في المليار..!

فابتسم، وبرقت عيناه.. ثم قال:

- هذا يعني أن هناك بصيصا من الأمل!

ثم تمددت ابتسامته، وازداد بريق عينيه وهو يردف قائلا:

- لكنني سأهزمه بطريقة أخرى يا أحمد..
- كيف؟!
- سوف أنتقد شعره، وسوف أظهر عيوبه.. هذا أسهل بكثير من نظم الشعر! ..
- للنقد شروط لا تتوفر فيك يا يوسف..
- أعلم ذلك يا أحمد.. لكنني سأستعين بما صنفه النقاد الآخرون حول مساوئ شعره، وسوف أواجهه بها..
- ستضرب عصافيره بأحجار غيرك!
- نعم.. سأهزمه شر هزيمة، ودون عناء! ...

لم يستغرق يوسف الكثير من الوقت في البحث عن ضالته.. لقد كانت ساعة واحدة من التصفح على الإنترنت، كافية لكي يدون على مذكرته العديد من الانتقادات التي وجهت للمتنبي في شخصه وفي شعره معا.. لكنه ما كان لينجح في العثور على بغيته لولا إرشادات المهدي الذي كان يدله على مواقع البحث، ويرشده إلى ما يتوجب أخذه منها وما يستحسن تركه، معتمدا في ذلك على الدراسات التي اطلع عليها سابقا..

بيد أن المهدي لم يكن ليساعد يوسف في بحثه حبا فيه، بل رغبة في رؤية المتنبي في موقع المتهم، وفضولا منه لمعرفة الكيفية التي سيدافع بها هذا الأخير عن نفسه.. وما أكد لي صحة تكهني، هو الحماس الكبير الذي بدا على قسماته في غرفة المكتبة، حين وقف عند المكتب متوسطا يوسف والمتنبي كحكم بينهما.. في تلك اللحظة، كان المتنبي مستغرقا في قراءة الجريدة، غير آبه لوجودهما.. إلى أن تنحنح يوسف قائلا:

- هلا أعطيتني القليل من وقتك يا سيد متنبي؟!

ليخفض المتنبي الجريدة عن مستوى عينيه رامقا يوسف بنظرة استفسار.. قبل أن يبتسم على غير عادته، ويجيب قائلا:

- ما من مشكلة.. لك ذلك..

ابتسم يوسف والمكر يظهر من ضيق عينيه، ثم تكلم بلباقة دون أن يفصح عن نواياه الحقيقية:

- سيدي لقد قرأت الكثير من أشعارك.. ومما لا شك فيه أنها حظيت وما تزال تحظى بإعجاب الكثيرين إلى يومنا هذا، إلا أن لي العديد من الملاحظات والمؤاخذات! ..

فألقى المتنبي بنظرة خاطفة على المذكرة التي يحملها يوسف، ووضع الصحيفة من يده، ثم عدل من جلسته متكئا على شقه الأيسر.. ليرد بصوت هادئ النبرات:

- تفضل.. هات ما عندك! ..

فتهلل وجه يوسف حين اعتقد أن المتنبي قد وقع أخيرا في شراكه، ومضى يقلب صفحات مذكرته متلهفا لإطلاق سهام الانتقاد.. ثم تنحنح مرة أخرى، وقطب حاجبيه متظاهرا بالحزم والثبات.. قبل أن يطرح سؤاله الأول قائلا:

- سيدي، أنت شاعر متهم بالسرقة ممن سبقك من الشعراء؛ يقول النقاد أنك سرقت المعاني من أكثر من ثلاثين شاعرا ووظفتها في أشعارك، وسأتلو عليك الآن نماذجا من الأبيات التي سلخت معانيها..

ليقاطعه المتنبي ضاحكا.. ويقول:

- يبدو أنك تجهل بأن السرقة ظاهرة لم يخل منها شاعر قديم أو محدث! .. ويبدو أنك لا تعلم بأن هناك معان غير قابلة للاحتكار، ولا تصح لشاعر دون آخر.. لكن، فلتعلم، أن السرقة لا تعد سرقة إلا إذا أخذ الشاعر المعنى البديع من غيره، ووظفه دون تغيير أو تعديل.. أما أنا، وإن اقتبست ممن سبقني بعض المعاني، فأنني حسنتها ببراعة صناعتي، ورصيتها بقوة بنائي، ووشيتها بجميل لفظي، فصارت في حلة أفضل من التي كانت عليها، وتعلقت قلوب الناس بها حتى نسيت ما قيل قبلها.. وعليه، فإن ماقمت به لا يسمى سرقة للمعاني، بل تطويرا لها..

تغير وجه يوسف من الانبساط إلى الانقباض، وخرس لسانه حين أعجزه الجهل بقضايا الشعر عن الرد على المتنبي.. ثم راح يحدق إلى المهدي طالبا منه العون.. إلا أن الأخير لم يستطع إفادته بشيء، وبدا من خلال ابتسامته أقرب لموافقة المتنبي من معارضته؛ ليضطر يوسف إلى الاقتناع بجواب المتنبي رغما عنه، ويمر إلى السؤال الثاني قائلا:

- أنت شاعر متذلل يبالغ في المدح! وقد وصل بك المدح أحيانا إلى تنزيه الممدوح بصفات وخصائص لا تجوز للبشر!.. كما يعتبرك الكثيرون شاعرا متسولا.. فما ردك على هذه الاتهامات؟

تبسم المتنبي.. وأجاب وهو يشمر أكمام قميصه:

- لو تمعنت في قصائدي؛ للاحظت أنني لا أتذلل للممدوح، وإنما أتغنى بنفسي أولا مقاسما إياه قصيدتي، وجاعلا منه ندا لي.. أما بخصوص الغلو في المدح، فهو متعارف عليه بين الشعراء، ووليد التنافس بينهم، ولا يراد منه تأليه الممدوح وتنزيهه بقدر ما يراد منه إشهار الممدوح، وذيوع صيته بين الناس.. ولا يخفى عليك أن وسائل الإعلام التي تمتلكونها اليوم، لم تكن متوفرة في عصرنا؛ لذلك كنا نحن الأدباء وسيلة الإعلام في زماننا وأداته الوحيدة.. وهذا ما يجعل مديحي تجارة، لا تسولا.. فالمتسول لا يقدم شيئا في المقابل، أما أنا، فلقد خلدت أسماء الذين مدحتهم أبد الدهر، وما منحتهم إياه لا يقارن أبدا بما دفعوه ثمنا لذلك..

عجز يوسف عن الرد مرة أخرى، وتعاظم الاحساس بالعجز في دواخله حين لزم الصمت لما يزيد عن الدقيقتين.. أما أنا، فعجبت من قدرة المتنبي على الإقناع، وصرت متأكدا من أن الانتقام الذي يطمح إليه يوسف، سيتحول بلا شك إلى هزيمة ثانية؛ فشرعت أضحك في نفسي من سوء حظه، وأخذت أنظر إليه مشفقا عليه مما ورط به نفسه.. إلى أن طرح مسألته الثالثة:

- يتفق العديد من الباحثين على أنك شاعر شديد الغرور، تعاني من جنون العظمة المقترن باحتقار الناس وازدرائهم، وهذه بعض من أبياتك التي تشهد على صحة ذلك.. " سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا.. بأنني خير من تسعى به قدم"؛ "أمط عنك تشبيهي بما وكأنه.. فما أحد فوقي وما أحد مثلي"؛ " وإني لمن قوم كأن نفوسهم.. بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"؛ " ودهر ناسه ناس صغار.. وإن كانت لهم جثث ضخام.. وما أنا منهم بالعيش فيهم.. ولكن معدن الذهب الرغام".. فما قولك؟

فأجاب المتنبي:

- ما يراه الباحثون والنقاد غرورا، أراه اعتزازا بنفسي وإيمانا بها.. ولو أنك علمت السياق وعايشت الظروف التي قلت فيها هذه الأبيات؛ لفهمت المغزى منها.. وسأذكر كمثال على ذلك، فترة مقامي لدى سيف الدولة الحمداني في حلب.. كنت حينها محاطا بالحساد الذين لا يترددون في مضايقتي والحط من قدري؛ فكنت مجبرا على الدفاع عن نفسي، والرد عليهم بما يناسب الوضع.. لقد امتلكت موهبة الشعر، وتفوقت على بقية الشعراء، وافتخرت بتفوقي عليهم.. أتعلم لماذا؟.. لأنها الحقيقة.. لقد كنت الأفضل، ومازلت، وكان من حقي أن أفتخر بنفسي.. بل كان من الواجب علي ذلك.. لأن الإنسان الذي لا يقدر مواهبه؛ تسلب منه وتضيع.. وأما عن الاحتقار والازدراء، فأنا لم أحتقر أحدا من الخليقة، وكل ما فعلته.. أنني وضعت كل شخص في المنزلة التي يستحقها.. العزيز عزيز، والسافل سافل..

إثر هذا الجواب، ابتعد المهدي عن المكتب.. وجلس إلى جواري على الأرض مستندا إلى الرفوف وهو يبتسم قهرا.. لقد أيقن حينها أنه عاجز عن مساعدة يوسف، وفضل الاستمتاع بالمقابلة حين تعذر عليه أن يتصيد أخطاء المتنبي ويفحمه، مثلما تعذر الأمر على يوسف الذي مال وجهه إلى الإصفرار، وقرر أن ينتقد شخص المتنبي بدلا من شعره حين قال:

- ما لا أستطيع استيعابه يا متنبي.. هي وقاحتك، وجرأتك على ادعاء النبوة!.. لقد أورد المؤرخون أنك ادعيت النبوة في صباك، وتبعك خلق كثير من البدو، قبل أن يخرج إليك أمير حمص ويسجنك..

ثم ابتسم يوسف بخبث في وجه المتنبي.. وتابع قائلا:

- ثم كتبت قصيدة تستعطف فيها الأمير ليخرجك من السجن.. وعندما خرجت، ظل لقب المتنبي لصيقا بك.. وهذه الأبيات من شعرك تؤكد ادعائك للنبوة.. "ما مقامي بأرض نخلة إلا.. كمقام المسيح بين اليهود.. أنا في أمة تداركها اللّه.. غريب كصالح في ثمود".. وبالإضافة إلى هذا، يرى النقاد أن العاطفة الدينية منعدمة في شعرك، كما أن قصائدك تحمل بين أبياتها العديد من الإشارات التي تدل على وهن العقيدة، وقلة الإيمان، وغلبة العادات الجاهلية على الآداب الإسلامية.. فماذا تقول فيما أخذه النقاد عليك؟

ضحك المتنبي بعدما ابتسم طيلة حديث يوسف.. وأجاب وهو ينقر بأصابعه على المكتب قائلا:

- لقد قرأت بعضا مما أورده المؤرخون عني في هذه المكتبة، وجله أخبار كاذبة.. إن ادعائي للنبوة محض افتراء.. إنها مجرد كذبة صدقتها في صباي، ولازمتني إلى يومنا هذا! ..

فانشرح وجه يوسف حين ظن أنه قد انتزع من المتنبي اعترافا خطيرا.. ثم رد بنبرة يشوبها الفرح:

- لم أفهم!.. ماذا تقصد؟

ليوضح المتنبي قائلا:

- لقد كنت صبيا نابغة، شديد الذكاء.. كنت أحفظ كتبا من أول قراءة، وأشعارا من أول سماع؛ وكنت أقول الشعر وسني لا يتجاوز الثامنة.. فظننت بعقلي الطفولي البريء أنني نبي شعر، وأخبرت أقراني بذلك؛ ليصبح المتنبي لقبا لي، ولا علاقة للأمر

بالدين أو بالرسالات السماوية.. إلا أن الحساد والحاقدين استغلوا الأمر ضدي، وفسروه حسب أهوائهم.. لكنني لا أنكر أن ادعائي لنبوة الشعر في صباي، هو ما جعلني شاعرا متفوقا..

فأطرق يوسف رأسه خائبا.. واستفسر المهدي قائلا:

- كيف ذلك؟!

أجاب المتنبي:

- سأضرب لك مثلا ببعض ما قرأته في هذه المكتبة.. لا يخفى عليك، أن الألمان صنعوا أمجادهم عندما اعتقدوا أنهم أفضل الأعراق، وأن اليهود حكموا العالم حين صدقوا أنهم شعب الله المختار، وأن جيوش المغول كونوا أكبر امبراطورية في التاريخ حين آمنوا بأنهم جنود لا يقهرون .. أما أنا فلقد آمنت بأنني نبي شعر، وسلطان الشعراء الأكبر.. أحيانا لكي تثق بنفسك، يلزمك الاعتقاد بفكرة ما ولو كانت زائفة! ..

فغمغم المهدي:

- امممم.. عجيب..!

ثم استأنف المتنبي قائلا:

- أما انعدام العاطفة الدينية في أشعاري، فذلك أمر متعمد.. ولقد دأب معظم الشعراء على اجتناب الإفصاح عن خواطرهم ومذاهبهم الدينية..

ليضحك المهدي مقهقها حين ظن أنه قد كشف نقطة من نقاط ضعف المتنبي.. ويعقب عليه بسؤال أراد به إفحامه:

- عجبا لك يا شاعر! لطالما افتخرت بشجاعتك وقوتك.. لماذا جبنت وعجزت عن التعبير عن آرائك الدينية؟ ممن كنت خائفا؟!

رد المتنبي والثقة تملأ نبراته:

- لم يكن عدم إفصاحي عنها جبنا.. بل حكمة.. لقد عرف عصري تعددات طائفية ومذهبية، ولكي يكون شعري مقبولا لدى الطوائف كلها؛ تجنبت القضايا التي يختلفون فيها، وتطرقت إلى المسائل التي يجتمعون عليها؛ فصرت مقبول القول عندهم جميعا، وصار كل منهم يفخر بي وينسبني إلى مذهبه..

شردت للحظات وأنا أتمعن في جواب المتنبي الأخير.. لقد كشف من خلاله حيلة من أقوى حيله، وسرا من أسرار خلود شعره بين الناس.. وتعجبت منبهرا بتطابق عبارته الأخيرة مع ما يقع بين أدباء من عصرنا الحالي.. فالسنيون منهم يعتبرون المتنبي سنيا، والشيعيون منهم يعتبرونه شيعيا.. بل إن الإسماعيليين أيضا، يعتقدون أن المتنبي كان إسماعيليا.. الشيء الذي أثار فضولي، وأجبرني على سؤاله:

- أخبرني يا متنبي.. هل كنت سنيا أم شيعيا؟

ابتسم المتنبي دون ان تبدو أسنانه، وظل صامتا لهنيهة.. قبل أن يجيب مراوغا:

- إن لفظة سني أو شيعي هي في الحقيقة تحريف للفظة مؤمن، ولقد جرت العادة أن السنة هم الذين يفضلون أبابكر الصديق، وأن الشيعة هم الذين يفضلون الإمام علي كرم الله وجهه، مع العلم أن كلا الجماعتين غير مؤهلة لمعرفة الأفضل بينهما. فلكي تفاضل بين الصحابة يجب أن تكون في مقام أفضل منهما علما بالدين وتوفرا لقدرة التمييز، وهذا لا يتوفر إلا للرسول صلى الله عليه وسلم.. والحقيقة، أن الإيمان لا يستقيم إلا باتباع السنة، وحب آل البيت..

تبسمت ضاحكا وقد ازداد انبهاري بالمتنبي، واحمر وجه يوسف وقد نفذ منه الصبر.. فانعقدت حواجبه، وبرزت عروق جبهته وهو يخاطب خصمه:

- يقول البعض بأنك ابن سقاء من سوقة الناس! ويقول البعض الآخر بأنك لقيط مجهول النسب!.. فماذا تقول؟

فأجاب المتنبي وفي عينيه نظرة تحد وإباء جهلت سببها:

- هذا أمر لا يعنيك، ولقد أخذت على نفسي عهدا بكتمانه! ..

ورد يوسف بلهجة مستفزة:

- هذا لأنك تخجل من نسبك الوضيع!

ليجيب المتنبي منشدا:

- *لا بقومي شرفت بل شرفوا بي*
  وبنفسي فخرت لا بجدودي
  أنا ترب الندى ورب القوافي!
  وسمام العدى وغيظ الحسود!

فقام يوسف من مكانه وهو يقول ساخرا:

- هذه الأبيات تؤكد أنك لقيط لا يعرف له آباء ليفخر بهم كبقية الشعراء.. لقد انتهت جلستي معك يا لقيط! ..

استغربت تصرف يوسف اللاأخلاقي.. وحدجته بنظرة عتاب حين رأيت أن هزيمته لا تستحق أن يبدي من أجلها كل هذا اللؤم والنذالة.. بيد أن المتنبي الذي اعتاد أن يعير بنسبه لم يستغرب.. بل انفجر ضاحكا، وصدح منشدا:

- *وأتعب من ناداك من لا تجيبه*
  وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
  وما التيه طبي فيهم غير أنني
  بغيض إلي الجاهل المتعاقل

فاربد وجه يوسف من الغضب، ودس مذكرته في جيبه بقسوة.. ثم غادر الغرفة وهو يغمغم بالشتائم والسباب.. ليقطع المتنبي سلسلة شتائمه زاجرا:

- على رسلك يا مجنون! .. إنك تجرح أسماعنا ..!

ثم التفت إلينا وأردف قائلا:

- تذكروا دوما أنكم لستم مجبرين على مناقشة الجميع، فإن منهم الجهلاء والسفهاء والمعاتيه..!

في تلك الأثناء دخل علينا عزوز يحمل دفتره، وعلى وجهه ابتسامته البلهاء، ثم هم بالجلوس إلى جواري.. قبل أن يضرب المتنبي بيده على سطح المكتب ضربتين خفيفتين وهو يخاطبنا:

- فلتقتربوا! .. أريد التحدث معكم جميعا..

فتحلقنا حوله.. وأخذت أتكهن بما يمكن أن يقوله لنا، خصوصا وأنها المرة الأولى التي يطلب فيها الحديث إلينا.. وفي الوقت ذاته، كنت أسترق النظر إلى عزوز الذي فتح دفتره وشرع يتلو كتاباته في سره مسرورا بها، متحمسا لعرضها على المتنبي لتقييمها.. وما هي إلا لحظات، حتى استهل هذا الأخير حديثه بنبرة مهيبة تناسبت وقميصه الأسود:

- إنني أعلم أنكم تستغربون تصرفي طيلة الأيام الماضية.. وأعلم أن معظمكم يفسر ذلك بالتكبر واللؤم؛ خصوصا وأنني بدوت غير مهتم بالحديث معكم، أو التعرف إليكم.. لكنكم مخطئون.. فتصرفي ذاك لم يكن نابعا من التكبر أو قلة الاهتمام، بل لأنني عرفت من تكونون منذ الوهلة الأولى..

ثم نظر إلى المهدي الذي كان يقف عن يمينه وخاطبه قائلا:

- أنت تدعى المهدي، وكنيتك "الحسناوي".. لك أخت وثلاثة إخوة، عصبي متقلب المزاج، تحب أن تكون فريدا قويا محط الأنظار.. لك

طموحات كبيرة، إلا أنك لا تعرف الطريق الصحيح لتحقيقها؛ الشيء الذي يجعلك مهدرا لأوقاتك وطاقاتك دون فائدة! ..

تراجع المهدي بخطوة إلى الخلف وقد تجمدت ملامحه تعجبا من صدق ما سمعه.. وقبل أن يبادر بالاستفسار، التفت المتنبي إلى يساره مخبرا عزوز:

- وأنت.. اسمك عزوز، واسمك العائلي "سرغين".. يتيم الأب، وحيد أمك.. شخص موهوب، ساذج، عانيت كثيرا، وخسرت كثيرا، ولا تتردد في التهرب والاستسلام أمام مشاكل الحياة وصعوباتها.. أنت إنسان انهزامي يظن أن ضعفه وداعة وطيبة..

فدارت أعين عزوز في محاجرها كما دأبت أن تدور في كل مرة يحاول فيها التهرب واختلاق الأعذار.. لكنه سكت هذه المرة، وفضل أن يكون سكوته علامة على الرضا. ولعل ما دفعه إلى ذلك؛ أنه يرى في المتنبي أستاذه ومعلمه المستقبلي.. وكما كان منتظرا، جاء دوري.. ورمقني الشاعر بنظرة تحمل بين طياتها القليل من العطف، والكثير من الازدراء.. وخاطبني بعد أن صارت نبرات صوته أكثر هدوءا :

- أما أنت يا صاحب الدار.. فاسمك أحمد نجم الدين.. أنت يتيم وحيد.. كان بإمكانك تحويل حرمانك إلى طاقة متفجرة، لكنك فضلت أن تكون إنسانا يائسا عبثيا لا عزم له.. تتعلم السيمياء من أجل التسلية واللهو.. تفتقر إلى الجدية، وتعيش بلا غاية أو طموح..

لم أستغرب تطابق معلوماته مع الحقيقة، ولا دقة وصفه لملامح شخصيتي.. كنت متأكدا من أن قرناءنا الجن هم من أمده بما أخبرنا به، فهو مثلهم من جنسهم، وإن تجسد في صورة إنسان.. لذلك، أجبته قائلا:

- لقد تواصلت مع قرنائنا.. أليس كذلك يا قرين أبي الطيب المتنبي؟

فحدجني بنظرة قوية، ومالت لهجته إلى الحدة حين أجابني قائلا:

- أنا المتنبي ولا أحد غيري.. أبو الطيب مات قبل ألف سنة، أما أنا فحي أرزق وإن كنت متجسدا في صورته.. أنا لم أطلب الحديث إلى قرنائكم، بل هم من طلب ذلك، وأخبروني عنكم توددا ورغبة في التقرب مني ..

تبادلت النظرات والمهدي، وأخذ عزوز يفرك رأسه حين تعسر عليه فهم المسألة.. قبل أن يتوقف مستسلما لجهله، ويستأنف المتنبي حديثه:

- عندما قتل قريني الإنسي أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور بالمتنبي الذي هو أنا..

ثم ضرب على صدره بفخر.. وتابع كلامه بعد أن بدأت أمارات الحزن بالتجلي على وجهه:

- عندما قتل.. شعرت بالحزن عليه وتألمت كثيرا! .. لقد كان صديقي الوحيد، ووسيلتي لتحقيق آمالي وأحلامي.. وبعد فقده؛ صرت عديم التأثير في عالمكم، عديم الوجود.. فقصدت العالم السفلي، وانقطعت فيه كل هذه السنين انتظارا لموتي.. لكن القدر وهب لي فرصة أخرى وجسدا كجسد قريني حين قمتم باستدعائي وإعادتي إلى عالمكم.. فكان من الطبيعي أن أنصرف عنكم في أول الأمر، وأقرأ كتبكم للتزود بأكبر ما يمكنني من المعرفة، والخبرة بأحوال الحياة في هذا العالم الجديد.. لقد أردت استغلال فرصتي بأقصى ما يمكنني، وكرهت أن أكرر أخطاء الماضي البعيد.. بنفس القدر الذي أكره فيه أن أرى شبابا مثلكم لا يحسنون استغلال حيواتهم.. إن ما دفعني إلى طلب الحديث إليكم، هو رغبتي في إرشادكم إلى سبل النجاح، وانتشالكم من حياة الذلة والضياع...

لا أنكر أن خطابه كان مؤثرا.. لكنني سرعان ما شعرت برغبة في الضحك، رغبة لم أستطع دفعها إلا عندما صرفتها على شكل متقطع بين كلمات أسئلتي:

- هل أنت جاد؟! من الأجدر بأن يعلم الآخر سبل الرشاد والنجاح؟ أأنت الذي جئت إلى عالمنا مؤخرا؟.. أم نحن بنو هذا العالم وذووه؟!

فقهقه المتنبي ساخرا وهو ينظر إلى السقف.. ثم مسح على رأسه وضرب على المكتب براحة يده وهو يقول:

- كيف لكم أن تكونوا على بينة من الرشاد وأنتم مجرد جزء من قطيع كبير مغسول الدماغ؟!.. أنتم لا شيء!

حينها صاح المهدي معارضا:

- كلا!.. نحن أناس واعون ومثقفون! ..

فقاطعة المتنبي متهكما وقد ازداد صوته حدة:

- مثقفون؟! هل تقصد بثقافتك تصديق الأكاذيب وجمع فتات الأخبار.. أهذا ما تسميه ثقافة يا مثقف؟!

سكت المهدي عاجزا عن الرد.. وزفر المتنبي، ثم تابع القول شارد النظرات:

- إن عالمكم يشهد انحلالا أخلاقيا لا مثيل له.. انحلال تغلغل في مجتمعاتكم جيلا بعد جيل.. كل جيل يتخلى عن مبدأ.. لينتهي الأمر بأسوء جيل عرفته الخليقة.. جيل دفع ثمن تخاذل الأجداد، وتهاون الاباء، وتساهل الأمهات.. جيل أناني، يفكر في مصالحه فقط، فاقد للإحساس بالآخر.. جيل ضعيف الشخصية، لا يحسن إلا التقليد واللهو والعبث!.. سطحي التفكير! .. يعبد المظاهر الخارجية، يقدس من يحتقره، و يحتقر من يحترمه!.. أنى له أن يكون راشدا!.. أنا له أن يحقق العدالة..!

سكتنا.. ولم يعقب أحد على كلامه الذي وصف العلل التي يعرفها الجميع.. وعندما تأكد بأن قوله أصاب منا مبلغا، تغيرت نبرته، وتكلم كأب عطوف:

- دوما ما أردد هذا البيت "ولم أرى في عيوب الناس شيئا.. كنقص القادرين على التمام".. وهذا البيت ينطبق عليكم أبناء هذا الزمان أكثر ممن قبلكم.. تعيشون في عالم أصبح في كل شيء ميسرا، لكنكم لا تفعلون شيئا للرقي بأنفسكم، سوى التذمر والشكوى.. تبيدون أوقاتكم أمام ذلك الجهاز اللعين الذي يزين لكم العيش في السخافة والتفاهات.. تصرفون سنوات وسنوات في بناء أجسامكم، ولا تصبرون ولو قليلا لبناء عقولكم.. تنهارون أمام أبسط المشاكل، وبدلا من المقاومة والقتال، تدخلون في مقارنات غير عادلة مع الآخرين.. وتتقوقعون حول أنفسكم، منصتين لصوت ضعفكم الحزين استعدادا للشعور بالضياع.. تلومون محيطكم، ويصل بكم المطاف لسب النظام والتسخط على القدر.. وتنسون أنكم المسؤولون الوحيدون عما يحل بكم.. لقد رضختم لسلسلة كثيفة من الإلهاء والاستغباء حتى اكتفيتم بأسفه الأحلام، وصدقتم بأن زمان الأهداف الكبيرة قد انقضى، وبأن عصر العظماء قد مضى.. فتقاسمتم السفالة، ونسيتم بأن العظمة متاحة لمن أرادها..

ثم تكلم المهدي وقد بدت الحماسة على صفحات وجهه، وعلى يده التي انقبضت بشكل لا إرادي:

- وكيف السبيل إلى العظمة؟!

فأجاب المتنبي:

- أن تختار لنفسك أرقى الأماني.. وتقاتل من أجل تحقيقها..

ثم سكت.. وقام من مكانه منشدا:

- *إذا غامرت في شرف مروم .. .. فلا تقنع بما دون النجوم*

فطعم الموت في أمر حقير.. .. كطعم الموت في أمر عظيم

الكنــز

في صباح اليوم التالي استيقظت مع العاشرة صباحا.. وبالرغم من حرارة الجو وسطوع الغرفة الشديد من أشعة الشمس إلا أنني فارقت الوسادة بصعوبة لحظتها، وأخذت أتأمل تقاسيم وجهي التي أعاد العرق المتصبب رسمها عليها.. كان عزوز ما يزال نائما، وكان المهدي ملتحفا بغطاء وجسمه يهتز تحته بشكل مريب.. وجمت للحظة مستغربا أمره، ثم قمت من مكاني ونزعت عنه الغطاء بحركة خاطفة؛ لأكشف عن وجهه الذي كان محمرا من الضحك وعن يديه التي كانت ممسكة بدفتر عزوز.. لأضحك بدوري.. وأقول له ناهرا:

- ألا تستحيي من التجسس على خواطر الآخرين؟!

فوضع سبابته على فهمه وهو ينظر إلى عزوز الذي كان مستغرقا في نوم عميق، ثم أجابني بصوت منخفض:

- ششششش اخفض صوتك؛ ستوقظ المجنون ! ..

ثم وضع يده على فمه ليخفف من حدة ضحكته التي خرجت من أنفه طحطحة.. وتابع قائلا:

- لقد تربصت بهذا الدفتر الليل بأكمله، لكن عزوز صعب علي أخذه بوضعه إياه تحت وسادته.. وعندما استيقظت قبل قليل استطعت أخذه منه كما تؤخذ الشعرة من العجين.. الشكر كله لنوم عزوز الثقيل! ..
- وما الذي أضحكك في كتاباته إلى هذا الحد؟!

ثم فتح الدفتر، ومده لي قائلا:

- اقرأ ما كتبه المجنون في هذه الصفحة! ..

فامتنعت عن أخذه، وأجبته قائلا:

- لا.. لا يجوز ذلك دون علمه! ..

ليرمقني بنظرة استهزاء وهو يقول:

- كفاك تظاهرا بالبراءة أيها الغر!.. ألا تريد أن تقرأ؟!.. حسنا أنا سأتلو عليك، وسأتحمل الإثم وحدي ياخواف..!

ثم سكت وتنحنح لينظف صوته من أثر الضحك، وشرع يقرأ بصوت خافت:

- يقول عزوز في القاعدة الأولى من كتابه "علم البديهيات في الحياة قبل الممات".. (يتنفس الإنسان من الأنف والفم، لدى حاول ان تتنفس بانتظام، وأي محاولة للتنفس من مكان آخر ستبوء حتما بالفشل الذرييييع)..

ضحكت من العبارة الأخيرة مجبرا.. واسترسل المهدي القراءة وهو يجاهد رغبته في الضحك:

- أما في القاعدة الثانية فيقول المجنون.. (أثناء الخطو لا تحرك كلتا الرجلين دفعة واحدة درءا لاختلال التوازن الذي يعقبه السقوط المؤلم، وإنما حرك الرجلين بالتناوب محددا نقطة الوصول التي تسمى الوجهة).. وفي القاعدة الثالثة يقول.. (عند المنتصف من رأسك الكروي سترى شكلين حلزونيين، هاتان يطلق عليهما الأذنان، إنها ما يساعدك على التعرف على الأصوات وتمييزها.. وامتلاكك لها لا يخول لك استخدام قدراتها فيما يتجاوز محيطك الخاص؛ لأنه خرق سافر وتعَدٍّ على حرية الغير، ومجلبة للإضرار النفسية التي تليها الجسدية أحيانا)..

ثـم انفجـر المهـدي بـأعلى صـوته ضـاحكا، بينمـا تحكمـت فـي نفسـي وامتنعـت عـن الضـحك وأنـا أنظـر إلـى عـزوز الـذي بـدأت عينـاه المغمضـان بالارتعاش تأثرا بالضجيج.. لأنبه المهدي زاجرا:

- كفاك ضحكا!.. إنك تزعج عزوز! ..

فسارع المهدي وأعاد الدفتر تحت وسادة عزوز.. قبل أن يستيقظ هذا الأخير بعد لحظات يسيرة وهو يتثاءب مبتسما.. ويعود المهدي إلى ضحكه وهو يقهقه قائلا:

- أرأيـت يـا أحمـد كيـف يسـتيقظ المجـانين!.. لا أحـد يبتسـم عنـد الاستيقاظ إلا المجانين! ههههههه...

فرمقنا عـزوز بعينـين نصف مغمضتين، وأخـرج مـن جيـب المنامـة التـي يرتديها مشطا أصفر قد تآكلت معظم أسنانه.. ثم شرع يرجل شعره المجعد وهو يفسر سر ابتسامته بصوت متهدج:

- دائما ما أحلم بشخص يناولني رزما من المال! .. وعندما أستيقظ أتحسر على الحلم المستفز.. ويبلغ هذا الاستفزاز حده عندما يبدأ هذا الشخص بالتهكم والسخرية من ذهاب هذا المال فور انتباهي مـن النـوم وعـدم اسـتفادتي منـه.. لكننـي وضـعت حـدا لتلـك الاستفزازات هذه المرة عندما تمكنت من صفعه قبل لحظات من عودتي إلى عالم اليقظة! ..

ليطلق المهدي ضحكة مدوية أعقبها بتعليق ساخر:

- يا عزوز من يرى وجهك المتورم القبيح هذا؛ سيعلم أنك من تعرض للصفع، لا الذي يستفزك فـي أحلامـك بـالنقود!.. إنـك تبـدو منتشـيا.. قبيحا منتشيا! ..

فتوقف عزوز عن التمشيط وقد ترك المشط عالقا على شعره الأكرث.. ثم رد معارضا:

- لا أوافقك الرأي.. المنتشون يستحيل أن يكونوا قبيحين!

لأسأله مستغربا قوله:

- يستحيل؟!.. وما المانع يا عزوز؟

فأجاب وهو يحرك رأسه معللا:

- المنتشون هم أجمل الناس!.. عيونهم براقة عسلية، وابتساماتهم لا تنتهي! ..

فانفجرت ضاحكا.. ودفن المهدي وجهه في وسادته أملا في إنهاء قهقهاته التي أعجزته عن الكلام..

***

بيض!.. بيض!.. بيض!.. لقد أحرق البيض كبدي!!" بهذه العبارات، صاح المهدي في المطبخ أثناء وجبة الإفطار معبرا عن سأمه وهو ينظر إلى طبق البيض المقلي الذي لا يمل عزوز من إعداده كل صباح.. قبل أن يحول أنظاره إلى عزوز.. ويصيح في وجهه متذمرا:

- ألا تحسن طهي شيء آخر؟!. بيض في كل يوم!.. لقد جعلتني أحس بإنني ثعبان لا إنسان..!

كان عزوز لحظتها على وشك أن يضع لقمة في فيه.. قبل أن يتوقف عن ذلك مبتسما، ويرد على المهدي بنبرة شديدة الهدوء:

- على رسلك يا صاح!.. لا أحد يتذمر من البيض سواك!.. إنه إفطار الأبطال!

وعلى مقربة منهما، كنت منهمكا في إعداد الشاي.. أراقب الخارج من النافذة من حين لآخر، منتظرا عودة يوسف الذي غادر فراشه باكرا.. كنت حريصا على أن نجتمع جميعا على مائدة الإفطار؛ فلقد بدأت أرى فيهم عائلتي التي حرمت منها باكرا.. أما المتنبي.. ذلك الفرد الغامض، لم أستطع اعتباره شخصا مقربا.. كما لم أستطع كذلك، اعتباره شخصا غريبا.. علاقتي به كانت مدا وجزرا.. أحيانا أرى فيه الصديق المثالي، وأحيانا أخرى، لا أكاد أعرفه.. ولعل ذلك راجع إلى سياسته التي يعتمدها في التعامل مع من حوله.. سياسة تعتمد الإقبال حينا، والإعراض في أحايين كثيرة.. والراجح أن سياسته هذه، هي التي لم تجعلني متحمسا كفاية لانتظاره على وجبات الإفطار، لكن ذلك لم يمنعني من سؤال المهدي عنه:

- إلى أين ذهب المتنبي يا ترى؟!
- لا أدري يا أحمد.. لعله يتاجر في السوق.. من يدري..!

أحسست بالعطش، ثم عمدت إلى الثلاجة.. وعندما فتحتها، لم أجد بها ماء باردا؛ كانت القنينات جميعها فارغة.. فالتفَتُّ إلى الرفاق المنشغلين بالإفطار، وخاطبتهم موبخا:

- لِمَ تعجزون عن تعبئة القنينات بعد استهلاك مائها؟!.. أتنتظرون منها أن تعبئ نفسها بنفسها يا كسلاء؟..!

لم يجبني أحد منهما، واكتفيا بالابتسام كما يفعل المقرون بذنوبهم.. ثم أخرجت العبوات قصد ملئها.. وعندما هممت بإغلاق البرَّاد؛ لمحت ورقة لاصقة صغيرة على بابه.. فوضعت العبوات على الطاولة، ثم نزعت الورقة لأقرأ ما عليها.. بدا الخط مألوفا من رداءته، إذ أيقنت من النظرة الأولى أنه خط يوسف.. لكنني لم أتوقع أن يكون المكتوب عليها خطاب وداع إلا عندما انتهيت من قراءته.. أذكر أنه كتب فيه: "صديقي أحمد.. أشكرك على حسن

ضيافتك، وسعة صدرك.. أنت إنسان طيب المعشر لا يمل أحد من صحبته.. لكن يحدث أن تكون هناك نهاية لكل شيء.. لقد عكر وجود المتنبي مزاجي، وما عدت راغبا في البقاء بمكان يتواجد فيه.. أنا آسف.. بلغ الأصدقاء تحياتي الحارة.."... تقطبت حواجبي من تلقاء نفسها، وارتسمت على شفاهي ابتسامة ساخرة وأنا أمرر الورقة إلى المهدي قائلا:

- لا أدري لم يحب بعض الناس إعطاء منحى درامي للأحداث..!

فأخذ المهدي الورقة الصغيرة بيسراه، وقرأها بعينيه.. ثم سلمها للتالي وكأن الأمر لا يهمه.. ليمسكها عزوز مطولا.. ثم يصيح متأسفا بعد أن قرأها بصوت مرتفع:

- أووه سنفتقده حتما!.. لا أنكر أنه سليط اللسان لكن له مكانة كبيرة في قلبي..!

فغمغم المهدي بكلام حال مضغه دون بيانه، ثم أمسك عن الكلام حتى بلع ما بفمه.. واسترسل قائلا:

- لا أصدق أن يكون المتنبي سبب رحيله ! ..

فجلست إلى الطاولة.. وعقبت على استغرابه وأنا أقلب الورقة بين أصابعي:

- لقد بدأ تذمره من المتنبي مباشرة بعد رهان الملعب، وتحول إلى حقد ليلة البارحة! ..

ليرد المهدي قائلا:

- وهل تصدق أن يوسف سيغضب من المتنبي بسبب هدف سجله عليه!.. لقد سجلت عليه العشرات من الأهداف من قبل ولم يأبه لذلك! .. أعتقد أنه بالغ في ردة فعله، والأسوأ من ذلك أنني أظن أنه بالغ متعمدا..
- ولماذا سيتعمد ذلك؟ !..

- لا أعلم.. لا يبدو غضبه من المتنبي منطقيا.. أن يغضب بسبب رهان تافه، ثم يتحول إلى ناقد شعري بين ليلة وضحاها.. أضف إلى ذلك رحيله دون توديع أو سابق إنذار! ..
- إنها الرغبة في الانتقام يا مهدي.. لقد شاهدت الحزن على محياه من وقع الهزيمة! ..
- وما الذي أكد لك بأن يوسف يعتبر خسارته للرهان هزيمة؟!.. وما الذي يؤكد لك بأن ما قرأته في ملامحه حزن من أساسه؟!.. ماذا لو كان يتظاهر بالحزن ؟.. ياأحمد حدسي يقول أنه اتخذ المتنبي ذريعة لكي يفترق عنا..
- وما حاجته إلى ذريعة أصلا؟!.. لو كان يريد الرحيل لرحل ببساطة دون البحث عن ذرائع، يكفيه أن يقول وداعا..

فعقب عزوز:

- لعله لا يتحمل لحظات الوداع!.. المسكين ترك لنا خطابا جميلا!..

ورد عليه المهدي وهو ينظر إليه بإشفاق:

- أنت المسكين يا عزوز!.. يوسف ليس من النوع المرهف الذي يتحاشى توديع الأحبة.. إنه يخاف ولا يستحيي!.. لكنني أعدك بأنني سأكتشف سر رحيله المفاجئ! ..

فجأة رن جرس البيت.. وترك عزوز مقعده مهرولا إلى النافذة ليلقي نظرة على الطارق.. ظل يحدق إلى الخارج مطولا، قبل أن يلتفت ويخبرنا:

- إنه المتنبي!..

ثم أطل مرة أخرى بأقصى ما يمكنه من جسده، وأردف بنبرة مندهشة:

- إنه يحمل شيئا على كتفيه!.. شيء ملفوف لا أستطيع تمييزه، إنه أشبه بجثة حيوان..!

نزلت الدرج.. وفتحت الباب للمتنبي.. ليدخل وهو يحمل الشيء الذي وصفه عزوز.. بدا حيوانا متوسط الحجم، ملفوفا في العديد من الأثواب والخرق.. وما إن أغلقت الباب وراءه؛ حتى أفلت ما يحمله من يديه ملقيا به في الردهة، ثم ألقى بثقله متكئا على الباب وجبهته تلمع عرقا.. فشرعت أحدق إليه تارة، وإلى الجسم الملفوف تارة أخرى.. قبل أن يتكلم قائلا:

- لا تحدق إلي هكذا!.. إنه مجرد غزال صغير! ..

سرى جوابه الصادم كصعقة على بدني.. ثم أجبته منفعلا وأنا أزيل الأثواب عن الجثة مرتبكا:

- غزال؟!! هل تدرك عواقب اصطياد الغزلان بالمنطقة؟! ستتسبب في سجنك لثلاث سنوات.!!..

لم يجبني، ولم يعر اهتماما لمخاوفي.. بل وشرع يمسح العرق عن جبهته وكأنني لا أخاطبه! .. ولما تأكدت أن الجسم جثة غزال فعلا؛ أردفت غاضبا:

- لقد اصطدت حيوانا مهددا بالانقراض!.. لقد جنيت على نفسك! .. ستسجنك السلطات! ..

فقام من مكانه، وحمل الغزال من جديد.. ثم تكلم وهو يصعد الدرج:

- الضرورات تبيح المحظورات يا أحمد! ونحن أولى بهذا الغزال من نفسه..
- لم أفهم؟!!
- لنصعد أولا، وسأشرح لك كل شيء..

دخلنا المطبخ.. ووضع المتنبي الغزال على أرضيته وسط ذهول الرفاق.. ثم انحنيت على الجثة، وشرعت في تقليبها بحثا عن الجرح عندما استغربت نظافتها من الدماء.. ليضرب المتنبي على قفاي بخفة ويسألني:

- مابك تقلبه؟!

فاستويت قائما، وأجبته وعيناي لا تتوقفان عن فحص الغزال:

- أحاول تحديد مكان الجرح..

فضحك.. ورد وهو يجلس إلى جوار عزوز:

- لقد قتلته دون أن أجرحه..

لينتفض المهدي من مكانه وتجحض عيناه قائلا:

- قتلته؟!.. وكيف قتلته؟!

وأجيبه متهكما:

- وهل ظننت أنه اشتراه من السوق يا بليد؟!.. إنه غزال بري! ..

قبل أن يتنحنح المتنبي.. ويشرع في سرد وقائع اصطياده للغزال قائلا:

- بالأمس، وعندما كنت أتجول في سوق الأنعام، لفت انتباهي شيخ مسن لا يبدو كشيوخ المنطقة.. كان يرتدي ثيابا عصرية فاخرة، وعلى معصمه ساعة ذهبية تجذب الأنظار.. كان يقصد الباعة واحدا واحدا، ويسألهم عن رق الغزال.. ولما تعذر عليه إيجاد مطلبه عندهم؛ بدأ في سؤال الوافدين والعابرين.. إلى أن وصل به المطاف إلي، وسألني ما إن كنت أملك رق غزال للبيع أو إن كنت أعرف شخصا ما يملكه.. هممت بالنفي، غير أنني تمهلت قليلا، وسألته عن حاجته به.. فامتنع عن إخباري مراوغا، وأخبرني بأنه معتاد على شراء جلود الغزال من قناص يصطادها في أعالي هذه الجبال، قبل أن يتم القبض على هذا الأخير مؤخرا، ويزج به الدرك في السجن.. سألته عن الثمن الذي يدفعه لقاء الجلد الواحد؛ فأجابني بأنه يشتريه بعشرة آلاف درهم إن كان بحالة جيدة، وبست آلاف درهم إن كان بغيرها.. فأحببت الفكرة ووافقت هواي، ثم عرضت عليه أن

أصطاد له غزالا كاملا ويدفع لي ثلاثة عشر ألف درهم ثمنا له.. ففكر قليلا، ثم وافق على عرضي؛ ليحدد عشية اليوم موعدا للصفقة، ويحدد باب السوق الخلفي مكانا لها.. وحرصا مني على تنفيذ وعدي؛ أخذت قطع ثوب من القبو، وغادرت المنزل قبل الفجر بساعتين.. ثم أخذت طريقي إلى إحدى القمم الجبلية بحثا عن ضالتي.. استغرقت ساعة من التسلق قبل أن أهتدي إلى شجرة حولها فضلات غزلان.. فعلمت أن الغزلان تقصدها لتقتات على النبات الذي ينتشر حولها، وأخذت حجرة صماء كبيرة، ثم اعتليت الشجرة متواريا بين أغصانها.. ظللت ساكنا على تلك الحال لما يفوق الساعتين، إلى أن ابتسم الحظ لي واقترب الغزال من الشجرة.. فانتظرت إلى أن أصبح تحت مرماي، ثم أفلتت الحجر من يدي؛ ليسقط على قفا الغزال ويفقده وعيه.. حينها نزلت من مخبئي، وخنقته بركبتي إلى أن لفظ أنفاسه وكفت قوائمه عن الاضطراب.. ثم لففته في قطع الثوب وجئت به إلى هنا..

تقلصت ابتسامة عزوز، وضاقت عيناه إشفاقا على حال الحيوان.. وبرقت عيون المهدي وتبسم ثغره، ثم صاح قائلا وهو يضرب بكفه على الجثة الهامدة:

- إنني أغبطك على مغامرتك هذه يا متنبي!.. تمنيت لو كنت معك لأصطاد واحدا بدوري!..

ثم ارتشف رشفة من الشاي.. ووضع الكأس بقوة رمشت لها عينا عزوز، وأردف قائلا:

- نعم المغامرة هي!.. مغامرة مجزية، وبثلاثة عشر ألف درهم..!

لأعقب على كلامه قائلا:

- بل بئس المغامرة هي يا مهدي! .. مغامرة ستتسبب له في ثلاث سنوات من السجن، وفي ما لا حصر له من المتاعب!.. بعد قليل سيطرق أعوان السلطة بابنا!..

فرد المتنبي بثقة وقد وضع ساقه على الأخرى:

- لا تقلق يا أحمد؛ لم يرني أحد، ولم يتعقبني أحد.. لقد أحكمت خطتي جيدا..

ثم سأله عزوز بتأثر تجلى في بحة صوته:

- هل كان من الضروري أن تحرمه من الحياة وهو لا يزال صغيرا؟!. .

فزفر المتنبي.. ثم أجاب:

- إسمع.. أنا رجل لا يرضى بالذل والهوان، وقد عاهدت نفسي على بلوغ المجد ومساعدتكم على بلوغه.. لذلك، وعندما صادفت أول فرصة من شأنها أن تمهد لنا نحو تحسين أوضاعنا؛ سارعت واستغللتها دون أن أتقاعس أو أتهاون.. ربما قد تكون الثلاثة عشر ألف درهم حقيرة في أنظاركم، لكنها ستفتح لنا أبوابا أخرى لجني المزيد..

قاطعته ساخرا:

- المجد؟!.. أي مجد هذا؟!.. وما علاقة المال بالمجد؟..!

فأجاب منشدا:

- *فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله..*
  ولا مال في الدنيا لمن قل مجده..

في تلك اللحظة، أحسست بأن المتنبي شخص بعيد كل البعد عن الواقع.. وقررت مصارحته بما أشعر به حيال طموحه الزائد:

- يا متنبي.. الطموح شيء جميل، لكنه إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولك في حياتك السابقة أكبر دليل.. لقد كنت شاعرا كبيرا وقصدت العديد من الأمراء والملوك وصاحبتهم.. وبلغ بك الطموح إلى طلب المناصب العليا من كافور الإخشيدي.. لكنك لم تفلح، والسبب في ذلك هو طموحك الكبير نفسه، إنه يخيف الآخرين ويجعلهم على حذر منك، ويخلق لك العديد من الأعداء والحساد.. أنا لا أطمح إلى المجد؛ تعجبني حياتي هذه، ولا أرى فيها ذلا ولا هوانا.. أنا مطمئن ومرتاح هكذا..

فابتسم المتنبي ورد قائلا:

- أجل، لقد فشلتُ في نيل مبتغاي فيما مضى.. لكنني عدت لتحقيقه وسأعمل جاهدا على تحقيقه، فأن أكون ذا طموح زائد أرحم لي من أن أكون بلا طموح ولا هدف مثلك.. فعلى الأقل أملك خططا وأهدافا، أما أنت فبَطّال لا يجد حرجا في أن يكون جزءا من مخططات الآخرين وأهدافهم، وهذا عين الذل الهوان ..

قاطعته مستنكرا:

- ماذا؟! كيف أكون جزءا من خطط الآخرين وأنا لا أشاركهم فيها؟!.. قولك هذا لا يستقيم..

فأجاب قائلا:

- عجزك عن تحديد هدف لنفسك، سيتخذه الآخرون مطية نحو تحقيق أهدافهم الخاصة.. وهذا ما يجعلك جزءا من مخططاتهم ..

ثم عقب المهدي مناصرا رأي المتنبي:

- لقد صدق المتنبي يا أحمد.. من لم يستعمل نفسه في تحقيق ما يريده؛ سيستعمله الآخرون في تحقيق مرادهم.. ولك أنت تختار من تكون في هذه المعادلة، فاعلا؟ أم مفعولا به؟..

لم أجب المهدي.. لأنني لم أكن راغبا في تحقيق شيء حينها.. لا أدري لماذا بدا كل ما يقاتل الآخرون من أجل تحقيقه تافها في نظري.. إنهم يركضون ويركضون ويركضون ويتعبون وقد يخسرون البعض من مبادئهم وعلاقاتهم مقابل أشياء لا تساوي قيمة الاستمتاع بها نصف الجهد المبذول.. يُعجبون بالشيء؛ فيرغبون به؛ ثم يتعبون في الحصول عليه، ليَمَلّوا منه في الأخير.. مضيعة وقت.. والأغبياء هم الذين يكررون هذه العملية دائما، دون أن يدركوا أن المتعة الكبرى تكمن في عدم الحصول على الشيء الذي يريدونه.. إن أحببت شيئا، لا تحصل عليه.. هكذا لن تتعب، ولن تمل، ولن يفقد الشيء بريقه ..

ليبتسم المتنبي عندما ظن أن سكوتي عجز عن الإجابة.. ويصب لنفسه كأسا من الشاي وهو ينشد ضاحكا :

- *من يهن يسهل الهوان عليه. . ما لجرح بميت إيلام*

***

أتَمَّ المتنبي صفقته في الوقت المحدد، وعاد إلى البيت دون أن يفطن أحد من المراقبين لما قام به.. ثم استلقى على سجاد البهو وانشغل معي بمتابعة الأخبار على شاشة التلفاز، فيما تكلف عزوز بِعَدِّ أرباح الصفقة وفرزها على الطاولة الزجاجية ورقة ورقة.. أذكر أنه استغرق وقتا طويلا قبل أن يُتِمَّ العد، ويخبرنا متلعثما وأمارات الشك تملأ محياه:

- المبلغ ناقص!.. تنقصه مئتا درهم..!

لم ينتبه المتنبي لكلام عزوز.. لكن المهدي الذي كان حينها منهمكا في تصفح مواقع التواصل الإجتماعي أجابه قائلا:

- لعلك أخطأت العد يا عزوز ..

ففرك عزوز قفاه كالمعتاد، وبدأ العد مرة أخرى.. واستوى المتنبي في مكانه جالسا عندما عرضت النشرة تقريرا عن تفجيرات إرهابية استهدفت مدنا مختلفة من العالم.. قبل أن يقهقه ساخرا، ويستلقي مجددا وهو يعلق على الخبر متسائلا:

- من الأكثر غباء ياترى؟! أهم الذين يحاولون تشويه العرب بالطريقة نفسها في كل مرة؟!.. أم هم الذين يصدقون هذه الخدعة دائما؟!

أعجبني تساؤله الساخر حين وافق مضمونه قراءتي للأوضاع، ثم علقت عليه قائلا:

- أرى أنك ستصبح محللا سياسيا في وقت وجيز!.. لكن من المستهدَفون في نظرك؟ هل هم العرب خاصة؟ أم المسلمون قاطبة؟..

فأجاب دون أن يبعد أنظاره عن الشاشة التي بدأت في عرض مشاهد لمظاهرات تندد بالتفجيرات:

- لا أعتقد أن للأمر علاقة بالإسلام، فلو كان الأمر كذلك لتم استهداف أندونيسيا أكبرِ تجمع للمسلمين، وإنما يتعلق الأمر بما يملكه العرب من ثروات.. ولكي يستطيع المتربصون بهم استغلالها والسيطرة عليها؛ يحرصون على إضعافهم بضرب الروابط التي تجمعهم.. وعليه فإن تشويه الإسلام ليس غاية عندهم بقدرما هو وسيلة لتحقيق مآربهم..

فجأة صاح عزوز:

- لقد صدقتَ يا مهدي!.. المبلغ كامل لا ينقصه شيء..

فالتفتنا إليه جميعا.. وتعجبت من شأن الإله في مخلوقه الفريد عزوز، ثم عدت لمتابعة النشرة الإخبارية، وعقب المهدي على كلام المتنبي قائلا:

- ما عاد أحد يهتم.. سواء كان المستهدفون عربا أو غيرهم.. حتى العرب ما عادو يهتمون لبعضهم.. تقع الحروب والمجازر، فيخرس بعضنا بجبن، ويكتفي بعضنا الآخر بالخروج في مظاهرات، أو بتغيير صور البروفايل وكأنه تقليد سنوي.. وعندما يحل الليل؛ يرقد الجميع على أفرشتهم الوثيرة وكأن شيئا لم يقع..

تمعنت قليلا في تعقيب المهدي؛ وتبادرت إلى ذهني العديد من التساؤلات.. فقررت الاحتفاظ ببعضها، وطرحت بعضها الآخر على الرفاق:

- لماذا نظن دوما أن هناك من يتآمر علينا؟! هل هناك تآمر فعلا؟.. أم أنه مجرد امتداد لثقافة الخنوع والتنصل من المسؤوليات؟..!

ليعقب عزوز مستفسرا:

- هلا أوضحت لي تساؤلك الأخير؟

وأجيبه موضحا:

- أعني بثقافة التنصل أولئك الذين يخفون عجزهم وراء لوم الآخرين.. أولئك الذين يلومون المنبه على استغراقهم في النوم، ويلومون القطار والباص على وصولهم المتأخر، ويعللون سوء مزاجهم وتصرفاتهم بالطقس والمناخ، والأمثلة كثيرة..

قبل أن يجيب المتنبي قائلا:

- مما لا شك فيه أن هناك مؤامرة، وإذا قلنا أن لا أحد يتآمر علينا، فلماذا يحشر الغرب أنوفهم في سياساتنا وأمورنا؟... لطالما تآمر الأقوياء على الضعفاء عبر العصور..

ثم تساءل عزوز بصوته الرقيق مستغربا:

- لماذا يتآمر الناس؟! ما الذي يمنعهم من الاتفاق والعيش بسلام؟!.. لماذا يصرون على الحروب وهم يعلمون نتائجها الكارثية؟

فضحك المتنبي وأجابه قائلا:

- لو ساد السّلامُ لمله الناس بطبعهم الملول، ولصنعوا حروبا من أتفه الأسباب! ..

ثم التفت إلي وأردف طالبا:

- هلا غيرتَ هذه القناة؟!.. لقد سئمت أخبار التفجيرات والحروب! ..

فأخذت آلة التحكم من على الطاولة، وشرعت في تصفح القنوات والمهدي يعقب قائلا:

- أرباب الإعلام مخادعون يا متنبي؛ إنهم يملكون من الدجل والتزييف ما يُمَكِّنهم من تضخيم حادثة بسيطة إلى خطب جلل.. يحدُث تفجير وقصف في حدود مربع سكني واحد، فيوهمونك بأن البلد بأكمله قد هلك.. يكررون تلك المشاهد ليل نهار، ويجنون أرباحا من مآسي الآخرين، ثم يدفعونك إلى الغم رغما عنك، ويقحمونك في أحزان لست مجبرا على عيشها.. لو كان الأمر بيدي لقمت بإبادتهم واحدا واحدا! ..

فأصدر عزوز ضحكة خفيفة، وعقب على كلام المهدي بلهجة قاربت الاستفزاز:

- أرى أنك مازلت راغبا في السيطرة على العالم!.. أم تظن أنك المهدي المنتظر؟!

ثم أجاب المهدي وقد حول أنظاره عن الحاسوب إلى مخاطبِه:

- لا يتطلّب الأمر أن تكون المهدي المنتظر لكي تكون عادلا؛ العدل في متناول الجميع إن أرادوا ..

ورد عزوز مستغربا:

- أي عدل هذا الذي يقوم على قتل الآخرين؟!.. لا يصح درء الشر بشر آخر! ..

فابتسم المهدي، وعاد بأنظاره إلى شاشة الحاسوب وهو يجيب قائلا:

- قتل الأشرار لا يُعَدّ شرا، بل هو خير لحماية غيرهم.. إنه كاستئصال عشب فاسد، أو خلع ضرس مسوس..

سكت المهدي عن الكلام فجأة، ودفع برأسه نحو الشاشة محملقا وكأن شيئا ما أثار انتباهه.. ثم أخبرنا ومعالم الريبة تكسو محياه:

- لم يغادر يوسف تافراوت!.. إنه ما يزال في البلدة..!

لألتفت إليه متعجبا، وأسأله:

- وكيف علمت ذلك؟
- من خلال ميزة تحديد المواقع التي يضيفها تطبيق "الفايسبوك" إلى منشوراته، لقد نشر للتو منشورا على صفحته..
- لكنني كلمته على الهاتف قبل قليل، وأخبرني بأنه قد وصل إلى ورزازات! ..
- لعله يكذب..
- وما الذي سيدفعه إلى الكذب؟!

فهز المهدي كتفيه ورفع حاجبيه قائلا:

- لا أدري..

ثم أردف بنبرات ساخرة:

- اسمع ما كتبه الأحمق في منشوره؛ "إن تغيرت حياتك للأفضل؛ فاختلق أي عذر للابتعاد عن أصدقائك الفاشلين كيلا يجذبوك إلى القاع مرة أخرى".. وكأنه يقصدنا بكلامه يا أحمد..!

توقفت عن تصفح القنوات حين صادفت شريطا وثائقيا عن أسرى الحروب.. ثم أخذت الحاسوب من يد المهدي، وقرأت ما كتبه يوسف.. وعندما لاحظت أن التطبيق حدد مكانه في مركز مدينة تافراوت؛ أجبت المهدي وأنا ألتمس الأعذار ليوسف:

- لعل التطبيق أخطأ هذه المرة في تحديد موقعه؛ لا يخفى عليك أن نظام التموضع العالمي يواجه صعوبات في منطقة الجنوب، أحيانا أتصل من حاسوب في مدينة تافراوت، فيتم إظهاري متصلا من مدينة العيون..

فرمقني المهدي بنظرة ازدراء، ورد وهو ينقر على لوحة المفاتيح بانفعال كبير:

- وبماذا تفسر منشوره هذا الذي يوافق رحيله عنا؟!
- الله أعلم! فلتسأله إن كان متصلا..
- لقد فعلت، لكنه لم يجبني!.. إنه يرى رسائلي ولا يجيبني..!

في تلك اللحظة قام المتنبي من مكانه، وعبر عن سخريته مما يعرضه الشريط ضاحكا:

- لماذا يضرب هؤلاء الأسرى عن الطعام؟! لو أنهم أكلوا جيدا وخططوا للهروب والانتقام!..

ثم هم بمغادرة البهو، ومرر أصابعه على مقدمة شعره وهو يقول:

- إنني بحاجة إلى قراءة كتاب؛ سأذهب إلى المكتبة..

فانفلتت من عزوز ضحكة طفولية وهو يمد رزمة النقود إلى المتنبي مذكرا:

- لقد نسيت مالك يامتنبي، أرى أن حبك للكتاب قد أنساك مالك..!

ثم ابتسم المتنبي وأجاب قائلا:

- ألست من علمكم أن تقولوا؛ "وأعز مكان في الدنى سرج سابح.. وخير جليس في الزمان كتاب".. أما المال فهو مالنا جميعا، فابقه معك إلى أن نقرر ما نفعله به..

قبل أن يقهقه المهدي وهو يشير إلى شاشة الحاسوب متذمرا وساخرا في الآن نفسه:

- لقد اتضح أننا المقصودون مما كتبه يوسف؛ لقد كتب لتوه منشورا آخر فيه "وإن عزمت على النجاح، فتجاهل كلام الفاشلين ولا تردن عليهم السلام".. هذا الوغد يقصدني!.. لا أفهم ما الذي دهاه! لطالما عاملته بإحسان! لكنني لن أسكت له! سوف أرد عليه..

لينهاه المتنبي عن ذلك، وينصحه وهو على وشك الخروج من البهو :

- لا تفعل يامهدي؛ التلميحات والرسائل المبطنة يكتبها عديمو العقول، الذين يناقشون التفاهات ويصرفون أوقاتهم وكتاباتهم في انتقاد الآخرين والتعجب من أفعالهم، فلا تكن منهم.. ولا تكن أيضا من صغار العقول الذين لا يتعبون من مناقشة أحداث السياسة والرياضة وانتقاد الأوضاع دون تقديم بدائل وحلول..

ثم ندت عن عزوز آهة طويلة.. وقال:

- وما الذي يفعله كبار العقول في نظرك؟!

فرد المتنبي:

- كبار العقول لا يكترثون لما حولهم، ولا يعكرون صفو يومهم بأي شيء من المتغيرات، إنهم يطورون ذواتهم بعيدا عن الضجيج ..

ثم دلف المتنبي إلى المكتبة.. وشرعت في تصفح القنوات مرة أخرى وأنا أكلم المهدي الذي حز منشور يوسف في نفسه:

- لقد صدق المتنبي.. الرسائل المشفرة لا يكتبها إلا الضعفاء، أولئك الذين لا يتشجعون إلا من وراء حجاب.. فلتتجاهل يوسف إن استطعت، وإن لم تستطع فعليك بالتدخل المباشر؛ هكذا يتصرف الشجعان الأقوياء..

فتهلل وجه المهدي، ثم لاح المكر من عينيه وهو يقول:

- فليكن تدخلا مباشرا إذن..

***

حل الليل على بلدتي وأرخى بظلامه على جبالها؛ فازينت فجاجها بأضواء بيوتها، مثلما ازينت سماؤها بأنوار النجوم.. وهبت علينا نسائم الخزامى والريحان ونحن جلوس في سطح البيت؛ لتنتعش نفوسنا على اختلاف أذواقها وهمومها، ويتخلص أنفي من رائحة السمك الذي تناولناه على وجبة العشاء.. بيد أن هذه الأجواء التي تدعو الإنسان إلى الاسترخاء والتأمل في بديع الملكوت، لم تمنعني من الانشغال بالتفكير فيما عرفته قناعاتي مؤخرا من تقلبات.. فالاحتكاك بالمتنبي وما رافقه من أحداث وقتها؛ جعلني أشبه بقِدْرٍ كبير تُقَلّب فيه الأفكار والمفاهيم باستمرار.. صحيح أنه لم يفجر ينابيع الإبداع بداخلي كما فعل مع عزوز، وصحيح أنه لم يذكي من رغبتي في البطولة والمغامرات كما فعل بالمهدي، إلا أنه نجح

في صرف اهتمامي عن عالم السيمياء والروحانيات، ونجح في إخراجي من السكون النفسي والفكري الذي لطالما نعمت به.. لأشرع في سؤال نفسي ومحاورتها من جديد؛ لم لا تختار لنفسك هدفا كالآخرين يا أحمد؟.. ثم ما الهدف الذي يستحق أن تناضل من أجله؟!.. إن كان الخالق قد قدر أقدارك سلفا، فلماذا تتعب نفسك في النضال؟!.. ألم يقل الله في حديثه القدسي "عبدي أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد"؟! أليس من الحكمة أن تُريحَ نفسك فيما تتكلف تدابير القدير بكل شيء؟.. لكن الله أمرنا بالعمل وأكد أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم! أوليس هذا بدليل قاطع على قدرتنا في التحكم بالأقدار وتغييرها؟! لكنه قال أيضا "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله"! أليست هذه الآية دليلا على أن مشيئة الله هي التي تحدد أهدافنا؟!.. إذن فالأمر راجع إليه قبل كل شيء، ولو أنه أرادك أن تتخذ هدفا في هذه الحياة لخلق فيك رغبة تحقيقه، ألا تتفق معي؟.. تبعثرت أوراقي مرة أخرى، وعجزت عن إيجاد بر أرسي فيه سفينة أفكاري.. وبعد تأمل عميق، توصلت إلى خلاصة مفادها أن لا أرهق نفسي بالتفكير حين يكون قلبي خاليا من الاهتمام؛ ثم توقفت عن التفكير وشغلت نفسي بمراقبة الرفاق..

في تلك الأثناء، كان عزوز منبطحا تحت السراج المعلق على سور السطح، منشغلا بكتابة ما تجود به قريحته من أفكار.. وإلى جواره جلس المتنبي مستندا إلى السور، وفي يده ديوان لأحد الشعراء المعاصرين.. في حين انعزل المهدي في ركن بعيد عن نور السراج، منشغلا بالحاسوب لا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا.. شعرت برغبة في الانشغال بشيء ما أسوة بالأصحاب، وفي تلك اللحظة التي هممت فيها بالذهاب إلى المكتبة وجلب كتاب منها، انفجر المتنبي ضاحكا وهو يضرب بكفه على فخده.. ثم قال:

- لقد طفح الكيل!.. فلتستمعوا إلى ما يقوله هذا الذي يسمي نفسه شاعرا؛ "في حلك ليالي الشتاء.. تنزل النجوم.. وتدخن على سطح منزلي الحنون.. يقرعون الكؤوس تارة.. وتارة أخرى يدخنون الحشيش.. يأتي قرد الجيران ويطل فأر من بين الشقوق.. يتحلقان مع النجوم ويدخنون آمال المستضعفين.. تمطر السماء فتخبو النجوم.. ويطير القرد وصديقه الفأر إلى السماء.. ليصبحوا نجوم.."... أي شعر هذا؟! وأي شاعر هذا؟! لو سمعه عنترة لضرب عنقه، إني لأعجب من الذين يسمحون بطباعة هذا الهراء ونشره بين الناس! ..

حينها انتفض عزوز من مكانه، ووقف جاحضا عينيه فاغرا فاه، مصدوما مما سمعه.. قبل أن يرد على المتنبي بنبرة يغلب عليها التوتر والارتعاش:

- كيف تقول هذا يا متنبي؟! إنها قصيدة من قصائد الدكتور "الفطاسي بلمختاري" أحد أكبر فحول الشعر الحر، لا يجوز لك الانتقاص من شعره! ..

فأمسك المتنبي بجبهته مطرقا رأسه وقد ازدادت قوة ضحكاته، قبل أن يكف عن الضحك بصعوبة، ويجيب وهو يحدج إلى عزوز بنظرة إشفاق:

- ما دام يقول كلاما لا تفهمه القلوب ولا تقبله العقول؛ فلن أقيم له وزنا ولن أعتبره شاعرا حتى، ناهيك عن اعتباره شاعرا فحلا ..

ثم أسند رأسه على الحائط ناظرا إلى السماء، وشرع يضحك مرة أخرى وهو يقول:

- هل تعلم كيف تغلغلت التفاهة في المجتمع؟.. يتفوه أحدهم بالترهات، فيصفق له الجهلاء بحرارة، ثم ينشرون خزعبلاته بين

الناس.. وبعد سنوات، ينشأ قوم ليصنعوا من هذه الترهات أطروحات للدكتوراه ورسالات للماجيستير ..

عندئذ فرك عزوز قفاه، وانبطح عند دفتره من جديد دون أن ينبس ببنت شفة، ثم عاد إلى الكتابة وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا دلالة على اعتراضه.. قبل أن أبتسم لحركته تلك وأتدخل قائلا:

- القصيدة الذي انتقدتها تندرج ضمن الشعر الحر.. ما يعني أن الشاعر يعتمد في التصوير على الرمز والأسطورة بدلا من الأساليب البلاغية القديمة، ولعل هذا ما جعل القصيدة غامضة ومبهمة.. أعترف أن ميدان الشعر الحر ميدان يسهل التطفل عليه، لكنه بالمقابل عرف شعراء كبارا لا يمكن إنكار شاعريتهم، مثل السياب والقباني ودرويش وآخرين.. ما أود قوله، أن عدم فهمك للقصيدة لا يسوغ لك الانتقاص من قدرها! ..

ليرد المتنبي بنبرة صارمة:

- الشاعر العبقري هو الذي يبسط المعقد لكي يلمس به أكبر قدر من العقول، وليس الذي يقول للقارئ حاول أن تفهم ما أقول..

كنت أعلم أن المتنبي شخص بارع في الجدال، وأنه سرعان ما سيجد لنفسه حججا للدفاع عن موقفه كما يفعل في كل مرة؛ لذلك آثرت ألا أتجشم عناء النقاش، وفضلت أن أكمل طريقي إلى المكتبة ما دامت الرغبة في القراءة مشتعلة في دواخلي.. لكن حدث أن هتف المهدي لحظتها بما قلب معالم الجلسة برمتها:

- لن تصدقوا ما يجري!.. إن يوسف والشريف يخططان لاستخراج كنز!

توقفت عن السير.. والتفَتُّ إليه وأنا أحاول استيعاب ما تفوه به لتوه، ثم شرعت أحدق إليه إلى أن قام من مكانه وهرول في سرواله الفضفاض حاملا الحاسوب إلى حيث يجلس المتنبي وعزوز، قبل أن يضعه على السجاد، ويدير شاشته إلى الرفاق وهو يقول:

- لقد اخترقت حساب "الفايسبوك" الخاص بيوسف، ولقد اطلعت على مادار بينه وبين الشريف من رسائل، فلتتأكدوا من كلامي بأنفسكم!

تحلق الجميع حول الحاسوب في فضول، وامتنعت عن توبيخ المهدي حين شعرت بأنني لن أكون صادقا في ذلك؛ خاصة وأنني رأيت في فعلته تلك جزاء ليوسف على كذبه.. فجلست إلى جانب الرفاق، وانخرطت معهم في الإنصات إلى المهدي الذي كان يقول بلكنة تملؤها الحماسة والفخر:

- أنتم لا تعلمون كم كلفني اختراق حساب يوسف.. لقد تنقلت بين المدونات المعلوماتية لثلاث ساعات بحثا عن برنامج يمكنني من اختراق بريده الإلكتروني، وبعدما وجدته، استغرقت ساعة أخرى بحثا عن الشيفرة التي تقوم بتفعيله، وحين اهتديت إليها بعد مجهود جبار؛ نجحت في التسلل إلى...

فقاطعه المتنبي وقدت أبدت ملامحه تذمرا طفيفا من ثرثرة المهدي:

- لو أنك دخلت في صلب الموضوع، ووفرت علي عناء الإنصات لأشياء لا أفهمها!

زفر المهدي، وسكت على مضض.. لكنه سرعان ما ابتسم مجددا وقال :

- إن الطريقة التي غادر بها يوسف جعلتني أستغرب أمره، سيما وأنني لم أقتنع بالعذر الذي برر به رحيله.. وعندما كتب ذلك المنشور على صفحته؛ ازدادت شكوكي وتولد لدي حدس يخبرني

أن يوسف مقبل على أمر من شأنه أن يغير حياته للأفضل، خصوصا وأن منشوره ربط ابتعاده عنا بازدهار حياته.. ومع ذلك، فضلت أن أتجاهل شكوكي وألا أكترث لأمر لا يخصني، إلا أن امتناع يوسف عن إجابتي واستفزازه لي في منشوره الثاني؛ دفعني إلى اختراق حسابه أملا في إيجاد تفسير لما يحدث له.. وهكذا دخلت إلى علبة محادثاته باحثا عن أي كلمة أو إشارة قد تفسر سر سلوكه الغريب، إلى أن وقعت عيناي إلى محادثة له مع الشريف.. لا أنكر أنني استغربت في بادئ الأمر أن يكون هناك تواصل بين هذين الإثنين، لكنني عندما قرأت المحادثة فهمت كل شيء.. لقد كان الشريف بحاجة إلى شخص زهري لاستخراج كنز، ولأنه يعلم بأن يوسف زهري؛ قام بالبحث عنه بين أصدقائك على "الفايسبوك" يا أحمد، ثم أرسل له رسالة يخبره فيها أنه بحاجة إليه لاستخراج كنز ثمين، وبأنه سيجعل له نصيبا من الكنز إن هو قبل بالمهمة؛ شريطة أن يكتم الأمر، وأن لايخبرنا به.. فرد عليه يوسف برسالة يخبره فيها بأنه موافق على المهمة.. ثم أجابه الشريف برسالة ثانية ينصحه فيها بضرورة الابتعاد عنا، والنزول في أحد فنادق البلدة ريثما يصل الموعد المحدد للعملية.. فأجابه يوسف بالموافقة، وسأله عن الزمان والمكان المحددين للعملية.. فرد عليه الشريف برسالة أخيرة تطلب منه الحرص على القدوم إلى المقبرة التي تقع خلف قبعة نابوليون يوم الخميس القادم على الساعة الحادية عشر ليلا ..

عندئذ ضحك عزوز حتى كاد يهوي برأسه على الحاسوب، ثم اعتدل وجلس القرفصاء وهو يقول:

- أضحك الله سنك يا مهدي، لولا قبعة نابوليون لظننت أن نكتتك هذه قصة حقيقية!..

فحدجت إلى الأبله بنظرة استظراف، ثم أخبرته بما يجهله قائلا:

- كلا يا عزوز.. إن قبعة نابوليون تطلق على تكتل صخري يبعد عنا بخمس كيلومترات..

ثم التفت عزوز إلى المهدي الذي كان يرمقه بازدراء وقال له:

- اعذرني على سوء فهمي يا صديق..

ليعرض عنه المهدي متجاهلا، ويخبرنا عما يجول في خاطره:

- إن يوسف ليعلم جيدا بأن المنقبين عن الكنوز قد يقتلون شخصا زهريا مثله إن طلب الجني الحارس للكنز ذلك، فلماذا يعرض حياته للخطر؟!

فأجبته متكهنا:

- لعل الطمع أعماه، أو لعله وثق بالشريف، خاصة وأن هذا الأخير لا يبدو شريرا.. لكن أمره له بالابتعاد عنا والنزول في فندق أمر يبعث على الريبة والشك! صراحة، ما عدت أثق به ! ..

وأضاف المتنبي قائلا:

- أو لعل يوسف أدرك الحقيقة التي يجهلها الكثيرون..!

فنظرنا إليه بفضول.. وسألته مستوضحا:

- أي حقيقة هذه يا متنبي؟!

ثم أجاب وعلى شفته ابتسامة:

- إن المنقبين عن الكنوز لا يريقون دماء الزهريين ولا يقتلونهم كقرابين للجن كما يشاع بين الناس؛ وإنما يستخدمونهم كوسطاء للتواصل مع الجن المسؤولين عن حراسة الكنز، فقط لا غير..

فقال المهدي معترضا:

- لا أتفق معك.. وإن كان ما تقوله صحيحا فبماذا تفسر الاختفاء المتكرر للأطفال الزهريين؟! وبماذا تفسر بقايا جثثهم التي يعثر عليها ذووهم أحيانا؟!

قبل أن تتحول ابتسامة المتنبي إلى ضحكة خفيفة، ويرد عليه بنبرة الواثقين:

- إن عصابات الاتجار بالأعضاء هي التي تقوم باختطاف الأطفال وقتلهم قصد انتزاع أعضائهم وبيعها، وغالبا ما يستهدفون الزهريين لتضليل مجرى العدالة والناس، ولكي يظن أهل الضحايا جهلا أن المنقبين هم من قاموا بالاختطاف..

أنصتت إلى ما قاله المتنبي باستغراب ودهشة، خصوصا وأنها المرة الأولى التي يلفت فيها أحد انتباهي إلى إمكانية تورط تجار الأعضاء فيما يقع من اختطافات للأطفال الزهريين، ومع أنه بدا احتمالا منطقيا أكثر من الذي يصدقه جل الناس، إلا أنني فضلت اعتباره مجرد فرضية لا أكثر.. ثم سألت المتنبي قائلا:

- ومن أخبرك بهذه الحقيقة؟! أهم أصدقائك القرناء؟

فأجاب قائلا:

- صحيح أن كوني قرينا يمكنني من الاستعلام عما يغيب عنكم من الأخبار، لكن الاستخبار وحده لا يكفي.. على الفرد أن يقرأ كثيرا،

وعليه أن يميز ما يقرأه، ويغوص في جميع التفاصيل ويحللها مستحضرا جميع الاحتمالات ومقارنا بينها؛ إلى أن يتوصل إلى أكثر النتائج تناسبا مع المنطق.. آفة معظم الناس أنهم لا يتمتعون بفكر ناقد، يكتفون بحفظ ما يكرره عليهم كبارهم، ليقوموا باجترار بعد ذلك وتعليمه لصغارهم..

ثم أمسك المتنبي عن الكلام، وراح يفكر شاردا لعدة دقائق.. قبل أن تتهلل أساريره، ويستأنف مفصحا عما دار في خلده:

- لقد ساق لنا القدر صيدا ثمينا! ..

ليقطع عزوز سيل التثاؤبات الذي اعتراه في تلك اللحظة، ويستفسر بصوت يغلب عليه النعاس:

- عن أي صيد تتكلم يا متنبي؟!

فأجابه المهدي متهكما:

- إنه يقصد الكنز الذي سيستخرجه الشريف يا عديم الفهم..! ..

ثم حدج عزوز إلى المتنبي بعينيه الناعستين مستغربا، وتساءلَ مرة أخرى:

- وما علاقتنا بما سيستخرجه الشريف؟!

حينها تأففَ المهدي وهو يشيح بوجهه بعيدا عن عزوز:

- أفٍّ لك يا عزوز أف! لو كان الغباء إنسانا يمشي على الأرض لكان اسمه عزوز!..

فضحك المتنبي.. وشرع في شرح فكرته قائلا:

- سنراقب الشريف ومن معه إلى أن يقوموا باستخراج الكنز؛ ثم ننقض عليهم ونأخذه منهم..

عندئذ انفجرت ضاحكا، وعجزت عن تمالك نفسي حين رأيت في رفاقي عصابة من المجانين الحالمين.. أذكر أنني ضحكت كثيرا وأنا أمرر أنظاري على أحجامهم المتباينة، إلى أن تنحنح المتنبي وسألني متعجبا:

- ما المضحك في كلامي يا أحمد؟!

توقفت عن الضحك بصعوبة، وأجبته قائلا:

- أنت تريد أن تسرق كنزا من أشخاص تعبوا وكدوا في استخراجه!.. أيبدو لك هذا التصرف منطقيا؟!.. وإن فرضنا أنه منطقي، أتظن أن اغتصاب كنزهم أمر سهل؟

فتبسم المتنبي، وقال وهو يفرك لحيته:

- يجب علي أن أضعك في سياق الأحداث لكي تستوعب الأمر يا فتى.
- تفضل يا متنبي، هات ما عندك!
- في الماضي لم تكن البنوك والخزائن المنيعة متوفرة للناس كما هو الحال في زماننا هذا، وحرصا منهم على حفظ أموالهم من الناهبين والعابثين؛ كانوا يضعونها في صناديق وقدور ويدفنونها دون إخبار أحد بوجودها، وكانوا يضعون لأماكنها إشارات وعلامات لكي لا تضيع عليهم.. ولأن الموت غدار؛ فإن العديد من هؤلاء يفارقون الحياة دون أن يتسنى لهم الإفصاح لأقربائهم عن أمرها أو إخبارهم عن مكانها؛ لتموت هذه الكنوز ويدفن سرها بموت أصحابها.. وبعد أن يمر زمن طويل دون أن يسأل أحد عن الكنز؛ يقوم الجني برصده، ويستولي عليه حالما يتأكد من انعدام مالك له.. وعليه، فما سيقوم به الشريف لاستخراج الكنز المدفون أحد أمرين؛ أن يغتصب الكنز من الجن بقوة رقيته، أو أن يتفاوض معهم عن طريق

شخص زهري مقدما خدمات كفرية شركية لقاء حصوله على الكنز، وإن استدعاءه ليوسف أدل دليل على رغبته في التفاوض..

- تقصد أنه سيلجأ إلى الشرك والعياذ بالله؟!
- أجل.
- مممم.. بالرغم من ذلك، لا يحق لنا الاستيلاء على كنزهم.
- اسمع يا أحمد، عدا عن أحفاد دافني الكنز، لا الجن ولا الشريف من حقهم امتلاكه؛ الشيء الذي يجعله صيدا من حق الجميع التنافس عليه..

سكتت وأنا أمعن التفكير فيما قاله المتنبي، وقبل أن يتسنى لي الخروج بموقف نزيه مما احتج به، عقب المهدي متحمسا:

- إنني أتفق مع المتنبي في كل كلمة قالها؛ الناس أولى بدفائن الناس من الجن، ومادام الكنز مدفونا فإن لنا حظوظا لا تقل عن حظوظ الشريف..

حينها تعجبت مما يفعله المال بالمهدي، وقلت له دون أبدي ازدرائي للمنطق التي برر به طمعه:

- يا مهدي، لن يحق لك الكنز إلا إذا كنت أول من يعثر عليه؟

فرد وعلى شفاهه ابتسامة خبيثة:

- لا تقلق يا أحمد؛ سنحصل على الكنز دون أن نسرقه، ودون أن نبذل جهدا في الحفر.. وإلى أن يحين الموعد الذي حدده الشريف لاستخراج الكنز، سنكون قد وضعنا خطة محكمة للظفر به..

***

بعد مرور ثلاثة أيام.. وقبل ساعة ونصف من الموعد الذي ضربه الشريف ليوسف، كنا نحن الأربعة في طريقنا إلى المقبرة التي حددوها مكانا للقائهم..

كانت ليلة باردة على غير ما اعتادت عليه ليالي الصيف أن تكون، وكان الطريق الذي سلكناه مظلما إلا مما يصدر عن نور القمر لينعكس على الجبال المحيطة ويمد جوف السيارة بإضاءة خافتة.. ومع أنها كانت خافتة، إلا أنها مكنتني من تمييز ابتسامة المهدي كلما انعكس وجهه على المرآة.. لم يكن تبسمه أثناء القيادة بالأمر الجديد؛ فلطالما عشِق السيارات ومحركاتها، ولطالما سارع إلى قيادتها وتقييمها.. والحق أن شغفه بالقيادة لم يكن السبب الوحيد لابتساماته المتكررة وقتها، بل صاحبَهُ تقديره لذاته على ما أنجزه من أعمال في سبيل تنفيذ خطته؛ لقد افتتح اليومين الماضيين بالانعزال والتفكير، ثم نقل أفكاره إلى الأوراق على شكل رسومات وتعابير.. قبل أن يقوم بجولة تفقدية إلى المقبرة لدراسة محيطها، ويستأجر هذه السيارة التي تشبه سيارات الدرك بعد أن فتش لساعات وساعات قبل انتقائها.. فكان من الطبيعي أن يفرح بالتقدم الذي تحرزه خطته ويبتسم متفائلا بنجاحها.. لكن الغريب في الأمر، أنه رفض الإفصاح عن الشق الأخير منها، وقرر الاحتفاظ به إلى أن تحين اللحظة المناسبة ليطلعنا عليه.. وعلى الرغم من استبداده ذاك، استطاع الحصول على تأييد المتنبي أولا، وعلى إعجاب عزوز بعد ذلك.. علما بأن هذا الأخير لم يكن راضيا عن العملية من أساسها، وأنه قرر حضور أطوارها فقط من أجل تدوين أحداثها التي رأى أنها تصلح أن تُذكرَ في رواية من رواياته المستقبلية.. أما أنا، وإلى جانب قناعتي بحرمة اغتصاب الدفائن من الآخرين، كنت على يقين من عجز المهدي عن مواجهة الشريف وسلبه الكنز، وكنت أتوقع الفشل الذريع مصيرا

لعمليتهم التافهة.. بيد أن ذلك لم يمنعني من مرافقتهم إليها والاستمتاع بكل تفصيل من تفاصيلها؛ فلقد أردت أن أكون شاهدا على فشلهم، وأن يعلموا بأنني لا أرمي الآخرين بالتفاهة ظلما..

بعد ربع ساعة من المسير، لاحت لنا قبعة نابوليون من بعيد، وطفق عزوز الذي كان يجلس عن يساري بالتحديق إلى التكتل الصخري الذي تسربل بضوء القمر بإعجاب، قبل أن يقوم على مقعده، ويخرج رأسه من نافذة السقف وهو يسأل بلكنة يخنقها تيار الهواء:

- أهذه هي الصخور التي يطلقون عليها "قبعة نابوليون"؟!

فأجبته وأنا أتفادى أن تطأني قدماه:

- أجل إنها هي.. فلتعد إلى مقعدك !..

وبدلا من أن يستجيب لي ويعود إلى مكانه، أخرج جذعه كاملا.. ثم جلس على حافة النافذة وصاح منبهرا:

- واااو!.. هذا التجمع الصخري أشبه بصبية عملاقة ترتدي تنورة واسعة!.. إنها صبية تجلس تحت ضوء القمر وتحرس ليل القرية النائمة! ..

فالتفت إليه المهدي ضاحكا:

- خيالك واسع!.. لعله ما يجعلك مبتسما طيلة الوقت يا مجنون..!

وعلق المتنبي الذي كان يجلس عن يمينه قائلا:

- البعض يراها كقبعة نابوليون، وعزوز يراها صبية صغيرة، وأنا أراها أقرب شبها من الآنية التي تسمونها "الطاجين ".

فقهقه المهدي.. وصرخ عزوز فجأة:

- آااه عيني..

وعاد إلى مقعده وهو يفرك عينه قائلا:

- لقد دخلت حشرة في عيني..!

لأقول له ممازحا:

- هذا لكيلا تخرج رأسك من السقف مرة أخرى..

ثم أخرج الحشرة من عينه.. وأخذ يقلبها بين يديه متأسفا:

- لقد لقيت الذبابة المسكينة حتفها؛ سيقيم عليها أهلها مأتما وعويلا !..

فسحقها بأصابعه.. وعاد إلى التحديق إلى الصخور وهو يقول:

- مازلت لا أصدق أن يوسف قام بخداعنا ! ..

ليعقب المهدي على كلامه وهو ينحرف بالسيارة إلى سفح التكتل الصخري:

- لقد أتعب نفسه في التمثيل بلا فائدة؛ تظاهر بالغضب من المتنبي، ثم أقام سجالا نقديا زائفا، ليقوم الله بفضحه في النهاية!.. أما الشريف فمصيبته أعظم، يدعو الناس إلى التقوى ولا يتقي!.. لقد تعملت من هؤلاء ألا أثق بأحد بعد اليوم! ..

فأنشد المتنبي قائلا:

- *ولما صار ود الناس خبا*
  جزيت على ابتسام بابتسام
  وصرت أشك فيمن أصطفيه
  لعلمي أنه بعض الأنام

ليعلق عزوز على البيتين قائلا:

- للأسف؛ إنها الحقيقة المرة!

قبل أن يضم ساقيه ويجلس القرفصاء وهو يقول مبتسما:

- بالأمس نظمت شعرا في حق يوسف ..

فالتفت إليه المتنبي قائلا:

- جميل! لم أكن أعلم أن لك اهتماما بالشعر؛ حسبتك كاتبا فقط.. فلتسمعنا نظمك..

فأطرق عزوز رأسه مغمغما، وأخذ يفرك جبينه مترددا.. ثم قال:

- إنه هجاء من بيتين.. لكنه لا يعني أنني أكن حقدا ليوسف، لقد نظمته لأختبر مهارتي في الهجاء..

وعندما لاحظت أنه لا يجرؤ على الإنشاد؛ قلت له مشجعا:

- هيا يا عزوز لا تخجل، لن نأخذ هجاءك له بعين الاعتبار؛ فجل الشعراء يقولون ما لا يفعلون..

فابتسم على مضض.. ثم رفع يديه منشدا بصوته المبحوح:

- *عديد الوجوه لا وفاء له*

خسيس والخساسة داؤه

فلا ضمير له يرجو بقاءه

ولا وجه له يحفظ ماءه

فصفر المهدي وكبّر إعجابا.. وتفاعل المتنبي معلقا:

- لا فض فوك يا عزوز.. إنك لموهوب!..

لتنشرح ملامح عزوز، ويضع يده على صدره ممتنا وهو يقول:

- هذا من كرمكم سادتي!

ويقول له المتنبي ناصحا:

- عليك بحفظ المعلقات فإنها أجود الشعر، واحفظ لك من أشعار جرير وأبي نواس وأبي تمام.. سيساعدك ذلك في ضبط الأوزان، وتعلم الألفاظ، وإتقان الصياغة...

وبعد أن صرنا على بعد أمتار قليلة من قبعة نابوليون، ركن المهدي السيارة وأطفأ أنوارها، لنترجل منها ويسلك بنا طريقا وعرا يخترق صخورها ..

كنا نسير الواحد تلو الآخر بحذر شديد، نتسلق أحيانا، ونهبط أحيانا، ونقفز في أحايين أخرى.. وبالرغم من المجهود الذي كنا نبذله، والاحتياط الذي كنا عليه خوفا من الانزلاق نحو الهاوية، كان عزوز لا يتردد في قطف كل نبتة يصادفها في طريقه، وكان لا يجد حرجا في استفساري عن كل شجرة وحجرة تقع عيناه عليها.. فكنت أحيانا أجيبه بما أملكه من علم مسبق، وأحيانا أخرى أتجاهله مستمتعا بنسائم الليل المنعشة، وبلحن الصراصير التي تخترق السكون.. أما المتنبي فلم ينطق بكلمة طوال الطريق، وظل مجدا في الاقتداء بخطوات المهدي دون أدنى انحراف، إلى أن وصل بنا المسير إلى صخرة مستطيلة تشرف على القرية المجاورة.. لنتوقف عند حافتها، ويخبرنا المهدي وهو يشير إلى منازل القرية التي بدت صغيرة كلعب الأطفال:

- إن هذه القرية تبدو قريبة جدا من هذا الارتفاع، لكنها تبعد عنا بثلاث كيلومترات.. وإن أمعنتم النظر جيدا فستلاحظون ذلك السور المستطيل الطويل الذي يقع في شرقها وينتهي عند سفح الجبل المقابل، تلك هي المقبرة التي سيلتقي فيها الشريف بيوسف..

فوضع عزوز يده على ذقنه، وشرع يفرك لحيته وهو ينظر إلى المقبرة التي تتخللها مئات الأشجار والآلاف من القبور.. ثم أشار إليها بيده قائلا:

- سلام عليكم يا أهل الآخرة، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.. سلام عليكم من أبي سلمان وأصدقائه المخلصين..

فحدجته بنظرات استغراب.. وسألته:

- من أبو سلمان هذا؟! ومن هم أصدقاؤه المخلصون؟!

فرد مبتسما وهو يشير إلى نفسه بكلتا يديه:

- أبو سلمان هو أنا..

ثم أشار إلينا وأردف قائلا:

- والأصدقاء المخلصون هم أنتم، إنكم...

فقاطعه المهدي كما دأب أن يفعل كلما مال كلام المجنون إلى التخريف:

- لا أظن أنه الوقت المناسب لترهاتك يا عزوز! فأمامنا عمل لنقوم به ..

ثم رفع سترته وأخرج من تحت حزامه كيسا أبيضا، وشرع في إخراج محتوياته وتوزيعها:

- هذه أربعة أزواج من القفازات، سنرتديها احتياطا من ترك أي بصمات.. وهذان قناعان، واحد لك يامتنبي وواحد لك يا أحمد.. وهذا مصباح من أجل...

فانفعلت وقاطعت كلامه بلهجة شديدة:

- ومن طلب منك إشراكي في هرائك هذا!.. لقد سبق وأخبرتك بأنني لن أسرق شيئا! ..

قطب المهدي حاجبيه ورمقني بنظرة استخفاف وهو يمد لي المصباح.. ثم تبسم متكلفا وهو يقول:

- على رسلك يا صاح، لم يطلب منك أحد أن تسرق!.. كل ما عليك فعله هو ارتداء هذا القناع أسوة بالمتنبي والتسلل معه إلى المقبرة.. سأبقى هنا بمعية عزوز، وستنتظران قدوم الشريف وستراقبانه.. وبمجرد استخراجه للكنز، سوف تعطينا إشارة بضوء المصباح؛ عندئذ سنهب أنا وعزوز لإتمام الأمر..

فانكفأ وجه عزوز، وتراجع خطوة إلى الخلف.. ثم ألقى بالقفاز على الأرض معترضا على الخطة:

- لا!.. لن أهجم على أحد، سأكتفي بالمراقبة مع المتنبي وأحمد، وإلا فسأعود إلى البيت غير مأزور ولا مأجور! ..

فحدجه المهدي بنظرة شزراء، ثم جذبه من ياقة قميصه وقد فقد السيطرة على نفسه:

- اسمع يا هذا!.. إنني لا أوزع المهام عبثا؛ ما نملكه من إمكانيات لا يسمح بأي تعديل على خطتي.. لقد استأجرت هذه السيارة لأنها النوع الذي يستعمله رجال الدرك، ولقد استغرقت ساعات من البحث في سوق الخرذة قبل أن أتمكن من إيجاد الفانوس الدوار الذي يضعونه عليها، ناهيك عن الساعتين التي أمضيتها في تزويدها بصفارات إنذار كالتي يستخدمونها، والوقت الطويل الذي أنفقته في سوق الملابس المستعملة قبل أن أعثر على بزتين من التي يرتدونها.. لقد شاء القدر أن تكون إحداها على مقاسي،

والأخرى أصغر مقاسا برقمين.. ولأنك ضئيل؛ فهذا يعني أنك الوحيد الذي ستناسبه بيننا..

وجمت للحظات مترددا في تصديق ما يقوله المهدي.. لم أتوقع أن يكون ذا جرأة على تقليد ما تعرضه أفلام الحركة والجريمة، ولم يخطر ببالي أن يصل به المطاف إلى اللعب بالنار والتنكر في زي الدرك الملكي.. هممت بتوبيخه وزجره لعله يرجع عن نواياه، بيد أن معرفتي بطبعه العنيد وفضولي للإلمام ببقية التفاصيل حالا دون ذلك.. فالتزمت الصمت منصتا، فيما حول يده عن ياقة عزوز ليربت على كتفه مستدركا وقد مالت لهجته إلى الاعتدال:

- لهذا السبب اخترتك لننتحل معا صفة الدرك يا عزوز، ولو كانت البزة مناسبة للمتنبي لما طلبت منك ذلك ولأمكنك أن تكتفي بالمراقبة مع أحمد.. لكن لا تقلق، سوف تظل في السيارة ولن تخرج منها.. كل ما أحتاجه منك، أن تظهر بزي الدرك، فقط لا غير..

فأطرق عزوز للحظة مستسلما للحيرة.. ثم انحنى وانتشل القفازات من على الأرض، قبل أن يسلمها للمهدي معتذرا:

- اعذرني يا صاح.. لا أستطيع حرمان شخص عالجني من كنزه، من غير المعقول أن أرد الإحسان بالإساءة! ..

حينها خرج المتنبي عن صمته، وأنشد قائلا:

- *يرى الجبناء أن العجز عقل*
  وتلك خديعة الطبع اللئيم
  وكل شجاعةٍ في المرء تغني
  ولا مثلُ الشجاعة في الحكيم
  وكم من عائبٍ قولا صحيحا

وآفته من الفهم السقيم

ثم تابع قائلا:

- لا علاقة لعلاجك بأمرنا هذا أيها الجبان المغفل، ولو كان الشريف مكانك لما تردد لحظة واحدة.. أضف إلى ذلك أن حصولك على الكنز وبيعه سيمكنك من الإحسان إلى الآلاف من الناس، أما وأنت فقير معدم فلن تستطيع الإحسان إلى أحد، ولا إلى نفسك حتى.. بل على العكس من ذلك، قد ينتهي بك المطاف أسيرا لشفقة الآخرين وإحسانهم يا عزوز! ..

احمَرّت وجنتا عزوز غضبا، وراح يعصر قبضته وهو يرد على المتنبي قائلا:

- أنا لست جبانا! ..

ليضحك المتنبي، ويشرع في ارتداء القناع القطني الأسود مرددا:

- بلى يا عزوز أنت جبان.. أنت جبان..

فانفعل عزوز ونزع القفازات من يد المهدي.. ثم أنشد مدافعا عن نفسه:

- *وما أنا للأخيار إلا حمارٌ يمتطونه*

وإن كنت على الأشرار شفرة مقصلِ

دمائي للطيبين إحسانٌ مُحَبّبٌ

ولحوم المعتدين زادي ومأكلي

ليصيح المهدي منبهرا.. ويقول وآمارات الاستبشار تتلألأ على محياه:

- مرحى يا شاعرا! .. بما أنك شفرة مقصلة على الأشرار، فهذا يعني أنك مجبر على مساعدتنا في أخذ الكنز، ستكون صدمة من شأنها أن تدفع الشريف إلى التوبة من أعمال الشعوذة.. ما رأيك؟

ابتسمت ساخرا من مكر المهدي الذي لا يتورع عن تقييم الناس وفقا لمصالحه.. وكنت سأُذَكّره برغبته في تعلم السيمياء التي تبخرت بامتناع الشريف، لولا أنه غمز لي طالبا أن لا أفسد خطته.. فسكتت عن ذلك، وأجاب عزوز بموافقة مبدئية:

- حسنا سأشارك.. لكن دون أن أبرح السيارة ودون أن يراني الشريف.. سيلزمني قناع لكيلا يتعرف علي! ..

ليصيح المهدي مرة أخرى ويضرب على صدر عزوز متحمسا:

- نِعمَ الصديق أنت يا مجنون! كنت أعلم أنك لن تخذلني ..

ثم عمد إلى جيب سترته وأخرج منه نظارات وشواربا اصطناعية غليظة، وسلمها لعزوز قائلا:

- هذه الشوارب والنظارات السميكة كفيلة بإخفاء ملامحنا، أما الأقنعة فلن تناسبنا كدركيين.. لكنها ضرورية للمتنبي وأحمد؛ فهم سيستغرقون وقتا طويلا في التجسس والمراقبة..

فوضع عزوز الشوارب الكثيفة على شاربه الخفيف وقد انشرح صدره للدعابة:

- سأبدو قبيحا بهذا الشارب الكبير! لكن ما من مشكلة؛ فرجال السلطة غالبا ما يجمعون بين القبح والكآبة! ..

وبعد أن ارتدى النظارت أردف قائلا:

- اكتملت الصورة.. أصبحت دركيا قبيحا على عينيه زجاجات كأنها قيعان الكؤوس.. لكن مهلا يا مهدي، إن لم أبرح السيارة واكتفى أحمد والمتنبي بالمراقبة، فكيف ستتغلب على الشريف ويوسف لوحدك؟!

ليجيب المهدي مبتسما:

- لقد اقتنيت صاعقا كهربائيا بعيد المدى، سأصعقهما وأفقدهما الوعي..

فوضع عزوز يده على فمه مشفقا، وتصورت الخطة في ذهني متمعنا في أدق تفاصيلها.. وعندما لاحظت افتقادها للإتقان؛ قلت له منتقدا:

- خطتك بدائية جدا يا مهدي!.. ما معنى أن ننزل أنا والمتنبي معا لكي نلوح لك بمصباح؟ أليس الهاتف النقال أكثر سلاسة وفاعلية؟!.. عدا عن ذلك لا أعتقد أن المراقبَة تتطلب شخصين، كما أن التلويح بالمصباح يتطلب شخصا واحدا، فما الفائدة من تواجد المتنبي إذن؟!.. أضف إلى ذلك أنك لن تواجه يوسف والشريف لوحدهما، إذ لابد لهما من حفار يساعدهما.. ولا تنس أن للمقبرة حارسا، وأن رقم السيارة قد يؤدي إلى كشفنا..

ليرُدّ على انتقاداتي قائلا:

- لا أنكر أنها تبدو بدائية كما قلت، لكن المصباح أكثر سلامة لنا من الهاتف النقال، فهذا الأخير معرض للاختراق من أجهزة المخابرات، وإن حدث وشكّكَت السلطات في أمرنا مستقبلا؛ فسيعودون إلى سجلات مكالماتنا بحثا عن أدلة تديننا، لذلك ارتأيت ألا أستعين بالهاتف نهائيا.. أما عن تكليف شخصَيْن بالمراقبة، فلكي يكونا سندا لبعضهما البعض إن تعرضا لهجوم مباغت.. وبخصوص الحفار وحارس المقبرة، فلا أظن أنهما سيشكلان تهديدا حقيقيا أمام تيار الصاعق القوي.. ولا تكترث لأمر اللوحة؛ فلقد جلبت معي شريطا لاصقا لحجب أرقامها..

بعد جوابه هذا بدت خطته مقبولة في نظري، وأصبحت قادرا على تحريرها من خانة التفاهة والعبث.. مع ذلك، كنت ما أزال مقتنعا بفشل العملية، مقتنعا بأن الشريف ومن معه سيبذلون كل ما في وسعهم للدفاع عن الكنز.. إلا أنني ارتديت القناع معلنا عن مشاركتي، وصارحت الرفاق بما يدور في ذهني:

- إن انخراطي في هذا العمل لا يعني رضايَ عنه، ولو كانت مهمتي تتعدى الإشارة بالمصباح لما قبلت بها.. ولكي أكون صادقا معكم عليَّ إخباركم بأنني لا أتوقع النجاح لهذه العملية، وإنما قررت أن أكون معكم لفضولٍ في نفسي ..وحتى وإن حالفكم الحظ واستأثرتم بالكنز، فإنني سأظل على حيادي ولن آخذ منه شيئا..

فابتسم المهدي.. وأعرب عن سعادته بذلك:

- تسرني موافقتك يا أحمد! وأحترم تشبثك بمبادئك ..

ثم نظر إلى ساعته.. ورمى بمفاتيح السيارة لعزوز قائلا:

- لقد وضعت البِزّتَين في صندوق السيارة، فلتستعجل بجلبهما!.. وأنتما فلتسرعا الآن إلى المقبرة، سوف أنتظر إشارتكما بفارغ الصبر..

***

أثناء وصولنا إلى المقبرة كان بابها الأزرق الكبير مشرعا أمامنا.. لكن المتنبي توجه إلى أقرب شجرة إليه وتوارى خلفها. فأشحت بوجهي عنه حين ظننت أنه يقضي حاجته، وشرعت في تأمل الباب مستقبحا جوانبه المتآكلة تارة، ومستحسنا نقوشه البديعة تارة أخرى، قبل أن تتسمر عيناي

على عبارة كُتِبَتْ عليه بالطبشور.. ولما هممت بالاقتراب منه لقراءة المكتوب؛ هرع المتنبي إلي وجذبني إليه موبّخا:

- ماذا تفعل أيها الغبي!.. ألا تستطيع أن تكون جِدِّيا ولو لمرة في حياتك؟!
- على مهلك يا متنبي!.. أردت فقط أن أقرأ ما كتبوه بالطبشور!
- ماذا لو رآك حارس المقبرة؟! ماذا لو صادف اقترابك من الباب مجئ يوسف أو الشريف؟!.. سوف تفسد كل شيء باستهتارك هذا!

ثم حدق إلى الباب مليا.. وقرأ المقولة التي كُتِبَت عليه:

- " يوما ما ستلتحق بنا، وستكتشف كم كنت غبيا وأحمقا في دنياك.. لكن ما دمت في عالم الأحياء؛ فسوف تظل واهما بأنك عاقل فطِن " ..
- رباه! كيف استطعت أن تقرأها من هنا؟! ما أحَدَّ بصرك!

فابتسم وأجاب قائلا:

- لو كنت تمرن عينيك بالقراءة لما تعذر عليك تمييز الحروف من هذا البعد، لكنك لا تفتح الكتب إلا نادرا.
- لا علاقة بين القراءة وحدة النظر.
- بلى؛ تقول القاعدة "العضو الذي لا يُستعمَل يضمر" ..

فعدت إلى التحديق إلى الباب، وحاولت جاهدا أن أقرأ المقولة بدوري.. إلا أن قدرات بصري المتواضعة لم تشفع لي أمام حروف بدت لي وكأنها طلاسم مضببة؛ لأترك المحاولة مستسلما للواقع، وأسأل المتنبي متجاهلا عجزي عن مجاراته:

- إنها مقولة حكيمة.. لكن من عساه يكون كاتبها؟!

- عـابرٌ سـولت لـه نفسـه أن يكتـب للأحيـاء نصـيحة بالنيابـة عـن الأمـوات .. علـى كـل حـال لا تكتـرث لأمـره؛ فالعبـارات أبقـى مـن كُتّابها..

ثم تسلق الشجرة على مهل، وطفق يلتفت برأسه في كل الإتجاهات مستكشفا ما حولنا.. وعندما تأكد من خُلُوِّ المنطقة من البشر؛ قفز إلى الأرض بخفة وقال:

- إنها اللحظة المناسبة للتسلل إلى المقبرة، علينا أن نجتاز سورها..

لأسأله مستغربا:

- وما الحاجة إلى تَسَلّقِ سورها وبابها مفتوح؟!
- هذا لأن بيت الحارس يقع عند مدخلها، ومرورنا من أمامه سيكون مجازفة لا طائل منها..

انطلقنا صوب السور الحجري في حذر.. وما إن صرنا عنده؛ حتى وضع المتنبي يديه على حافته، وقدمه على صخرة ناتئة في أسفله، ثم دفع بجسمه إلى الأعلى متخطيا السور بمنتهى السهولة، فيما وجمت في مكاني متعجبا من لياقته العالية وأنا أحملق إلى السور الذي يفوق ارتفاعه المترين.. في تلك اللحظة، أدركت أن الانخراط في ناد رياضي بات ضرورة ملحة؛ إذ كان من المحرج أن يتمتع شخص في الأربعين بلياقة تفوق لياقتي أنا ابن الخامسة والعشرين.. فتراجعت بضعة أمتار إلى الخلف، وركضت بأقصى سرعتي نحو الحائط.. وبمجرد أن وضعت قدمي على الصخرة الناتئة؛ قفزت وارتكزت بيدي على الحافة محاولا اجتيازها دون أن تحتك برجلاي، إلا أن حركتي كانت أبطأ من الاستجابة لرغبتي؛ لأفقد توازني، وأسقط داخل المقبرة وقد جرحت الحافة ظهري..

قمت من على الأرض متألما وأنا أمسح خشاش الأرض عن ثيابي، وضحكت في وجه المتنبي متعمدا ألا تظهر ألامي على حركات جسدي، بيد أن جراحي كانت تلسعني كلما التصق القميص بظهري؛ فاضطررت إلى التأخر بخطوات عن المتنبي ونحن نسير بين القبور لكيلا يرى بقع الدماء على قميصي، وشرعت في النظر إلى مراقد الموتى لعلني أتذكر أهوال الآخرة وأنسى آلام جراحي.. إلى أن توقف المتنبي عن السير، وأشار إلى شجرة زيتون نمت في منتصف المقبرة:

- تلك الشجرة العملاقة أنسب مكان للإختباء والمراقبة؛ سيمكّنُنا تسلقها من الإحاطة بكل شبر من المقبرة! ..

نظرت إلى الشجرة التي بدا تسلقها أمرا مجهدا، ولعنت اللحظة التي سمحت فيها لنفسي بمرافقة هؤلاء؛ سيما وأن السقطة قد لوت كاحلي وأضرت بمرافقي.. لكنني كتمت تذمري، واقتفيت أثر رفيقي إلى شجرة الزيتون.. وكما كان متوقعا، تمكن من تسلقها كقرد خبير، في حين استغرقت وقتا أطول بعشر مرات قبل الوصول إلى الغصن الذي جلس عليه.. فانحنيت قليلا لأرى قبعة نابوليون، وحين أيقنت أن الأغصان لن تحجب عنها ضوء المصباح؛ عدلت من جلستي وخاطبت المتنبي قائلا:

- لقد أصبت؛ هذا المكان مثالي لتنفيذ ما جئنا من أجله!..

لم ينتبه لكلامي؛ كان يسرح ببصره متأملا القبور التي تنتشر حولنا.. وفي لحظة من اللحظات، بدت عيناه من فتحة القناع أكثر ضيقا ولمعانا؛ لأسأله بناء على ما استنتجته من حاله ذاك:

- هل ذكرتك القبور بالموت الذي لا مناص منه؟ أم أنك تذكرت قرينك الراحل أبي الطيب؟

فضحك على سؤالي.. وأجاب قائلا:

- أرى أنك لا تستطيع أن تفهم العلاقة التي جمعتني بأبي الطيب.
- بلى.. أنت قرينه الجني الذي صاحبه طوال حياته.. إبان حياته كنتما شخصين في شخصية واحدة اسمها أبو الطيب المتنبي، وبعد وفاته دفنوا أبا الطيب، وظللت أنت على قيد الحياة إلى أن استحضرناك متشكلا في صورته يا متنبي .. أليس هذا ما أخبرتنا به؟
- بلى، لكنني لم أنساه قط لتذكرني به المقابر.. بعد وفاته، ذهب جزء مني معه، وعاش جزء منه معي.. إنها علاقة معقدة لا يفهمها إلا قرين مثلي.
- مممم.. أيعني هذا أن قريني الجني يحبني أيضا. !
- بالطبع، كيف لا يحبك وهو لا يفارقك ولو للحظة.. إنه يفرح لفرحك! ويحزن لحزنك!
- لكنه يوسوس لي بالشر! أنى له أن يحبني وهو يقودني إلى الهلاك؟!
- إنه يقوم بعمله الذي خلق لأجله، وهذا لا يتعارض مع حبه لك.. ألا ترى أن الأصدقاء يشجعون بعضهم البعض على ارتكاب الشرور والحماقات، أيعني هذا أنهم لا يحبون بعضهم البعض؟ كلا.. فالأمر لا يتعلق بالمحبة أو الكراهية، بل بمقدار نزوع النفوس إلى الشر.
- ربما!.. لطالما أردت أن أسألك سؤالا.
- تفضل يا أحمد.
- ألم تشعر قط بالندم على وسوستك لأبي الطيب وأمرك له بارتكاب الشرور؟..

فضحك المتنبي.. ثم رفع قناعه إلى حدود جبهته وأجاب:

- هذا يتوقف على تعريفك للشرور.
- لم أفهم!
- الناس لا يعتبرون الفعل شرا إلا حين يعارض مصالحهم، أما حين يوافقها فيرونه خيرا ولو كان شرا.
- إذن؟
- يا أحمد كيف أندم وقد صنعت من أبي الطيب شاعرا عظيما؟!.. يستحيل أن أندم! ..

ثم أسدل القناع على وجهه، وعاد إلى شروده دون أن يخبرني عن سر ذلك الحزن الذي بدا عليه.. فكرت أن أسأله من جديد، لكن طيف إنسان لاح من بعيد سرق انتباهنا، وشغلنا بمراقبته وهو يقترب من المقبرة شيئا فشيئا.. كان يرتدي جلبابا غامق اللون وعلى رأسه طاقية سوداء، وكان يلتفت خلفه باستمرار وكأن شخصا ما يتعقبه .. توقف للحظة والتفت يمينا ويسارا، ثم دخل المقبرة متوجها إلى بيت حارسها.. فطرق بابه وانتظر قليلا، قبل أن نسمع صرير الباب القوي، ويخرج إليه الحارس العجوز وفي يده قنديل كبير يتوهج نورا.. حاولنا أن نسمع ما يدور بينهما من حديث، إلا أن المسافة كانت أبعد من أن تسمح لنا بتمييز كلامهما؛ فاكتفينا بتحليل إيماءاتهما إلى أن تحركا من مكانهما، وتقدما باتجاه شجرة لوز لا تبعد كثيرا عن مخبئنا، ليتوقفا تحتها، ويتبين لنا أن ذا الجلباب الأسود لم يكن سوى يوسف المخادع.. حينها ضحك المتنبي مستبشرا، وقال:

- هذه بداية جيدة!.. في انتظار أن تلج بقية العصافير إلى المصيدة!..

ابتسمت دون أن أتعجب من حماسه، وشرعت في الإنصات إلى العجوز الذي كان يخبر يوسف وهو يشير إلى رقعة بجوار شجرة اللوز:

- لقد قام الشريف بتربيع هذه المنطقة ليلة البارحة، هنا يوجد الكنز..

كنت كثيرا ما أسمع بمصطلح التربيع، لكنني لم أعرف معناه إلا بعد أن سألت المتنبي:

- ألديك فكرة عن المقصود بالتربيع يا قرين؟ كثيرا ما يتردد هذا المصطلح بين المهتمين بالتنقيب عن الكنوز!
- التربيع عملية روحانية يقوم المنقبون من خلالها باستعلام أعوانهم الجن عن مكان الكنز، ليقوموا بعد ذلك بتطويق المكان بأربعة أحجار، قبل أن يقوموا بتلاوة عزائم وأقسام تمنع الجني الحارس من تحويل الكنز أو تبديله..
- أحيانا أشعر وكأن الأمر مفبرك!
- عن أي فبركة تتحدث يا أحمد؟
- يأتي المنقبون الأوربيون والأمريكان إلى هنا مع آلات الجرد الجيولوجي، ثم يستخرجون الكنوز دون الحاجة إلى القيام بتربيع! ودون الحاجة إلى مواجهة الجني الحارس!.. وكأن الجن الراصد لا يتسلط إلا على المسلمين! ألا تجد في الأمر غرابة يا متنبي؟!
- نعم يا أحمد.. دائما ما تبدو الأمور غريبة لمن يجهل حقائقها..
- ماذا تقصد؟
- ما يستخرجه الأوربيون والأمريكان بسهولة غير محروس من الجن، أما الكنوز المرصودة فلا سبيل لهم لاستخراجها إلا بعد التخلص من الجني.. لا تنس أن من هؤلاء الأجانب مشعوذين وسحرة، ولا تنس أن العزائم والطلاسم فعالة بكل اللغات واللهجات..
- لقد صدقت.. لا أدري كيف نسيت ذلك! ..

وقبل أن أنهي كلامي، سمعنا صوت محرك سيارة تقترب، وتطلعت إلى البوابة مراقبا أنوارها التي كانت تزداد سطوعا.. ثم تحرك العجوز إلى الممر الرئيسي وهو يشد على عضد يوسف مترقبا :

- لقد جاء الشريف.. لا يخفى علي صوت سيارته..

وماهي إلا لحظات حتى توقفت الميرسيدس الرمادية أمامه.. وترجل منها الشريف برفقة رجلين ملتحيين، أحدهما سمين فارع الطول، والآخر نحيل إلى القصر أقرب.. لألتفت إلى المتنبي ضاحكا:

- هههههههه.. لقد صاروا خمسة، فليكن الله في عون المهدي! ..

فأجاب المتنبي بضحكة قصيرة تنم عن التحدي.. وأنشد بيتا من أبياته:

- *ولا تغرنك اللحى ولا الصور*
  تسع أعشار من ترى بقر.
- ربما.. لكن لا تنس أن للبقر قوة لا يستهان بها يا متنبي، وإني لا أظن أن المهدي سيهزم هؤلاء جميعا!
- لو كان النصر بالجسد، ما انهزم فيل من أسد.. أتعلم ما الذي يمنعك ويمنع أغلب الناس من التفوق والنجاح يا أحمد؟
- لا يا صديقي! فلتخبرني..
- التشاؤم والخوف.. تتشاءم، فتخاف؛ فتفشل قبل أن تجتاز الامتحان..
- ومتى أصبح التفكير المنطقي تشاؤما يا متنبي؟
- إن ما تعتبره تفكيرا منطقيا لا يمكن أن يكون من المسلمات! ..
- وما دليلك؟
- المنطق يختلف من مكان لمكان ومن زمان لزمان ومن ثقافة لأخرى.. ففي هذا البلد مثلا، تعتبر الوظيفة غاية معظم الطلاب من

التحصيل العلمي، في بلدان أخرى يعتبرون التحصيل العلمي غايتهم من الحصول على الوظيفة.. في اليابان من المنطقي أن يحصل عامل النظافة على راتب يضاهي رواتب المسؤولين الكبار، وفي بلدان أخرى يعتبرون ذلك ضربا من ضروب الخيال.. في الهند الأبقار مقدسة، ومن المنطقي أن تسير في الطرقات كما يحلو لها وأن ترعى حيث تشاء، في بلدان أخرى يتغير المنطق وتذبح الأبقار وتسلخ وتقدم في أشهى الأطباق.. في بلدكم هذا ينتقص الناس من قيمة المرأة المطلقة، وفي بلد يجاوركم ترتفع قيمة المرأة كلما تطلقت.. لهذا السبب لا أؤمن بالمنطق، خصوصا حين يكون عائقا أمام أهدافي! ..

فأشحت عنه متعمدا اللامبالاة، وراقبت الرجل السمين وهو يعمد إلى صندوق السيارة ويخرج منها مجارفا ومعاولا، في الوقت الذي توجه فيه الشريف إلى البقعة المعلومة وأخرج من جيب قميصه الطويل وريقات صغيرة ثم وزعها على أركانها الأربعة.. قبل أن يأخذ القنديل من العجوز ويخاطب يوسف:

- يوسف تعال إلى هنا؛ الوقت يداهمنا! ..

ثم التفت إلى الحارس آمرا:

- وأنت يا حاج "موسى" فلتحضر الماء الذي قرأت عليه البارحة! ..

ثم وضع القنديل في منتصف الرقعة التي تقارب مساحتها الستة أمتار مربعة، وتقدم إليها يوسف بخطوات متثاقلة تنم عن التردد والخوف، بينما انطلق موسى العجوز باتجاه بيته مهرولا، ووقف الحفاران خارج حدود البقعة وهما يشاهدان يوسف يجثو على ركبتيه، ويغلق عينيه مستجيبا لأمر الشريف الذى وضع كفه على جبهته وشرع في قراءة أذكار غريبة.. في تلك

اللحظة، لم أكن مهتما بما يتلوه بقدرما كنت مترقبا لما سيحصل للذي يتلو عليه؛ فكان من الطبيعي أن أتجاهل ما يصدر عن الشريف، وأصب تركيزي على حركات يوسف الذي كان يرتجف فرقا.. فجأة وقف هذا الأخير في مكانه على نحو مريب، وأخذ يخطو مسلوب الإرادة كما تخطوا الكراكيز؛ فالتفَتُّ إلى المتنبي والدهشة تتملكني مما أراه، وتسمر رفيقي في مكانه محملقا:

- لقد حل أعوان الشريف في جسد يوسف!
- لِمَ؟
- إنهم يستخدمون جسده لكي يحددوا للشريف النقطة التي يقع تحتها الكنز مباشرة..

عاد العجوز بقنينة ماء من الحجم الكبير، ووضعها خارج المربع المحدد، ثم وقف إلى جوار الملتحيين متابعا خطوات يوسف الذي سار ببطئ نحو الركن الشمالي الشرقي للبقعة.. وما هي إلا ثوان قليلة حتى خر هذا الأخير مغشيا عليه؛ فكف الشريف عن التلاوة، وطلب من الحفارين أن يحملا يوسف ويسنداه إلى الشجرة ريثما يستفيق.. ثم عمد إلى قنينة الماء، وبدأ في سقي المنطقة التي انتهت إليها خطوات الزهري وهو يصدح بالآذان.. لتتسلل إلي الحيرة مجددا، وأسأل المتنبي قائلا:

- كيف يعقل أن يقوم الشريف بالآذان؟! ألم ترجح إرضاءه للجن الحارس بتقديم خدمات كفرية؟!
- بلى، لقد اعتقدت ذلك حين ظننت أنه سيستعمل يوسف وسيطا للتفاوض، لكن تبين أن الزهري كان مجرد آداة لتحديد موقع الدفينة..

بعد أن انتهى الشريف من الآذان، أشار على الحفارين بالاقتراب منه، وأخذ يتلو سورة يس تحصينا لهما ولمعداتهما مما قد يتعرضان له من الجن أثناء عملية الحفر.. عندئذ تيقنت من رغبته في انتزاع الكنز من حراسه، وتأكد لي أنه ليس من النوع الذي قد يفاوض أو يتنازل عن مبادئه، خصوصا وأن حرق الجن والقضاء عليهم كان دوما هواية من هواياته المفضلة؛ فازداد فضولي لمعرفة القادم من الأحداث وصاح الشريف في وجه الرجلين محذرا:

- أثناء الحفر، قد يظهر الجن الحارس في صفة أفعى سامة، وقد يتمثل في صور مخلوقات مرعبة، وقد يصل به المكر إلى التشكل في صورة من مات من أقربائكما، فاثبتا ولا تخافا وإن رأى أحدكما رأس أمه مرميا أمامه.. يجب على قلوبكما أن تكون كزبر الحديد؛ فأدنى خوف منكما وأي صوت يصدر منكما سيسمح للجن بأذيتكما! .. فلتتوكلا على الله! ولتبدآ في حفر المنطقة التي بللتها!..

فتقدم الرجلان إلى حيث أشار الشريف بهمة ونشاط، وشرعا في الحفر دون أن ينبس أي منهما ببنت شفة.. ثم ابتعد العجوز عنهما، وجلس إلى جوار يوسف الذي بدأ في استرداد وعيه.. أما المتنبي فلم يكن قادرا على إخفاء حماسه وهو يرى التراب المجروف يزداد ارتفاعا، وكان يزداد توترا كلما ازدادت الحفرة عمقا.. وعلى الرغم من انخراطي معه، شعرت بالحياد عن الطرفين لحظتها، وأخذت أقلب المصباح في يدي مبتسما ومستمتعا بشخصيتي التي تعلو الأحداث بطابع من السخرية.. بيد أن تحرري من القلق والتوتر بدأ بالزوال مع أول قعقعة يصدرها معول الحفار النحيل.. لقد

أدركت بفطرتي أن المعول قد ارتطم بشيء من حديد، ووجمت في مكاني وأنا أرى الحفار يقفز من مكانه فرحا وهو يقول:

- إنه صندوق من حديد!.. إنه الكنز يا أصحاب!

لم أصدق ما قاله الحفار من فرط دهشتي، ولم يتردد المتنبي في نزع المصباح من يدي، ليضغط على زر اشتغاله ويوجه ضوءه نحو التكتل الصخري وعيناه تشرقان حماسة وأملا:

- لقد أوشكنا يا أحمد!.. لقد أوشكنا..!

في تلك اللحظة أدركت جدية الأمر، وأدركت أن ما اعتبرته لعبا وتسلية على وشك أن يصبح واحد من أبرز أحداث حياتي.. ومع أنه إدراك أتى متأخرا، إلا أن ثقله كان أعظم من أن يقاس بالزمن؛ خصوصا وأنني خشيت أن أضطر إلى التورط في إذاية أحدهم.. فأمسكت قفاي عاجزا عن التفكير، عاجزا عن الندم والحسرة؛ مسلما بأن القدر قد خدعني بمتانة كيده التي تستدرج الناس من حيث لا يعلمون.. فدعوت الله أن يستخرج الشريف ورفاقه الكنز ويغادروا جميعا قبل وصول المهدي، وظننت بأن الله قد استجاب لي حينما اتجه الشريف ويوسف بالصندوق الكبير نحو سيارته.. بيد أن الحفار العملاق وقف حجر عثرة أمام الشريف قائلا:

- اعذرني يا سيدي إبراهيم، لقد اتفقنا على اقتسام الغنيمة في عين المكان؛ أريد نصيبي من الكنز حالا! ..

فأجابه الشريف بلهجة مالت إلى الاستعطاف:

- يا عبد الرحمان نحن لسنا بأمان هنا! فلتصبر إلى أن نصل إلى بيتي، سنفتح الصندوق هناك وسنقتسم ما به بعدل وأمانة!..

لكن الحفار أبى النزول عند رغبة الشريف وتمسك برأيه:

- ومن يضمن لي وصولنا إلى بيتك آمنين سالمين؟ إن خير البر عاجله يا شريف! ..

فحوقل الشريف وردد مغلوبا على أمره:

- وكان الإنسان أكثر شيء جدلا!.. وكان الإنسان أكثر شيء جدلا! ..

وأفلت حلقة الصندوق من يده غاضبا؛ وسقط الصندوق على الأرض جارفا معه يوسف الذي علقت أصابعه في الحلقة المقابلة.. ثم أخذ معول عبد الرحمان، وشرع في توجيه ضرباته على قفل الصندوق محاولا كسره.. أذكر أنه ضرب ضربة، ثم تلاها بضربتين أخريين قبل أن يتوقف عاجزا بعدما سمع الجميع صفارات الإنذار.. ففزع الحارس العجوز إلى بيته مهرولا، وترك الحفار الضئيل المجرفة من يده وسلك طريقه إلى السور هاربا وهو يقول:

- إنهم الدرك!.. النجاة! النجاة!

ثم وجم عبد الرحمان العملاق في مكانه للحظات.. قبل أن يلتقط أدواته من على الأرض ويتأبطها مكشرا:

- اللعنة!.. أحد ما علم بأمرنا، وأخبر الدرك عنا! .. علي الذهاب الآن؛ فأن أخسر الكنز خير لي من أخسر سنوات من حياتي وراء القضبان! ..

ففر مقتفيا أثر زميله، ولحق به يوسف كنمس مذعور وهو يقول:

- فلتسامحني يا شريف، إن الدولة لا تسامح من ينبش في أراضيها! ..

ليبقى الشريف وحيدا، ويعمد إلى الصندوق الثقيل وقد بلغ منه التوتر أشده.. وحين استعصى عليه حمله؛ شرع في جره بصعوبة وهو يسب الفارين بأقذع الشتائم:

- اللعنة عليهم! أبناء الزنا أشرف من هؤلاء الجبناء الخنازير!.. اللعنة عليهم، أجسام بغال وعقول عصافير! ..

فضحك المتنبي مسرورا بما تعرض له الشريف من الخذلان، وعلق على شتائم هذا الأخير وقد راق له الهجاء:

- *عيروهم بالحق حين قالوا*
  بغال بعقول العصافير
  بيد أن الشاتمين كانوا
  بغالا بأجساد العصافير

ثم التهب حماسه ووقف على الغصن ضاحكا وهو يشاهد دخول المهدي بسيارة الدرك الزائفة، وتعاظمت مخاوفي مما قد يلحق بالشريف من أذى الصاعق الكهربائي؛ خاصة وأنه لم يبد أي نية في الهروب وظل ثابتا في مكانه لا يتحرك قيد أنملة.. فبلغ قلبي حنجرتي، وأخبرت المتنبي بما تبادر إلى ذهني:

- علي التدخل وإيقاف هذه العملية قبل أن يصل المهدي إلى الشريف! إن ضرر التعرض للصعق يتفاوت من شخص لآخر، ولن أسامح نفسي إن تعرض الشريف لمكروه!

فالتفت إلي ورمقني بنظرة عميقة، ثم سألني:

- تريد ألا يتعرض الشريف للصعق أليس كذلك؟
- أجل.
- حسنا يا أحمد، سنعالج المسألة بأخف الأضرار.

- كيف؟! ..

تجاهل المتنبي سؤالي، ونزل من الشجرة بخفة كما صعد إليها.. ثم أسرع إلى الشريف وهو يتوارى بين الأشجار حريصا على ألا يراه.. وقبل أن ينزل المهدي من السيارة التي توقفت على بعد خمسين مترا من الشريف، هوى المتنبي بطرف كفه على قفا هذا الأخير؛ وأسقطه على الصندوق بلا وعي ولا إدراك..

نزلت عن الشجرة وقد بلغ مني القلق مبلغا شديدا، وهرعت إلى الشريف لأطمئن على حاله.. ثم أقبل المهدي والصاعق الكهربائي في يده، وأعرب عن دهشته بصوت منخفض:

- أرى أن الأحداث قد أخذت منحى مغايرا يارفاق!..

فعقب المتنبي على كلامه وهو ينظر إلى الشريف النائم مشفقا:

- لقد اضطرني أحمد إلى فعل ذلك..

لأحدجه بنظرة حانقة:

- وهل طلبت منك ضربه يا هذا؟!

قبل أن يرد علي بصوت بارد النبرات:

- تمالك نفسك! سيستعيد وعيه بعد قليل..

ثم انحنى وأمسك الشريف من إبطيه مبعدا إياه عن الصندوق، وأسنده برفق على أقرب قبر منه وهو ينظر إلي قائلا:

- لا تقلق؛ سوف نمنحه ربع الكنز.. أما الفارون الذين تخلوا عن حقوقهم طواعية، فلا حقوق لهم عندنا..

التزمت الصمت حائرا فيما قام المتنبي والمهدي بحمل الصندوق، وفكرت في العواقب التي ستنتج عن إيقاظي للشريف، وما سيترتب عنه من حقد وصراع إن أخبر الآخرين بحقيقة الأمر.. لأقرر بعد أخذ ورد أن أتركه في مكانه، وأن أتكلف بتسليمه نصيبه من الكنز لاحقا.. لقد بدا لي هذا القرار حينها أسلم قرار يمكنني اتخاذه في تلك الظروف، ومع أنني لم أكن مطمئنا بما فيه الكفاية لأترك الشريف على تلك الحال، إلا أنني انصرفت مرغما، وتوجهت إلى السيارة حيث كان عزوز المتنكر يحدق إلي في ذهول.. في تلك اللحظة، أدركت أن الندم لن ينفعني، وأن انتمائي لهذه العصابة كان أمرا محتوما..

***

لم أنم تلك الليلة، ولم ينم رفاقي أيضا.. لقد عجزت عن الوصول إلى اتفاق مع ضميري الذي كان لا يكف عن تأنيبي، كما عجز أصحابي عن الاكتفاء من تأمل ما وجدوه في الصندوق من ذهب ومجوهرات.. كنت أشعر بغصة في حلقي وأنا أرى عزوز يراكم دنانير الذهب التي يعدها في أكوام كبيرة، وكانت الغصة تتحول إلى ضيق في صدري وأنا أشاهد المتنبي يفحص الجوهرة تلو الأخرى مخبرا المهدي بأسمائها، وكان الضيق يزداد حدة كلما نطق المهدي بسعر ما يعده الآخران.. ما زلت أذكر كيف جلس هذا الأخير القرفصاء على منضدة المطبخ واضعا الحاسوب في حضنه، والحاسبة عن يمينه.. وما زلت أذكر كيف توالت ضحكاته الهيستيرية وهو يخبرنا عن القيمة التقريبية للكنز:

- هاهاهاها... يارفاق، حسب الأسعار التي يعتمدها الموقع الدولي للذهب والمجوهرات فإن قيمة كنزنا قد تصل إلى ثلاثة ملايين دولار ونصف! رباه إني أريد أن انتحر من شدة الفرح !

تضاعفت عظمة الذنب في نفسي بمقدار ما نطق به المهدي.. وانفعلت في وجهه غاضبا:

- بل سرقنا خمسة وثلاثين مليون درهما يا مهدي ! ..

فرمقني بازدراء.. ورد علي متسائلا :

- أحقا أنت هكذا يا أحمد؟! أم قررت أن تلعب دور الواعظ التقي فجأة؟!
- لقد ضربنا الرجل وأخذنا كنزه! ولا أحد منا يعلم ما إن استرد وعيه أم لا!.. ماذا لو مات؟! ألم تفكر في أطفاله؟! إنني لست بحاجة إلى الوعظ لكي أكون إنسانا؛ إنني أضع نفسي مكان الأخرين وأشعر بما يشعرون! ..

فسكت المهدي.. وانبرى المتنبي للحديث معقبا:

- يا أحمد! إن الاستيلاء على كنز تخلى عنه مستخرجوه لا يعد سرقة، ولقد سبق وأن وعدتك بأننا لن نبخس الشريف حقه، وأننا سنعطيه ربع الكنز بدلا عن الخمس الذي كان ليناله لو اقتسم مع جماعته.. أما عن الضربة التي تلقاها فلا أرى أنها تقتله؛ فلتنم قرير العين، إنني لا أجد لقلقك هذا عذرا !..

لا أنكر أن كلامه قد خفف عني شيئا من عذاب الضمير، لكن جهلي بما انتهى به إغماء الشريف؛ حال دون أن يهنأ لي بال أو أطمئن لمقال.. فشردت باحثا عما يمَكِّنني من الاطمئنان عليه، وشاورت نفسي حول الاتصال بهاتفه المحمول.. وبالرغم مما قد يترتب عن هاته الخطوة من عواقب وخيمة، إلا أنني عرضتها على الرفاق طلبا لمشورتهم، وجسا لنبضهم في الآن ذاته:

- سأتصل بالشريف؛ لن يغمض لي جفن وأنا أجهل ما حل به..!

فاربد وجه عزوز وأمسك عن مسح زمردة كانت في يده، وحوقل المتنبي ساخرا وهو يومئ برأسه يمنة ويسرة.. فيما بادر المهدي إلى تنبيهي قائلا:

- إياك أن تفعل!.. قد يتحول اتصالك به إلى خطأ قاتل لو أصبحت القضية في يد السلطات! فلو طال إغماؤه أو مات نتيجة لذلك؛ فإن الدرك سيعودون إلى سجل مكالماته أثناء تحقيقاتهم..

ثم قام عزوز من مقعده، وأدلى برأي لا يقل سذاجة عنه:

- أرى أن نعود إلى المقبرة، فإن وجدناه على ما تركناه عليه أيقظناه واعتذرنا منه، وإن لم نجده، علمنا أنه استفاق وعاد إلى بيته؛ فاطمأنت قلوبنا..

فجذبه المهدي من معصمه معيدا إياه إلى مقعده:

- فلتجلس يا أحمق! الأغبياء فقط من يعودون إلى مسرح الجريمة!

عندئذ أدركت أن أمثل طريقة للإطمئنان على الشريف دون إثارة الشكوك، هي التسلل إلى بيته والتحقق من تواجده هناك.. فخرجت من المطبخ دون أن أطلعهم على حقيقة نيتي، وأخذت دراجة عزوز من الردهة بعد أن ارتديت سترتي.. وعندما فتحت الباب استعدادا للخروج، فوجئت بالشريف قبالتي!.. كان يقف عند الباب ويضع يده على قفاه مبتسما.. فوجمت عاجزا عن الكلام، وشل تفكيري للحظات من شدة الصدمة!.. ولكيلا يطول سكوتي المحرج؛ سارعت وألقيت عليه اعتذارات منعني الارتباك من نسج عباراتها:

- سيدي إبراهيم أريد أن أخبرك!.. أنا!.. كنت أريد أن أعتذر! ..

لكنه سرعان ما ربت على كتفي وقاطعني مبتسما:

- لا عليك، لقد أخبرني عمرائيل بكل شيء..

فسألته مستغربا:

- عمرائيل من؟!

وأجاب ضاحكا:

- إنه جني من أعواني..

ثم دخل.. وصعد الدرج وهو يتابع قائلا:

- لقد شعرت بحيرة شديدة عندما استفقت.. لا كنز! ولا درك! ولا علم لي بمن ضربني! وما زاد من حيرتي أن الدرك لم يقوموا باقتيادي إلى المخفر كما هو المفترض في حالة كحالتي؛ فغضبت حين ظننت أن أحدا ما من جماعتي قد تواطأ معهم وأخذوا الكنز ليقتسموه بينهم.. لكن، عندما أخبرني عمرائيل بأن ما وقع مجرد تمثيلية قام بها أصدقائك وبأنك كنت تنهاهم عن أذيتي طوال الوقت؛ زال غضبي، وعلمت بأن حقي معك ولن يضيع..

فانشرح صدري على الفور، وانقشعت سحب الغم التي عكرت مزاجي طيلة الساعات الأخيرة.. وبالرغم من ذلك، كررت اعتذاري، وقلت له وأنا ألحق به:

- فلتتجاوز عني يا شريف؛ لقد استخففت بخطة المهدي، وأدركت ذلك بعد فوات الأوان! .. لكن لماذا لم يحذرك عمرائيل من البداية؟!
- لقد كان في حرب مع حراس الكنز حينها، وكل ما أخبرني به إنما أخبره به جني آخر يسكن المقبرة.
- لأعوانك شبكة استخبارات إذن!
- تماما يا أحمد، كل شيء يتم بالاستخبار، ولا يعلم الغيب إلا الله..

تسلل الشريف نحو المطبخ على أصابع قدميه، ثم توقف عند بابه ملقيا بسمعه لما يدور بين الرفاق من حديث.. قبل أن يدخل عليهم بغتة وهو يقول:

- لو لم تطلعني الجن على أمركم؛ لاكتملت جريمتكم!.. هذا لكي تعلموا أن التنكر لا ينفع مع الجن يا عصابة اللصوص! ..

خرس لسان المهدي واصفر وجهه، وتوالت على شفاهه سلسلة من الابتسامات الصفراء التي لم تفلح في إخفاء ارتباكه.. ووقف عزوز مطرقا رأسه وكأنه نعامة لا تحسن إخفاء نفسها، فيما بادر المتنبي إلى الإجابة وعلى شفتيه ابتسامة توحي بالسكينة ورباطة الجأش:

- لم يكن الكنز ملكا لأبيك يا شريف، لقد اغتصبته من الجن؛ واغتصبناه منك.. اعذرنا، إن الحياة فرص ومنافسات! ..

هز الشريف رأسه إمعانا فيما قاله المتنبي، وعبث بلحيته قليلا وهو يعمد إلى أكوام الدنانير التي ملأت معظم الطاولة.. ثم تناول منها قطعا وهو يقول:

- ياقوت وزمرد، فيروز ودنانير بزنطية!.. استغرقت عاما بأكمله قبل أن أتمكن من تحديد مكانها، واستوليتم عليها في دقائق معدودة!.. صراحة، ما زلت لا أصدق أن يوسف قد أخبركم عن الدفينة!

فأفرج المهدي عن ضحكة لم يمنعه التوتر من كتمانها، وقال بصوت خافت يجمع بين الفخر والحذر:

- لم يخبرنا يوسف بشيء، وإنما اخترقت حسابه وعلمت عن أمر الكنز من رسائلك له.. ألم يخبرك أعوانك أنني من "الهاكرز"؟!

ابتسم الشريف دون أن يجيب.. والتقط بعضا مما تناثر على الطاولة من جواهر، ثم أخذ يتفحصها تحت ضوء المصباح.. وعندما لمح الآلة الحاسبة على المنضدة؛ سألنا قائلا:

- هل حددتم قيمة الكنز؟..

ليرفع عزوز رأسه أخيرا، ويتولى الإجابة مجاهدا خجله:

- أجل يا سيدي، يحتوى الكنز على خمسة عشر ألف دينار ذهبي، وياقوتتين، وعشر زمردات، وثلاثة عشر حجرا من الفيروز.. وتبلغ القيمة الإجمالية للكنز حوالي خمسة وثلاثين مليون درهما..

فأصدر الشريف قهقهة قصيرة، وقال وهو ينظر إلى عزوز مستظرفا:

- أيها الغر!.. إن سعر الياقوتتين لوحدهما يفوق المبلغ الذي ذكرته! ..

ففتح عزوز فاه منذهلا، وجحضت عيون المهدي من شدة الدهشة.. بينما رفع المتنبي حاجبيه وهو ينصت باهتمام إلى الشريف الذي تابع قائلا:

- لهاتين الياقوتتين حمرة مثالية وشفافية شديدة، ناهيك عن حجمهما المتوسط، ونقائهما من الخدوش.. لقد باع صديق لي ياقوتة أقل حجما وجودة بعشرين مليونا؛ ما يعني أن الواحدة من هاتين قد تصل إلى الثلاثين مليونا!

ثم أخرج من جيب كندرته صرة حريرية، ووضع بها الياقوتتين وبقية الجواهر.. ونظر إلي وهو يقول:

- لقد أبى الله أن أقتسم الكنز مع الجبناء ورزقك منه نصيبا يا أحمد! فجزاء لحرصك على حياتي؛ قررت أن أمنحك الدنانير كلها ..

فضرب المهدي بيديه على الطاولة وصاح معارضا:

- هذا ليس عدلا!

ورد عليه الشريف بلهجة شديدة:

- كفاك تواقحا يا هذا!.. لو طبقت العدل لسلطت عليك أعواني انتقاما منك على ما فعلته!..

فأطرق المهدي رأسه وقد احمر وجهه غضبا، واستمر الشريف في النظر إليه شزرا وهو يعصر الصرة بيمناه.. وقبل أن أهم بالتدخل لتلطيف الأجواء، زفر الشريف وغادر المطبخ مغمغما.. فعدت إلى مقعدي.. ثم جلست وقد طاب لي الجلوس، ومددت رجلاي على الطاولة منتشيا بزوال غم ثقيل، قبل أن ابتسم في وجه المهدي قائلا:

- لقد كنتَ شريرا في تخطيطك يا مهدي.. لكن، لولاك لما ملكت هذا الذهب كله؛ وعليه، سأقول لكم ما قاله الشريف لأصحابه، سنقتسم الكنز بعدل وأمانة..

فصفر عزوز فرحا، وأشرق وجه المهدي من جديد.. لكن المتنبي الذي اعتاد الاطلاع على ضمائر الآخرين لم يلبث أن أخبرنا محذرا:

- لا تأمنوا مكر الشريف! لقد أهداك الدنانير خوفا من بطشنا يا أحمد..

فقلت له مستفسرا:

- لم أفهم!.. هلا شرحت لنا؟
- لقد أراد الكنز كله، لكنه امتنع عن التصريح بذلك خوفا من أن نثور عليه ويخرج خالي الوفاض؛ سيما وأن ضربي له قد أراه منا شرا.. لذلك تخلى لك عن الدنانير ليخرج من دائرة النزاع ويحققمك فيها..
- لو خاف منا كما تقول؛ لما أتى إلينا متبسما! ولسلط علينا أعوانه دون تردد!

- إن تسليط الأعوان عملية يحتاج نجاحها إلى أيام وأسابيع؛ لذلك لم يكن أمامه من حل آخر سوى أن يأتي إلينا ويأخذ ما يمكنه أخذه قبل أن نتمكن من نقل الكنز أو بيعه.
- وكيف علمت ذلك؟!
- لقد أخبرني قرينه.
- آااه.. هكذا إذن!
- علينا أن نحصن أنفسنا ونبتعد عن الشريف قدر المستطاع!.. هكذا سنخطط لمجدنا القادم بعيدا عن الإزعاج يا رفاق..

***

الصباح التالي كان مختلفا تمام الاختلاف عن سابقيه، كان أول يوم نستقبله وفي حوزة كل واحد منا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارا ذهبيا.. لقد كان إحساسا رائعا أن تفتح عينيك وتتذكر أنك تملك ما يعادل خمسة ملايين وخمسمائة وثلاثين ألف درهم مغربي!.. أن تدرك أنك أصبحت مليونيرا بين عشية وضحاها، وأنك صرت إنسانا غير الذي كنت عليه!.. أن تدرك بأنك قد تخلصت للتو من أطنان من الهموم، وأنك قد وفرت على نفسك الكثير من العناء المستقبلي!.. أن تستشعر تحسنا عاليا في مزاجك، وتعلم أن كل ما عكر صفوه قد أصبح صغيرا حقيرا!.. أن تدرك أن كل بعيد قد بات قريبا، وأن كل صعب قد صار ذليلا!.. في تلك اللحظة يلذ لك الاستلقاء، وتلذ لك الوسادة كما لم تلذ قط! ..

لكن، وعلى الرغم من تلك الابتسامات التي لم تفارق وجوهنا يومها، إلا أن ما أخبرنا به المتنبي عن نوايا الشريف وقلقي حول مشروعية كسبنا للدنانير؛ حال دون أن أسعد بثروتي الجديدة، وجعلني أفكر طيلة تناولنا للإفطار عن

حل ينفض عني شكوكي ويعيد إلى سكينتي.. أذكر أنني شردت طويلا، قبل أن ينقر عزوز على كتفي ويسألني:

- لماذا لا تأكل؟! فيم تفكر؟

وقبل أن يتسنى لي الرد عليه، كان المهدي قد أجابه قائلا:

- إن المسكين حائر؛ لا يصدق أنه أصبح غنيا! .. هاهاها أنا أيضا لا أصدق! رباه ما أسعدني!

فحدجه عزوز بنظرة متحاذقة، وأشاح عنه مرتشفا كوب قهوته وهو يقول:

- لا تبالغ في حب المال يا مهدي ولا تعظم من شأنه! وتذكر دوما أنه من وسخ الدنيا وقذارتها، خذها نصيحة مني لكيلا تسوء حالتك بعد ضياعه..!

فتوقف المهدي عن المضغ رافعا حاجبيه، والتفت إلى المتنبي الذي انشغل بإعداد قهوته على الفرن ثم انفجر ضاحكا وقال له:

- يا متنبي مارأيك في أحمق يرى أن المال قذارة الدنيا؟ !

ابتسم المتنبي وثنى رأسه يمنة يسرة ممتنعا عن الإجابة.. واستأنف المهدي وقد اختفت الابتسامة من شفاهه:

- لو كان المال وسخ الدنيا وقذارتها، فما يكون الفقر يا عزوز؟! حين تجوع بطنك، من غير المال يؤمن لك الطعام؟! حين تبلى ثيابك، من غير المال يستر عورتك؟! حين يمرض قريب أو عزيز، من غير المال يؤمن له دواءه؟!.. أم أنك تعشق الفقر؟! تعشق أن تعمل أجيرا لساعات وساعات دون أن تحصل على أدنى حقوقك!.. أن تخرج باكرا وتعود مرهقا دون أن يتسنى لك الاستمتاع بحياتك!.. أن تفني سنوات شبابك في الكد والشقاء، وتتقاعد براتب هزيل بعد ذلك!.. أن تقف في طابور طويل منتظرا الطبيب، ثم تتعفن وتموت

ألما دون أن يأبه لك أو يجيب!.. يوما ما سوف تدرك بطلان نصيحتك، وسوف تدرك أن المال هو الذي ينظف الدنيا من أوساخها..!

همهم عزوز وأدار عيونه في أوقابها ممحصا ما قيل له.. ثم ابتسم كرها وقال:

- لقد أفحمتني هذه المرة! ..

حينذاك اقتعد المتنبي مقعدا بجانبي، وانخرط في الحديث وهو يحرك قهوته بلطف:

- "المال وسخ الدنيا" عبارة لا يرددها إلا أحدُ شخصين، فقير لا يملك المال ولا سبيل له لجمعه، وبخيل حقود يملكه ولا يريد للآخرين أن يجمعوه! ..

ثم أخرج الملعقة من الكوب ونقر بها فوهته ساكبا ما علق بها، قبل أن يضعها على الطاولة ويقول:

- ما غنمناه من ذهب لن يبلغنا ما نرومه من أمجاد؛ ففي زماننا هذا خمسة ملايين درهم لا تعدو أن تكون مصروفا يوميا لثري واحد!.. يلزمنا المزيد من المال، يلزمنا الكثير الكثير منه! ..

هز المهدي رأسه إقرارا بصدق المتنبي، وقال عزوز مستفسرا:

- وكيف لنا أن نعثر على كنوز أخرى؟!

فتباعدت خدود المتنبي بابتسامة ماكرة وأجاب:

- هنالك الكثير من الكنوز التي تنتظر فحولا لاستخراجها يا عزوز؛ وهذا ما يدفعني إلى التفكير في القيام بعملية ثانية! ..

رمقت المتنبي بفضول شديد دون أن أخرج عن صمتي، وتكلم المهدي بلهفة مشتاق:

- عملية ثانية؟! رباه لقد اقشعر بدني من هذه الكلمة!.. آه لو تعلمون كم أعشق العمليات المربحة!

فضحك المتنبي واستدرك قائلا:

- ستكون عملية كبيرة، كبيرة لدرجة أنها قد تكون الأخيرة.. لكن وقبل الخوض في تفاصيلها، على كل واحد منا أن يكشف عن مطمحه ومراده في هذه الحياة؛ فإن اختلفت مطامحنا افترقنا، وإن تقاطعت طرقها أبقينا على اتحادنا وقمنا بالعملية..

وفيما انشغل ذهني في تحليل كلام المتنبي والتكهن بطبيعة عمليته، تنحنح المهدي مسترعيا انتباهنا وشبك بين أصابعه وقد سره الحديث عن طموحه:

- إنكم تشهدون ما يقع في عالمنا من دمار وخراب، وتعلمون أن ما يحول دون تحقيق الأمن والسلام هم جماعة من الأشرار الذين سخروا أنفسهم لخدمة الشيطان، إنهم يخططون ويفرقون ويقتلون وينهبون دون رحمة أو ضمير.. وفي غياب من يقف لهم بالمرصاد؛ سأسخر حياتي للقضاء عليهم واستئصالهم من الوجود!.. إنني أعلم أن مرادي صعب المنال، لكن لي عزيمة تحثني! وإيمانا يقودني!.. أمنيتي أن أنتقم من هؤلاء شر انتقام، ويسود العدل والسلام من جديد!..

صفق عزوز كعادته وأطرقت رأسي ساخرا، ثم شرعت في كتمان ضحكات لم أستطع التخلص منها إلا بعد أن انتهى الأبله من تصفيقه اليتيم وأخذ في التعبير عن هدفه من هذه الحياة:

- أما أنا فأحلم بأن أكون كاتبا مشهورا، أن أكتب روايات فلسفية وقصصا للأطفال!.. إن لدي الكثير من الأفكار، والكثير من الإبداع الذي من شأنه أن يترك بصمتي على الساحة الأدبية ويخلد اسمي بين كبار الأدباء! ..

وبعد أن باركنا جميعا طموح عزوز، التفت الرفاق نحوي، وجعلوا يحدقون إلي منتظرين إفصاحي عما أتوق إلى تحقيقه من مشاريع وأحلام.. بيد أنني خالفت توقعاتهم حين تكلمت قائلا:

- لا هدف لي من هذه الحياة يا رفاق!

فاستغرب عزوز ومالت نظرات المهدي إلى الإشفاق، ثم تأفف المتنبي وضرب كفيه ببعضهما:

- لا يعقل أن تكون بلا هدف! لا يعقل أن تعيش حياتك كالأنعام! عليك أن تحدد هدفا وتجاهد لتحقيقه؛ وإلا فلا لذة لحياتك ولا معنى لها! ..

أضحكتني عباراته التي لطالما وقفت على مثيلات لها في كتب التنمية البشرية، وسكتت لهنيهة وأنا أسترجع بعضا من طموحاتي التي خبت واندثرت.. قبل أن أقرر إخبارهم بها، وأشرع في الكلام قائلا:

- أثناء دراستي بالمرحلة الإعدادية، وأسوة بزملائي الذين بدؤوا بالاكتراث لمستقبلهم، رغبت في أن أصبح طبيبا جراحا.. لقد كان مثيرا بالنسبة لي أن أمدد إنسانا على طاولة العمليات، ثم أفتح جسده طولا وعرضا وأصلح ما به من أعطاب، وحالما أنتهي من تقطيب جراحه؛ أغسل يدي مسرورا بأجر العملية الذي انضاف إلى حسابي البنكي.. أعترف أن رغبتي تلك كانت أقرب إلى ممارسة ميكانيكا الأجساد منه إلى مزاولة الطب، وأعترف أن انخفاض

علاماتي وقتذاك جعلني أبدو قزما أمام أمنيتي الكبيرة، وجعلني أضرب صفحا عن ذلك الطموح! ..

ليقاطعني المتنبي معاتبا:

- ولِمَ ضربت صفحا عن طموحك؟! لماذا لم تجتهد وتثابر؟!

أجبته مبررا:

- لم أستطع.. لقد كنت أمام أقراني المتفوقين أشبه بسلحفاة بين جماعة من الأرانب والفهود! لقد ثبط ذلك من عزيمتي وأرغمني على ترك المضمار..

لكن المتنبي كان أبعد الناس عن قبول تبريري، وأنشد بيتين من أشهر أبياته:

- *على قدر أهل العزم تأتي العزائم*
  وتأتي على قدر الكرام المكارم
  وتعظم في عين الصغير صغارها
  وتصغر في عين العظيم العظائم..

فدافعت عن نفسي بشاهد من شعره:

- *ما كل ما يتمنى المرء يدركه*
  تجري الرياح بما لا تشتهي السفن! ..

ليسكت مفحما.. ويبتسم قائلا:

- لقد أتيتني بعذر لا مهرب لي من قبوله يا أحمد!.. لكن ما الذي حصل بعد تخليك عن أمنيتك؟!
- بعدما أيقنت من استحالة ولوجي إلى كلية الطب؛ قررت أن أرتاد كلية القانون وأصبح خبيرا بالحقوق المدنية.. لقد ظننت أن معرفتي بما لي وبما علي ستربأ بي عن الوقوع في المخالفات،

وستحميني من خداع النصابين والمحتالين.. لكن، وبدلا من أن تكون معرفتي بالحقوق سببا لسعادتي، صارت سببا في شقائي؛ إذ أنني وبعد أول شهر من انخراطي في الكلية، اكتشفت أنني محروم من العديد من الحقوق التي يستمتع بها غيري في بقاع أخرى من العالم.. نتيجة لذلك؛ تركت مجال الحقوق، وقررت أن أتخصص في علم النفس علني أصبح طبيبا نفسيا.. لقد أدركت حينها أن إلمامي بالحقوق لن يسترد للناس حقوقهم ولن يحد من تعاستهم، بيد أن إلمامي بعلم النفس سيمكنني من تقديم إرشادات من شأنها أن تمنع تطور تعاستهم إلى أمراض وتمنحهم مناعة نفسية ضد ما يعيشونه من حرمان.. لكن، ولسوء الحظ، تبددت رغبتي هذه حالما لاحظت أن المغاربة لا يترددون على العيادات النفسية؛ وأنهم يكتفون بالإسرار لبعضهم البعض.. لينتهي بي المطاف زميلا للمهدي في كلية الاقتصاد، وأنكب على دراسة مجالها متعمقا في مختلف فروعه ونظرياته؛ سيما وأنني توصلت في تلك الأثناء إلى أن الاقتصاد هو الذي يحكم العالم، وأن الأنظمة الرأسمالية تضع السياسة في خدمته لتحقيق أهدافها الاستراتيجية؛ فكان من البديهي أن أعلم بأن حصول الناس على حقوقهم رهين بامتلاك دولتهم لاقتصاد قوي، إلا أنني كنت ساذجا حين اعتقدت أن دراستي للإقتصاد ستجعلني قادرا على تقديم حلول لأزماتنا الاقتصادية والنهوض بالبلد من الركود إلى الازدهار؛ لقد أغفلت وقتها أمر اللوبيات التي تسيطر على الاقتصاد وتحتكر أنشطته، والتي تبدل جميع ما في إمكانها للقضاء على المنافسين والإبقاء على هيمنتها الاقتصادية.. وحالما أدركت ذلك؛ فقدت الحماس والرغبة، وصارت دراستي بلا

طموح ولا هدف؛ ذلك أنني كنت أشبه بلاعب يملك ملعبا ويملك جمهورا، لكنه لا يملك كرة ليسجل بها الأهداف!..

ابتسم المهدي وقد حل الاحترام محل إشفاقه وازدرائه، واتكأ على كرسيه وهو يفرك ذقنه قائلا:

- لطالما علمت أنك لست إنسانا فارغا يا أحمد! .. والجميل في الأمر أن هناك علاقة بين طموحي وحالة الركود التي تعيشها!
- لم أفهم!
- إن اللوبيات التي تسيطر على الاقتصاد العالمي هي نفسها المنظمات الشيطانية التي أحلم بالقضاء عليها، وإن حدث وزالت من الوجود؛ فسوف تتاح لبقية العالم فرصة لإصلاح أوضاعهم الاقتصادية.. عندئذ ستحيى آمالك، وستكون الكرة في ملعبك، وقد تسجل العديد من الأهداف! ..

عند ذلك قام المتنبي من مكانه، واعتمد بكلتا يديه على الطاولة متكلما:

- يا سادة، بعد الذي سمعته منكم؛ تبين لي أن أحلامكم بعيدة عن الأنانية والتفاهة، كما تبين لي أن أحلامنا تتشابك وتترابط فيما بينها؛ إذ أنه لن تتحقق أحلام أحمد إلا إذا تحقق طموح المهدي! كما أن طموح المهدي لا يتحقق إلا إذا تحقق مرادي من هذه الحياة! ..

لنسأله بصوت واحد وبنبرة تنم عن الفضول الشديد:

- وما مرادك من هذه الحياة؟! ..

فابتسم رامقا السقف، ثم أجاب وهو يوزع نظراته علينا:

- أن أحكم العراق! ..

عاودتني الرغبة في الضحك مجددا، وكدت أنعته بالأحمق الذي يغالي في أحلامه، إلا أن جهلي بما يربط مراده بطموح المهدي دفعني إلى مجاراته واستفساره:

- وما علاقة حكمك للعراق بالقضاء على المنظمات الشيطانية؟!

فأجابني موضحا:

- إن القضاء على تلك المنظمات لا يتم بالتمني أو بحرب العصابات، وإنما يحتاج إلى قوة استخبارتية وعسكرية قوية، إنه يحتاج إلى دولة بأكملها..!

سكتت مشفقا على حاله، فيما تولى المهدي التعقيب على كلامه:

- إنني أفهمك يا متنبي وأحترم طموحك.. لكن لماذا العراق؟! ألا تدرك أن تعدد طوائفه وتكالب الأمم على ثرواته يجعل من توحيده أمرا عسيرا؟! ولنفترض أن الأوضاع بهذا البلد قد عادت إلى استقرارها، كيف ستقنع شعبه بمقدرتك على حكم بلادهم؟! كيف يقبلونك حاكما عليهم وهم لا يعرفونك ولا يقيمون لك وزنا؟!.. أم أنك ستخبرهم بهويتك؟! هاهاهاها، لا أنصحك بذلك؛ لن يصدقوك يا صاح!..

فتبسم الشاعر الطموح ضاحكا، وأجاب بنبرة هادئة عميقة:

- لعلك نسيت أنني عراقي الميلاد والنشأة يا مهدي، إنه وطني وبلادي التي لطالما أحببتها وعشقتها، إنني أقدم أبنائها وأحق شخص بحكمها.. لقد راودني هذا الحلم منذ قرون خلت، منذ كنت شاعرا يتنقل بين أمرائها وأعيانها، لكنني فشلت.. أتعلمون لماذا فشلت؟!.. لأنني لم أثق بنفسي كفاية، ولأنني اتخذت التودد إلى الملوك ومدحهم مطية لذلك.. أما وقد منحني القدر فرصة أخرى، فلن

أضيعها في التودد إلى الحاكمين، أو في النقاش مع الحاسدين. سوف أستغل خبرة سنيني ودهائي، وسأقضي على كل من يقف بيني وبين مرادي.. أعترف بأن العراقيين شعب شجاع ذكي صعب الانقياد، لكن القليل من البيان الذي أتمتع به، والكثير من المال الذي سنجمعه، مع درايتي بأسرار النفس البشرية، كفيل بأن يتوجني حاكما للعراق ولو بعد حين..

أصدر عزوز همهمة طويلة، وارتشف رشفة من الشاي.. ثم قال:

- وبعد أن ترابطت أحلامكم؛ بات واضحا أنكم ستبقون على اتحادكم، ما يعني أن المهدي وأحمد ملزمان بمرافقتك إلى العراق يا متنبي، أليس كذلك؟

فقال المتنبي مؤكدا:

- تماما يا عزوز ..

ثم استدرك مستفهما:

- لكن، لماذا استثنيت نفسك؟! ألست فردا منا؟!

فأجاب عزوز:

- بلى.. لكن حلمي بأن أصبح كاتبا لا يتقاطع مع أحلامكم؛ الشيء الذي لا يلزمني بالبقاء في هذه الجماعة والسفر معكم إلى العراق..

ليرد المتنبي قائلا:

- يا عزوز، لو اطلعت على الإحصائيات؛ لعلمت بأن العراقيين هم أكثر الشعوب العربية قراءة، ولو كنت تتمتع فقط بالقليل من الذكاء؛ لأدركت أن العراق هي الأنسب للكتاب والمؤلفين..

***

لم يكن الحديث الذي دار بيننا أثناء الإفطار ليجد له قبولا في منطقي هذه المرة.. فالتشويش الذي صاحب موضوع الدنانير أثر في نفسيتي وسلبها الاستعداد لتقبل ما استجد عليها من طموحات المتنبي الكبيرة، كما أن رغبته في حكم العراق كانت - بالنسبة لي - أقرب إلى نكتة منها إلى طموح.. نكتة أضحكتني كلما تردد صداها في ذهني، وكلما تهكمت في تقليد صوت صاحبها قائلا: "أريد أن أحكم العراق!".. كنت أرددها دون كلل أو ملل، وأحيانا أخرى كنت أضيف إليها تعديلات ساخرة: "مرحبا، أدعى المتنبي، وأريد أن أحكم العراق".. "أنا المتنبي، أريد أن أحكم العراق لأنني أستعمل حشيشا قوي المفعول".. وحتى عندما كنت في أقصى حالات تركيزي متسلقا الجبل في طريقي إلى الشيخ عبد الكريم، كنت لا أكف عن استرجاع تلك العبارات والضحك بشكل هستيري.. بل وكنت طيلة تسلقي أتخيل الرفاق في أزياء الأبطال الخارقين، منطلقين إلى السماء والمهدي يقول بنبرة طفل صغير: "وبعد أن نحكم العراق، سندخل في حرب مع المنظمات الشيطانية، وعندما نتعب ونكل؛ سيسرد البطل عزوز قصصه المحششة على أسماعنا لكي ننهض من جديد".. أذكر أنني ضحكت كثيرا.. إلى أن وصلت إلى قمة الجبل وفوجئت بالمتنبي مستلقيا على صخرة من صخورها..

كان يرتدي لباسا غير الذي تركته عليه، جلبابا أخضر مع عمامة حمراء، وينتعل "بلغة" صفراء.. وحينما لاحظ تحديقي إلى ثيابه؛ قام من على الصخرة مبتسما وقال:

- لعلك تتساءل عن هندامي الجديد؟ لقد كلفني ألفا وخمسين درهما يا صديقي!

فرمقته بنظرات ارتياب، وخطوت إليه وأنا أدحض ظنه قائلا:

- لم أكن أتساءل عن هندامك يا متنبي، بل عما تفعله هنا!.. ما الذي جاء بك إلى هذه القمة؟! وكيف سبقتني بعد أن تركتك في البيت؟!
- لقد علمت أنك ذاهب إلى الشيخ عبد الكريم؛ فقررت أن أتعقب أثرك إليه، لكنني فضلت أن أسلك الطريق المعبد على أن أتسلق مقتديا بك وتتسخ ثيابي؛ هكذا سبقتك إلى القمة..

ثم أردف ضاحكا وهو ينظر إلى كندرتي التي اتسخت بفعل التسلق:

- عجبا لأمرك! تترك طريقا معبدا وتتجشم عناء التسلق!

فأجبته وأنا أنفض التراب عن ملابسي:

- لو كنت تعلم أن التسلق هوايتي المفضلة لما تعجبت.. لكن كيف علمت برغبتي في زيارة الشيخ؟! ألم أنهاك عن استنطاق قريني؟
- لم أفعل يا أحمد! وإنما قرأت أفكارك.. فعندما تتحول الأفكار إلى نوايا؛ تظهر لي كأنوار واضحة للعيان، وأضطر إلى قرائتها دون مشاورة أو استئذان..

همهمت كمن يسمع خبرا إنشائيا لا يسعه تصديقه أو تكذيبه، وألقيت بنظري إلى مدرسة الشيخ التي كانت تبعد بأمتار قليلة عن موقفنا، وإلى سرب البغال والسيارات المصطفة عند مدخلها.. ثم سألت المتنبي :

- ولأي شيء تريد مقابلة الشيخ؟! ثم لماذا اخترت أن تقتفي أثري بدلا من أن تصارحني من البداية وترافقني؟!

فوضع يده على منكبي وسار بي نحو بناء المدرسة العتيق وهو يجيبني :

- لقد قصدته لأسأله عن شيء يهمني، ولقد فضلت أن أتعقبك تجنبا لرفضك الذي سألقاه لو طلبت مرافقتك؛ فحسب تحرياتي، الشيخ عبد الكريم فقيه جليل وعلامة نزيه لا يحب أعمال السيمياء ولا يحب العاملين بها، وبما أنك قد جلبتني عن طريق السيمياء؛

فسوف تسعى جاهدا لكيلا يطلع على الأمر، وسيكون من البديهي أن ترفض مرافقتي إليه، خصوصا وأنك تعلم أن احتكاكه بالجن الذين يعلمهم القرآن قد يسهل عليه من كشف حقيقتي..

فتوقفت عن السير حين ذكرني كلامه بحقيقة لم أحسب لها حسابها، وأمسكت برأسي لاعنا غبائي:

- اللعنة!.. لا أصدق أنني نسيت كره الشيخ وبغضه للسيميائيين!

في تلك الأثناء، استدرت باتجاه الطريق المعبد وفضلت أن أعود أدراجي على أن أقابل الفقيه.. لكنني سرعان ما أدركت أن ذهابي لن يغير من الأمر شيئا ما إن لم أمنع المتنبي أيضا من مقابلته؛ فرجعت إليه وسحبته من ذراعه قائلا:

- فلنذهب من هنا قبل أن ينكشف أمرنا يا قرين! ..

لكن المتنبي أبى الاستجابة لطلبي وتسمر في مكانه وهو يقول:

- كلا.. لن أعود قبل مقابلة الشيخ؛ ما أريد معرفته منه أهم من عاقبة اكتشافه لهويتي!

فصرخت في وجهه منفعلا:

- أتريد فضحي؟!

ليرد علي بصوت لا يقل قوة:

- ليست مشكلتي! ..

وفيما وجمت حائرا أتلمس مخرجا من مأزقي، قرع أسماعنا صوت جهوري عميق النبرات:

- لم هذا الصراخ أيها الشابان؟!

التفتنا إلى مصدر الصوت.. فإذا هو الشيخ عبد الكريم، يقف عند باب المدرسة بجلبابه الرمادي وعمامته البيضاء ويحدق إلينا بعينيه الغائرتين مستغربا.. فسكتت وأنا أحملق في لحيته البيضاء التي تتجاوز صدره، وإلى استقامة قده التي لا تشي بعمره.. إلى أن همس المتنبي في أذني متعجبا:

- من النادر أن تصادف عجوزا بهذ الصوت القوي!

فبادلته الهمس قائلا:

- ومن النادر أن ترى مئويا بهذا القد الرشيق!
- مئوي؟
- نعم يا صاح.. مئة وعشرون سنة!

ثم أردفت وأنا أربت على كتفه:

- اسمع يا متنبي، سوف أكلمه أولا وسأخبره بأنني لا أعرفك، وبعد أن أنتهي معه؛ سأبتعد، وستتقدم أنت لسؤاله دون الإشارة إلى موضوع السيمياء.. اتفقنا؟
- حسنا لك ما تريد..

تقدمت نحو الشيخ بخطوات موزونة، ثم انحنيت على يده مقبلا إياها ظهرا وباطنا:

- السلام عليكم سيدي عبد الكريم.. أعتذر عما صدر مني قبل قليل! لقد كنت في جدال مع ذلك الغريب حول أحقيتي بمقابلتك أولا..

فرمق المتنبي بنظرة فاحصة.. ثم سألني بصوت رصين:

- من أنت يا ولدي؟ وما حاجتك؟

فوضعت يداي خلف ظهري.. وأطرقت رأسي وأنا أجيبه قائلا:

- أنا أحمد، نجل المرحوم الحسن نجم الدين بن سليمان الحداد..

كبّرَ الشيخ مبتسما.. ومرر راحته على رأسي والهواء يداعب لحيته:

- سبحان الله!.. لقد مر المرحوم جدك بخاطري قبل قليل، ثم مر بك القدر إلي.. سبحان الله!.. سبحان الله..!

فاستبشرت بذلك وقد ازداد اطمئناني إليه، ثم سألته قائلا:

- أكنت صديقا لجدي؟!

وأجابني وهو يهز رأسه مؤكدا:

- أجل.. لقد كان أعز أصدقائي وأحبهم إلى قلبي، وإن لي معه مواقفا وذكريات لا تُنسى، بل إنني من سما أباك وذبح عقيقته..

ثم سكت وقد خنقته العبرات.. ومسح بطرف كمه دمعات تسللت من عينيه:

- أطلعني على حاجتك يا حفيد سليمان؟!

تمهلت قليلا قبل إطلاعه على مشكلتي، وسكتت منشغلا بفرز أحداث المقبرة، منتقيا التفاصيل التي تخدم مصلحتي من التي قد تسيء بسمعتي.. وحالما توصلت إلى الحبكة التي لا تتعارض مع جوهر المشكلة؛ حكيتها على أسماع الشيخ دون الإشارة إلى هوية المتنبي.. بينما راح يصغي إلي بإمعان شديد إلى أن انتهيت من السرد وأضفت مستفسرا:

- أيحل لي ما أعطانيه الشريف؟

وقبل أن يجيبني دخل المدرسة، وأمر طلابه بالقراءة.. ثم خرج منها وقد اقشعر بدني من التراتيل التي ملأت المكان، واصطحبني إلى ظل زيتونة نمت على بعد خطوة من الحافة وهو يقول:

- لقد اتفق علماء الأمة على جواز استخراج الكنوز ما لم يُعرَف صاحبها.. وحسب ما حكيته لي من استعانة الشريف بصديقك الزهري وتلاوته للتعاويذ الغريبة، فهذا يدل على أن الكنز كان

مرصـودا، أي فـي ملـك الجـن.. وبمـا أنـك لـم تتـورط فـي عمليـة استخراجه وإنما انتقل إليك جزء منه كمكافأة وهدية؛ فلا حرج عليك.

- أيعني هذا أنه حلال؟!
- أجل يا بني.. حلال عليك، لكنه على الشريف حرام.
- وما الذي حرمه عليه يا شيخ؟
- لقد انتزعه من الجن غصبا.. كون الجن مخلوقات مغايرة لا يبيح لنا الاعتداء عليها وحرمانها مما سبقتنا إلى امتلاكه!
- أجل.. لقد صدقت يا شيخ..
- فلتـنعم بمـا آتـاك الله، ولا تـنس أن تنفـق خُمُسـهُ علـى الفقـراء والمساكين.
- خمسه!!
- أجل، خمسه، هكذا تنص الشريعة..

قبلت يد الشيخ مجددا، وتراجعت خطوتين إلى الوراء وأنا أستأذنه، ثم ابتعدت عنه فيما تقدم إليه المتنبي في خيلاء تأنف من أن تتواضع.. ووقف أمامه دون أن يفشي السلام، ثم قال وهو يمسح محيط المدرسة بناظريه:

- دواب وسيارات "رانج روفر"!.. أرى أن شهرتك تستقطب الأثرياء والفقراء معا يا شيخ!..

فابتسم الشيخ.. وجلست على الصخرة متظاهرا بتعديل رباط جزمتي، قبل أن يعقب على كلام المتنبي بنبرة صافية هادئة:

- بل هو القرآن يا بني.. حب القرآن يجمع الناس على اختلافهم..

ثم استأنف وهو يحدج إلى المتنبي بنظرات التعجب والاستفهام:

- من أنت أيها الغريب؟! وما حاجتك؟!

فضحك المتنبي من أعماق قلبه، وسكت قليلا.. ثم أجاب والفخر يملأ وقفته ولهجته:

- أنا أحمد بن الحسين العراقي، أديب ومحارب وفيلسوف مفكر.. لقد جالست العديد من العلماء بحثا عن جواب لسؤالي، لكنهم لا يعلمون!..

استند الشيخ إلى الشجرة، وقال وقد ضم يديه ورفع حاجبيه:

- وعن أي شيء كنت تسألهم؟!

فرد المتنبي وهو ينظر إليه بنظرة عميقة:

- عن اسم الله العظيم الأعظم!..

ليضحك الشيخ مبتعدا عن سائله، وأضحكَ مستغربا السؤال.. لكن المتنبي أمسك ساعد الشيخ مستوقفا، وكرر السؤال مصرا على معرفة الإجابة:

- ما اسم الله العظيم الأعظم؟

أجاب الشيخ وقد ارتسمت معالم الريبة على محياه:

- لا علم لي به يا بني! ..

فترك المتنبي يد الشيخ، وهم بالانصراف والخيبة تتملكه.. بيد أن الفقيه استوقفه بدوره:

- مهلا يا ولدي، ألا تعلم أنه اسم لا يصلح لأغراض الدنيا؟! ألا تعلم أنه اسم يلهمه الله لمن يشاء من عباده الأتقياء؟!

ارتسمت على وجه المتنبي ابتسامة صفراء سرعان ما تلاشت، وابتعد عن الشيخ بفضاضة دون أن يودعه، ثم أقبل إلي ووقف أمامي هامسا:

- سحقا!.. لقد ظننت أن الجواب سيخطر على ضميره بمجرد أن أسأله، لكن تبين أنه لا يعرفه، كما أن قرينه لم ينفعني بشيء يستحق الاهتمام!.. هيا فلنرحل من هنا! ..

وقبل أن أوبخه على فضاضته تجاه الفقيه، ناداه هذا الأخير وهو يسير نحو باب مدرسته قائلا:

- أيها العراقي!.. هنالك شخص قد يعرف جواب سؤالك، لكنني لا أضمن بأن يجيبك عليه..

فالتفت المتنبي إلى مخاطِبه وقد تغيرت نبرته المتعالية إلى لهجة لبقة:

- ومن هو هذا الشخص يا شيخنا الكريم؟

توقف الشيخ عن السير.. وأجاب:

- اسمه فرانشيسكو.. إنه إيطالي أسلَمَ قبل عشرين سنة، لقد صادفته في موسم الحج قبل عامين، ورأيت فيه من الأعاجيب ما جعلني معتقدا عِلمَهُ باسم الله العظيم الأعظم..

فقهقه المتنبي.. وتساءل بنبرة لا تخلو من الاستغراب والسخرية:

- أتريد أن تقول بأن إيطاليا أعجميا حديث العهد بالاسلام، استطاع أن يبلغ ما لم تبلغه أنت الذي أمضيت مئة عام في العبادة على قمم الجبال؟!.. غير معقول!..

ضحك الشيخ يسيرا.. وأجاب بهدوء:

- ذلك فضل الله يوتيه من يشاء.. صحيح أنني انعزلت على هذه القمة بعيدا عن الفتن وانشغلت بالعبادة وتعليم القرآن، لكن هذا لا يعني أنني الأفضل.. إن الأفضل هو الذي يعيش بين المغريات والفتن ويقاومها، ويدخل في معارك مع شهواته النفسية ويقهرها..

الملوك لا يصبحون ملوكا إلا إذا احتكوا بأعدائهم وانتصروا عليهم، أما أنا فمجرد عبد ضعيف انعزل خوفا على نفسه من الدنيا وفتنها..

فزالت معالم الازدراء من وجه المتنبي، وأطرق عينيه لما بدا له الجواب معقولا.. ثم قال:

- وأين أجد الإيطالي؟!

أجاب الشيخ:

- إنه يقطن مدينة فاس، ويملك متجرا لبيع المجوهرات في حيها القديم.. إن وجدته، فلتبلغه سلامي..

ثم دخل الفقيه مدرسته.. وطفقت أرمق المتنبي مستهجنا وقاحته واستعلاءه على العالم الجليل.. إلى أن انتبه إلى نظراتي الساخطة وسألني متهجما:

- ما بك؟!.. لماذا تحدق إلي هكذا؟!
- عجبا لك!.. ألا تحترم العلماء؟!

قهقه مرة وأخرى، ووضع يديه في جيْبَيْ جلبابه وهو يقول:

- علماء؟!.. أتريدني أن أتواضع له، وأنحني له، وأقبل يده، فقط لأنه يحفظ كتبا معدودة؟!.. لا تنس أنني أكبر منه عمرا، وأغزر منه علما..

سكتت وقد ازدادت نظراتي حدة.. واسترسل كلامه قائلا:

- ويحكم، بمجرد أن تصادفوا طويلب علم ذا لحية طويلة وجلباب؛ تلعقون يديه طلبا للفتاوي والبركات.. تتساءلون لماذا ازدهرت التجارة بالدين وانتشر النفاق! وتجهلون أنكم من يشجع الدجاجلة على ذلك! ..

فصرخت في وجهه مجادلا:

- لن أسمح لك بالانتقاص من قدره!.. إنه رجل عظيم زاهد تخلى عن شهوات الدنيا وملذاتها لكي يشتغل بالقرآن ويُعلّمه..

ورَدَّ المتنبي على الفور:

- لا أحد يزهد في الملذات والشهوات.. صنف يستهلكها في الدنيا، وصنف يؤجلها للآخرة لأنها أجود وأكثر لذة هناك..

ثم جذبني من ساعدي وأردف:

- هيا بنا يا أحمد، سوف نعرج على البيت ونسافر إلى فاس.
- إلى فاس؟!
- أجل، أريد أن ترافقني لمقابلة الإيطالي.
- لا عمل لي مع الإيطالي!.. عدا عن ذلك سأنشغل بإنفاق خمس حصتي من الذهب، كما علي أن أخبر المهدي وعزوز بضرورة فعل ذلك..
- لا أعتقد أننا سنجدهم في البيت، لقد كلفتهم بمهمة استطلاع تتعلق بعمليتنا الكبيرة، في هذه الأثناء قد يكونون في طريقهم إلى محطة الحافلات..
- المحطة؟!
- أجل يا أحمد عليهم أن يسافرو إلى مدينة الرباط.. سنقوم بعمليتنا في مدينة الرباط..

سكتت لهنيهة وأنا أحدق إلى المتنبي محاولا أن أفهم ما استشكل علي.. وعندما عجزت عن ذلك؛ قلت له مستفسرا:

- مهلا!.. مهلا!.. لقد فاتني الكثير على ما أعتقد، هلا شرحت لي ما يقع؟!

فضرب على صدري، وقال مبتسما:

- اسمع يا صاح، سنأخذ ذهبنا من البيت، وسنشد رحالنا إلى فاس، وحالما ننتهي من مقابلة الإيطالي، سنوافي الرفاق إلى الرباط.. عندئذ ستفهم كل شيء..

من المافيا إلى الإسم الأعظم !

فـاس.. إحـدى أعـرق مـدن المغـرب وأقـدمها علـى الإطـلاق، عاصـمته العلميـة، وأول عاصـمة إداريـة عرفهـا تاريخـه.. بنايـات بديعـة ترشـح عراقـة وأصـالة، وأزقـة مبلطـة ضـيقة لا تتسـع إلا للإنـس والحميـر.. طـرب أندلسـي ينساب إلى أسماعك من حين لآخر، ونسيم ممزوج برائحة البخور والتوابل.. بهذا الوصف راق لي أن أصف المدينة وأنا أتجول في حيها القديم، حي لم يمنعني ضيق أزقته واكتضاض العابرين بها من التوقف والتحديق إعجابا بواجهـات دكاكينـه، حتـى أن المتنبـي الـذي يـأنف مـن أن يبـدي إعجابـه بمـا يعجب الناس، أفلت حقيبته المدولبة من يده؛ وراح يتفقد قميصا قد علقه أحـد الباعـة علـى واجهـة متجـره.. تعجبـت مـن قيامـه بـذلك، واسـتغربت أن يغفل عن حقيبة مملوءة ذهبا من أجل قميص رخيص، فعمدت إليها وأنا أجر حقيبتي التي أعيـاني جرهـا، وأمسكتها حرصا مني على ألا تضيع أو تسرق وسط الزحـام.. وحالمـا انتهـى مـن معاينـة القمـيص؛ تركـه وعـاد إلـى حقيبتـه مبتسما وهو يقول:

- لقد استلهمت معنى بليغا من ذاك القميص!

فألقيت بنظرة خاطفة إلى القميص، وأشحت عنه وأنا أفسح الطريق لبغلة محملة بالبضائع.. ثم سألت المتنبي متعجبا:

- وهل يستحق هذا المعنى أن تجازف بذهبك كله من أجله؟!

فأجابني وقد شرع في جر حقيبته من جديد:

- المعاني أبقى من الذهب، إنها تحمل قيمتها في ذاتها.. أما الذهب فلا قيمة له إلا بما يمكن أن يشتريه..
- حسنا.. وما المعنى الذي استلهمته يا شاعر؟!
- لقد كتبوا على القميص عبارة.
- أي عبارة؟!
- "أنا مغربي وأفتخر".. هذا ما كتبوه يا أحمد.
- وما الملهم في ذلك؟!

فتوقف عن السير ضاحكا، والتفت إلي قائلا:

- هذا مغربي ويفتخر.. وذاك تونسي ويفتخر.. والآخر عراقي ويفتخر.. لكن بأي شيء يفتخرون؟! ..هل بالأرض التي هي نفسها عند كل منهم؟!.. أم بالراية قطعة الثوب التي لا تختلف إلا لونا؟!.. أم بالتاريخ الذي لا يعرف صحيحه من كذبه؟!.. أم بالأجداد الذين ماتوا ودفنوا قبل أن تتشكل الحدود نفسها؟!

ولما هممت بأن أذكره أن حب الأوطان من الإيمان، عقد بين حاجبيه ورمقني بنظرة عميقة وقال:

- أليست الأرض واحدة؟! أليس الناس من أب واحد؟! إذن، لماذا يحددون حبهم وافتخارهم في قطع أرضية دون غيرها؟!

فعدلت عن تذكيره بعد الذي سمعته منه، وانقاد فكري إلى تحليل كلامه وأنا أراه يعترض طريق حمال يمر بعربته من أمامه.. فظننت أنه سيستعين به في حمل حقيبتينا الثقيلتين، وطفقت أنتظر ذلك مراقبا حركات شفاههما التي لا تصلني أصواتها؛ غير أن الحمال تصرف عكس توقعي، وأشار بيده إلى متجر على بعد خمس دكاكين من موقفي؛ ليخرج

المتنبي مالا من جيبه ويدسه في كف الحمال شاكرا إياه، ويلتفت إلي مخبرا بعد أن استأنف الحمال طريقه وسط الزحام:

- لقد صار اسم الله العظيم الأعظم أقرب لي من أي وقت مضى!.. لقد دلنا الحمال على دكان فرانشيسكو!

فدلف المتنبي إلى المتجر بخطوات هادئة تعكس مدى إجلاله لما يود الحصول عليه، فيما تأنيت متأملا واجهة المحل التي بدت أكثر فخامة من التى تجاورها، متأملا في اختلاف المجوهرات التي زينتها، وفي بريق القلائد الذهبية التي كانت أكثر لمعانا من الدنانير التي كنت أحملها في حقيبتي.. لا أنكر أنني احتقرت جمال ذهبي لحظتها، بيد أنني سرعان ما ابتسمت حين تذكرت أنه أكثر كمية من الذي أراه أمامي؛ ليخبو إغراؤه على الفور، وأنصرف عنه داخلا المتجر عبر بوابته الواسعة الشديدة الإضاءة.. وحالما انتهيت إلى ردهته التي كانت أشبه بمتحف منه إلى دكان مجوهرات؛ انبهرت بحسن التصميم، وببراعة استغلال الإضاءة والمساحة في إبراز محاسن الحلي، سيما وأن طريقة عرضها كانت فوضوية ومنظمة في الوقت نفسه.. أكاليل ذهبية على الرخام، وأقراط منثورة على الحرير.. سلاسل تتدلى من السقف، وأساور مصفوفة على الجدران.. وبين كل قطعة وقطعة، نباتات وخرير مياه يوحي بالنعيم.. وفي عمق المتجر كانت هناك زبونة شابة في كامل زينتها، ترتدي فستانا أحمر وتحاول أن تغلق قلادة عند منابت شعرها الأسود الطويل.. فاقتربت من المتنبي الذي تظاهر بالاهتمام بمجموعة من الخواتم الرجالية، وهمست له ضاحكا:

- أمازلت تظن أن اسم الله العظيم الأعظم في هذا المكان يا متنبي؟!

فرمقني بنظرة استفهام وقال:

- وما الضير في ذلك؟! أم أنك ترى ما لا أراه يا أحمد؟!

ثم أجبته وأنا أجيل بصري في أرجاء المتجر:

- يكفيك أن تنظر إلى ما حولك! ألماس وذهب وفضة، وفتاة شبه عارية!.. كل المؤشرات بعيدة عن الزهد والتقوى يا صاح!

فضحك المتنبي قليلا، وقال وهو يجرب خاتما على خنصره:

- يا لك من غر!
- أنا غر؟!
- أجل يا أحمد؛ أنت غر عديم التجارب، قليل المدارك..

لأقول له مستوضحا:

- هلا تفضلت ونورتني يا واسع المدارك؟!

فأجاب وقد وضع يده بين منكبي:

- إن المظاهر خداعة..

رددت عليه بعجالة:

- إن كان فرانشيسكو هذا حاملا لاسم الله الأعظم، لماذا يرضى القعود في مكان لا يخلو من الإغراء؟!

فأجاب وقد ارتفعت حواجبه متعجبا:

- سبحان الله؟! ألا تذكر ما قاله الشيخ؟! أنسيت بأن الأقوياء هم الذين يعيشون بين المغريات دون أن تلتفت إليها قلوبهم؟!

لأضحك من كلامه قائلا:

- والآن صرت تأخذ بكلام الشيخ وأنت الذي لا يتورع عن الانتقاص منه!

فرد قائلا:

- اسمع يا أحمد، لطالما تظاهر أصحاب الأسرار بمظاهر تناقض مضمون أسرارهم..
- لم أفهم يا شاعر!
- اسم الله الأعظم هو أرقى سر قد يعرفه إنسان، ألا تتفق معي؟
- أجل يا متنبي، أتفق معك.
- وأنت تعلم جيدا بأن أغلب من يريدون معرفة هذا السر، هم من الفقهاء والعلماء المتدينين، أليس كذلك؟
- تماما.. أتفق معك..

ثم ابتسم المتنبي وقال:

- إذن فأأمن مكان قد يحفظ الله سره فيه، هو المكان الذي لن يتوقعه أحد من هؤلاء العلماء والمتدينين.. ما يعني أن مكانا كهذا هو الأنسب لشخص يحمل سرا كبيرا كهذا..

مرة أخرى بدا جواب المتنبي منطقيا، وكالعادة، أثار تفسيره هذا زوبعة كبيرة في ذهني.. زوبعة لم يخرجني من دوامتها إلا منظر فرانشيسكو وهو يخرج من باب حجرة تقابل موقف الزبونة الشابة.. لقد بدا كهلا أزهر في عقده الخامس، متوسط القد، بشعر مموج قد غزا الشيب معظمه، وجبين واسع ينتهي إلى حاجبين حادين وعينين فاتحتين، مع أنف مستقيم أشم يوحي بالأنفة والقوة، غير أن لحيته الخفيفة وابتساماته المتكررة؛ أضفت عليه وداعة وطيبة، عدا أنه كان يرتدي كنزة خضراء أظهرته لطيفا مسالما.. فجعلتُ أتفرس في مظهره فيما توجه إلى الشابة

وأخذ يخبرها بمعلومات عن القلادة التي اختارتها، قبل أن يميل المتنبي على أذني هامسا:

- عندما تنصرف الفتاة، تقدم إلى فرانشيسكو وتكلم معه..

فحدقت إليه مستغربا:

- ماذا سأقول له؟! وما حاجتي بالحديث إليه؟!
- كما تسمع.. اختلق أي موضوع لتجاذبه أطراف الحديث حتى يسعني استنطاق قرينه وقراءة أفكاره في منتهى الإرتياح..

وجمت في مكاني وأجبته مترددا:

- ممم.. لكن.. لا أدري بأي موضوع سأفاتحه!

فحدجني المتنبي بنظرة جادة وهو يقول:

- لقد جئت مصمما على أخذ الاسم الأعظم، فلا تفسد علي عزمي بأعذارك الواهية!.. تقدم إليه وحادثه في أي شيء، وأطل معه الحديث!..

انصرفت الفتاة وتقدمتُ نحو فرانشيسكو وأنا أبحث عن موضوع أفتحه معه.. وبمجرد أن بادرني بالبشاشة والابتسام؛ مددت له يدي وصافحته على الفور:

- مرحبا سيد فرانشيسكو، أدعى أحمد ولقد جئت إليك في موضوع هام..

في تلك اللحظة كان المتنبي يطرق رأسه ويضع يده في جيبه مترقبا، فيما حرك فرانشيسكو رأسه باهتمام وقال لي:

- على الرحب والسعة سيدي.. تفضل!..

فجلبت حقيبتي ووضعتها أمامي وأنا أشير إليها قائلا:

- إن معي ذهبا أريد بيعه..

نظر فرانشيسكو إلى الحقيبة مطولا.. ثم أشار علينا بالدخول إلى مكتبه الذي لا يقل تصميمه جمالا عن بقية المتجر.. فجلست إلى يمين المكتب وسرحت محدقا إلى المصابيح التي اتخذت شكل فقاعات بلورية تمتد على طول السقف وعرضه، إلى أن وطأ المتنبي على قدمي ولفت انتباهي إلى مضيفنا الذي كان يبتسم في وجهي منتظرا انتهائي من التحديق.. فأخرجت بضعة دنانير من حقيبتي وطرحتها على المكتب؛ ليحمل واحدة منها ويبدأ في معاينتها وهو يسألني:

- أكنتَ في تركيا؟!

أجبته مستغربا:

- لا!

ليسأل مجددا:

- إذن كنت في سوريا؟!

أجبته باستغراب أكبر:

- لا!.. لماذا؟! ما الأمر؟!

فأوضح تساؤلاته قائلا:

- لاشيء.. فقط استغربت امتلاكك لدنانير تعود للدولة البزنطية!.. هل بإمكاني أن أعلم كيف حصلت عليها؟! هذا إن كنت لا تمانع طبعا..

- ما من مشكلة سيد فرانشيسكو.. لقد حصلت عليها كمكافأة من صديق ينقب عن الكنوز، هذا الآخير قام بانتزاعه من الجن الراصد..
- آه.. هكذا إذن.. لعلها من الكنوز المتحولة..
- عذرا سيدي، لم أفهم!

فتوقف فرانشيسكو عن فحص الدينار وأعاد وضعه على المكتب قائلا:

- للجن دول وأنظمة وتحالفات مثلنا، وكما جرت العادة في جميع المجتمعات، تنشأ صراعات ونزاعات تتطور إلى حروب وغزوات.. فيموت البعض، ويقاوم البعض، فيما يغادر آخرون حاملين أموالهم وكنوزهم إلى أوطان أكثر أمنا واستقرارا..
- ممم.. أتعني أن الكنز لجن نزحوا من بزنطة؟
- ربما، لكنه يبقى مجرد افتراض..

فسكت قليلا، ثم أردف:

- قل لي.. كم معك من هذه الدنانير؟

ترددت في إجابته لهنيهة.. ورمقت المتنبي مستشيرا، فأومأ هذا الأخير موافقا، وأجبت الإيطالي:

- معي ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارا ذهبيا ، ومع رفيقي مثلها..

همهم فرانشيسكو.. وشبك يديه على بطنه قائلا:

- إن القوانين التي تنظم معاملاتنا مع الزبناء، تجرم كل بيع وشراء لذهب لا يتوفر على قسيمة أو ترخيص.. لكن، بإمكاني إرشادك إلى من يشتريه إن أردتَ.. إلا أنني لا أنصحك ببيعه أبدا..

سألته مستغربا:

- ولمَ لا أبيعه؟!

فأجاب بسؤال آخر:

- تستبدل ذهبك برزم من الأوراق!.. أيبدو لك هذا منطقيا؟
- كل الناس تفعل ذلك.
- لم أسألك عن الناس.. هل يبدو لك ذلك منطقيا؟!
- لا.. ولكن لهذه الرزم من الأوراق قيمة أيضا.
- هذه العملات الورقية ستنهار يوما ما..
- ومن قال ذلك؟
- الدراسات الاقتصادية.. إضافة إلى ذلك، ما تطبعه المصارف من أوراق أكثر بكثير مما تملكه من ذهب.. نصيحتي إليك يا بني، إن كان لك ذهب فلا تبعه، وإن كان لك مال فلا تبذره، بل استثمره..
- وفي أي مجال أستثمره؟
- في الذهب.
- وكيف سأشتري ما يلزمني إن كنت لا أبيعه؟!
- تعلّم المقايضة؛ ذلك أسلم لك من أن تستيقظ ذات صباح وتكتشف أن أوراقك النقدية صارت بلا فائدة..

بعد كلامه هذا، أدركت أن مسألة البيع صارت موضوعا مغلقا.. فشكرته شكرا جزيلا، وهممت بالانصراف، لكن المتنبي وطأ على قدمي مستمهلا وقال:

- لقد أسدى إلينا فرانشيسكو نصيحة قيمة.. رجل صالح مثله، لا يحسُن أن نبرح مكانه دون أن نتعرف عليه ونطلب صداقته.. أليس كذلك؟

ابتسم الإيطالي وعليه أمارات التواضع شاكرا، فيما ابتسمت ضاحكا من مكر المتنبي ومديحه الذي يروم منه كسب المزيد من الوقت لقراءة أفكار فرانشيسكو.. فعدت إلى مقعدي، بينما استرسل المتنبي حديثه قائلا:

- في عالمنا المليء بالجشع، يندر أن نصادف رجلا نزيها مثلك يا فرانشيسكو.. لقد تبين أنك أحرصُ منا على أموالنا..

أجاب فرانشيسكو وهو يضع يمناه على صدره:

- العفو سيدي، إنما وددت أن ألفت انتباهكما إلى ما قد تؤول إليه الأوضاع.. على ذكر الصداقة، من أنتما؟ ومن أين جئتما؟

فعرَّف المتنبي بنفسه دون الإشارة إلى حقيقته:

- اسمي أحمد بن الحسين، كوفي عراقي المنشأ.. أديب وفيلسوف، أحب السفر والمطالعة وركوب الخيل..

وعقب فرانشيسكو:

- سررت بمعرفتك سيد أحمد..

ثم التفت إلي وقال:

- وأنت أيها الفتى.. من تكون؟

أجبته قائلا:

- اسمي أحمد نجم الدين.. مغربي من بلدة تافراوت، تخرجت من كلية الاقتصاد.. وأنا على النقيض من رفيقي، لا أحب الخيل ولا أحب السفر والتجوال..

فابتسم الإيطالي وقال:

- سررت بمعرفتك.. لكن، ربما عليك أن تعيد التفكير في مسألة السفر والتجوال.

- لِمَ؟
- إن الإنسان الذي يجول يكتسب منظورا شاسعا عن الحياة، عقليته المرنة تستطيع أن تكيفه مع مختلف الظروف.. أما الذي يلزم مكانا واحدا؛ فغالبا ما يتجمد عقله على تفكير عقيم؛ فيخاف من كل جديد، ويستعظم كل بسيط، ويغرق في كوب ماء..

فعقب المتنبي منشدا:

- *ومن يتهيب صعود الجبال؛ يبقى أبد الدهر بين الحفر..*

وعلقت على بيته منتقدا:

- لمَ يتهافت الجميع على بلوغ القمم يامتنبي؟!.. إنني أعيش على قمة جبلية ولا أرى لذة في ذلك! أم لعلني من عشاق الغوص الذي يفضلون الأعماق الخفية؟!..

فأعرض عن كلامي ورد بنبرة يملؤها التعالي:

- القمم للملوك.. القمم للملوك..

قبل أن يرد عليه فرانشيسكو باسما وفي عينيه بريق من الفطنة:

- لكن.. وأنت تصعد إلى القمة لا تنس أن تستمتع بكل لحظة على الطريق، سيما وأن الشخوص والمناظر الجميلة تقل كلما ابتعدنا عن السفوح.. هذا لكيلا ينتهي بك المطاف وحيدا كئيبا وتدرك بعد فوات الأوان أنك قد أضعت الكثير حين اقتصرت على غايتك..

ابتسم المتنبي، وسكت للحظات يهز رأسه.. ثم قال:

- سيد فرانشيسكو.. إن لي حدسا يقول إنك إنسان كثير التجارب، خبير بتقلبات الحياة.. وإني لأود أن تطلعنا على القليل من ذلك؛ طلبا للأنس والنصح معا..

فاستوضح فرانشيسكو عن حسن نية يبتسم:

- عن أي شأن من شؤون حياتي تستخبر يا سيدي الأديب؟

أجاب المتنبي وعلى شفتيه ابتسامة مكر جلي:

- حبذا لو سردت علينا قصة حياتك، وكيف انتهى بك الأمر مسلما في بلاد المغاربة؟

أدركت لحظتها أن رفيقي لم يظفر بعد بمبتغاه، وأنه قد يطيل الحديث لأطول ما يمكنه أملا في استنباط الاسم الأعظم من ضمير فرانشيسكو أو من قرينه.. وعلى الرغم من خبث طريقته ودناءتها، لم يبادر ضميري بتأنيبي على السكوت عن ذلك، بل استحليت اللعبة مستمتعا بينما أجاب فرانشيسكو بسرد قصة حياته دون تردد أو تحفظ:

- سأستهل قصتي بذكر جدي، إنزو بالديني تاجر الرخام الشهير، وعراب المافيا الأشهر في روما، فلا يمكنني الحديث عن عائلتي دون الإشارة إلى إنزو الذي تستمد منه جاهها واحترامها.. قد تستغرب عدم اشمئزازي من ماضيه الإجرامي.. لكن عندما تعلم مدى تقديسنا نحن الإيطاليين لمفهوم العائلة، ووضعنا لروابط القرابة فوق كل اعتبار؛ سيبطل عجبك وستشفع لي، حينما تدرك أن للقدر ألاعيبا ترجح عواطفنا على الضمير الأخلاقي؛ خصوصا عندما يتعلق الأمر بجدي الذي لا أملك إلا أن أحبه، أصلي وتاريخي الذي لا يمكنني التنكر له.. وكيف أتنكر لمن فتحت عليه عيناي، وتعهدني بالحماية والعطف في غياب والداي.. كان يخبرني أن أمي لوتشيا ملاك تسكن السماء وأن أبي باولو قبطان سفينة تجوب البحار، وهكذا مرت السنوات الخمس الأولى من حياتي دون أن أراهما، واقتصرت معرفتي بهما على ما يحكيه لي

جدي عنهما كقصص لما قبل النوم.. استغرق الأمر سنتين أخريين قبل أن يصطحبني جدي إلى المقبرة ونقف عند شاهدة قبر كتب عليها لوتشيا ريناري المتوفاة 1968/1/19.. علمت أنه قبر أمي، وأدركت عندما رأيت التاريخ أنها فارقت الحياة يوم ميلادي.. أتذكر أنني بكيت عدة ليال متواصلة جراء إحساسي باليتم ومعرفتي أني لا أملك أما كالآخرين! إحساس فظيع فقدت معه فضول السؤال عن مصير أبي خوفا من صدمة أخرى! قبل أن يقوم جدي بمسح الدموع عن عيني، ويقول لي كلماته التي ما تزال تتردد على مسامعي: ".. فرانشيسكو لا شيء يستحق أن نبكي من أجله في هذه الحياة، ولا الحياة تستحق أن نتوسل من أجلها.. لا تكن ممن يلهثون لكسب اهتمام من حولهم لكيلا تتعب نفسك وترهقها.. يا بني اعتن بنفسك ولا تنتظر العناية من أحد، وتذكر أنك إن استغنيت عن اهتمام الناس وطلب رضاهم؛ أصبحت أغنى أغنياء هذا العالم.. ".. كلماته هذه كانت مبهمة بالنسبة لي وقتها، لكنها شكلت فيما بعد إحدى الركائز الإيديولوجية التي تمخضت عنها شخصيتي.. وفي ظل وجود رجل قوي مثله؛ كان من المستحيل أن أتأثر بمربيتي سيلفيا ذات القلب الحنون، والتي تبدو أقرب إلى خادمة لي منها إلى مربية.. كانت تلاعبني وتراقبني في صمت، ولا تكلمني إلا جملا قصيرة للاستفسار عن طلباتي أو عند ترتيب غرفتي. وحتى أثناء مراجعتها لواجباتي المدرسية، فإنها لا تنطق إلى بمقدار ما يلزمني لفهم الدروس؛ والسبب في ذلك، يعود إلى أوامر جدي الصارمة التي تفرض عليها الحفاظ على مسافة الأمان أثناء معاملتي خشية أن أتعلق بها، وأتأثر بطباعها الرقيقة.. ولعل هذا ما يفسر ما

التقطته أذناي من حوار لهما ذات يوم، عندما قال لها: " سيلفيا! تجنبي تدليل فرانشيسكو! وحاولي أن تختصري معه الكلام بقدر ما تستطعين؛ إني لا أريد للولد أن يتأثر بطبعك اللطيف فيغدو لينا طري العود كأبيه !".. استغربت شطرا من كلامه! وغاب عن فاهمتي شطره الآخر!.. استغربت أمره لها بالكف عن التصرف معي بلطف، في الوقت الذي لا يتحرج فيه هو عن اللعب معي وتدليلي!. ولعل حداثة سني حينها، منعتني من أن أفهم حرص جدي على ألا أحتك بشخص سواه، ورغبته في تفصيل شخصيتي على المقاس الذي يرتضيه، لكنني احتفظت بالعبارة التي لم أستطع استيعابها إلى أن انفردت بالسائق ماريانو أثناء توصيلي للمدرسة ذات صباح، ثم سألته عن ماهية الشخص الطري العود.. ما زلت أتذكر ابتسامة ماريانو عبر المرآة وهو يجيبني بأنه وصف يطلقونه على الرجل الضعيف الجبان.. وما زلت أتذكر البلبلة التي أحدثتها إجابته تلك في دواخلي، والتي لم أستطع التخلص منها إلا بعدما واجهت جدي في مكتبه، طالبا منه تفسيرا لوصفه أبي بالجبان الضعيف.. في تلك اللحظة لم يستطع الجد أن يستمر في سرد مغامرات أبي القبطان، لقد أدرك أنني صرت كبيرا بما فيه الكفاية ليخبرني بالحقيقة؛ لذلك أخذ بيدي بعيدا عن الخدم وأجلسني بجواره على كرسي في حديقة قصرنا وقال لي: " .. حفيدي، يجب عليك أن تعلم أنني شخص عانى كثيرا قبل أن يصل إلى ما هو عليه اليوم، لقد نشأت في صقلية مزارعا فقيرا حقيرا.. توفي والداي بمرض لم تستطع أجرتي البسيطة ان تدفع تكاليف دوائه، وقتلت أختي الوحيدة أمام عيني ظلما دون أن أقو على الدفاع عنها!.. تعرضت للاضطهاد والظلم مرارا إلى ان

أجبرتني قساوة الظروف إلى الاحتماء بعائلة جديدة وفرت لي الحماية والأمان، وعلمتني أن الطيبوبة والخنوع سياسة لا تنفع في زمن الذئاب والحروب، وبمعيتها انتقمت لأختي، وصرت قويا بعدما كنت ضعيفا؛ عندئذ قطعت على نفسي وعد شرف بأن لا أخون عائلتي الجديدة مهما كلفني الأمر، وأن أظل وفيا لنظامها ما حييت، وهكذا تدرجت في مراتبها بإخلاص إلى أن أصبحت زعيمها.. لكن حدث أن أنجبت ولدا بعد انتقالي لروما.. هذا الولد الذي شاهدته يكبر في كنفي يوما بعد يوم، وعقدت عليه العائلة آمالا كثيرة، قام بخيانتنا! وسلم أسرارنا لأعدائنا بمنتهى الاستسلام.!. لقد كرهت أن أرى فيه عجزي القديم مرة أخرى، وكنت سأقتله وفقا لما تنص عليه أعراف العائلة بخصوص الخائنين، لكن استجابة لتوسلات الفقيدة زوجتي؛ قمت بالإبقاء على حياته ونفيه إلى سويسرا.. هذا الابن يكون أباك، وهذه العائلة هي التي تطلق عليها بقية العالم لفظة المافيا.. إنها قدرنا المحتوم وعالمنا الذي ننتمي إليه يا بني..".. كانت تلك الجلسة المرة الأولى التي أتصور فيها أبي كئيبا حزينا، بعد أن تخيلته لأعوام قبطانا مبتسما يزهو ببزته البيضاء، وأول مرة أكتشف فيها أن عائلتي هي التجسيد الحقيقي لعالم المافيا الذي طالما قرأته كقصص أو شاهدته كأفلام.. لقد رأى جدي حينها أنه الوقت المناسب الذي يجب ان أنفتح فيه على هذا العالم السري، في حين كان الأمر بالنسبة لي أشبه بنضج مفاجئ ومبكر لصبي لم يتجاوز الثانية عشر من عمره؛ وذلك عندما ألزمت باتباع برنامج تمهيدي فرض علي الاستيقاظ مع الرابعة صباحا كل يوم، وأداء حصص من الجري والسباحة وتعلم الرماية، عدا عن تمارين

الملاكمة العالية الكثافة؛ الشيء الذي جعل التداريب على قدر كبير من الصعوبة في بادئ الأمر؛ لاسيما وأنني لم أحظ بفاصل زمني كاف من الراحة بينها وبين الدوام المدرسي، وكنت ألتحق بالفصل الدراسي خائر القوى، منهكا من التعب والإجهاد.. أذكر أنني كنت دوما ما أحاول الاحتفاظ على انتباهي وتركيزي أثناء الدرس، إلا أن الإعياء الشديد كان دوما ما يحول شروحات الأستاذ إلى ترانيم سحرية يحلو معها النعاس، ذاك النعاس الذي تحول مرارا إلى نوم عميق تغاضى عنه الأساتذة أحيانا، ووبخوني عليه أحيانا أخرى.. أما زملائي التلاميذ فلم يكن أحد منهم على جرأة لإيقاظي أو للتحدث معي حتى؛ فلقد كنت أضرب حولي سورا من العزلة والهدوء، وكنت أكتفي بنفسي دون أن تكون لي رغبة في التحدث إلى أقراني أو التعرف إليهم.. هذا الأسلوب الانطوائي الذي تميزت به بينهم؛ منحني هالة من الغموض الذي يجذب حشرية الآخرين وفضولهم لمعرفة شخصي واقتحام عالمي، لكن رغبتهم في التقرب مني سرعان ما كانت تخبو عندما يدركون أنني لست من الذين يؤمنون بالصداقة، وبأن وجودهم في حياتي كعدمه.. لا أنكر أنني أحيانا كنت أعيش وحدة قاتلة من سياستي تلك، إلا أنني كنت أجد السلوان كلما تذكرت وصية جدي التي تقول بأن قوتي ستزداد كلما قل عدد الأشياء التي أخشى ضياعها، وأن نقاط ضعفي ستقل كلما قلت ارتباطاتي بالناس والرغبات.. على هذا النهج واصلت حياتي، مقتديا بما رسمه لي إنزو سلفا، إلى أن استطعت في غضون أشهر قليلة الإلمام بأبجديات المافيا وهيكلتها الداخلية.. كان التنظيم على شكل هرمي تمثلت قمته في جدي زعيمه وأقوى أفراده، يليه

مساعده الأربعيني الأصلع ماريانو، والذي تبين أنه لم يكن مجرد سائق كما يبدو، بل قائدا تحت إمرته خمسة رؤساء، لكل واحد منهم أربعة ملازمين، ولكل ملازم رجاله من المافيوزو.. أما أنا فلقد أهلتني قرابتي المباشرة للعراب بأن أبتدئ برتبة ملازم تحت إشراف ماريانو، دون الحاجة إلى التدرج من أدنى الرتب. نفس العامل الوراثي سمح لي بحضور الاجتماعات التي تنظمها العائلة كل أسبوع، ومجالسة الرؤساء ذوي الياقات البيضاء رغم سني الصغير.. كنت أكتفي بالإصغاء والمشاهدة دون أن أنبس ببنت شفة، وكنت أدون ملاحظات وتقارير عن كل اجتماع؛ بهذه الطريقة تمكنت من الإحاطة بنشاطات العائلة التي توزعت بين التهريب وتجارة الأسلحة وتجارة المخدرات، إضافة إلى إدارة الرهانات وصالات القمار. وعلمت أيضا، أن الأرباح تقسم بنسب تراعي التسلسل الهرمي للتنظيم دون أن يكون لرجال المافيوزو علم بهوية الرؤساء، ودون أن يكون للملازمين علم بهويتي القائد والعراب؛ ما يجعل الرجال المتقدمين في الترتيب في منأى عن المشاكل والتورط لانفصالهم عن التنفيذ بدرجات من السلطة، أضف إلى ذلك أن أغلبهم دكاترة وأصحاب شركات مرموقة؛ الأمر الذي يجعلهم دوما فوق الشبهات.. ولأنهم يملكون المال الذي يعتبر الشيء الأكثر إغراء على وجه البسيطة؛ تمكنوا من بسط نفوذهم في شتى المجالات. لم يقتصر الأمر على السياسة والرياضة فقط، بل تعداها إلى مجالات الأمن والقضاء والإعلام.. الأدهى من ذلك كله، أنهم استطاعوا اختراق الفاتيكان أيضا عبر نشاطات جدي الخيرية، والتي كانت غالبا على شكل مزادات وتبرعات. وإلى جانب الذين يمكن شراؤهم بالمال، كان هناك

نقيضهم الذين لا تستسيغ ضمائرهم أن تباع، هؤلاء غالبا ما يتم ابتـزازهم لـدفعهم إلـى الاستسـلام أو تصـفيتهم عنـد ثبـاتهم علـى الرفض. ومع ذلك كان جدي حريصا على حضور جنازاتهم بنفسه والترحم علـى قبـورهم. لـم أعلـم قـط إن كـان تواجـده فـي عـزاء ضـحاياه نـدما، أم مجـرد طقـس مـن طقـوس المافيـا، لكننـي كنـت علـى يقـين أن جـدي إنـزو هـو المعنـى الحقيقـي للشيطان والماء المقدس كما يقول الكاثوليك؛ فهو قاتل مجرم لا يـرحم، وفـي الآن نفسه محسن يعيل الأيتام ويعتني بالمتشردين.. كثيـرا ما تعجبت مـن قدرتـه علـى الجمـع بـين الأمـرين، مسـتغربا كيـف تسـتطيع ملامحه البريئة وضحكته الطفولية أن تخفي وراءها الروح الأكثر شرا ودمويـة.. علـى الرغم من ذلك كنت أميـل لتبريـر أفعاله على أنها نتاج الظروف القاسية التي عايشها في صباه، بل ومع تقدمي في السن وخلال دراستي الجامعيـة بدأت بإدراك الجانب الحكيم من تربيـة جدي لي؛ عندما لاحظت أن زملائي الطلبة أقل إدراكا لحقيقـة الأمـور، وأنهـم منغمسـون فـي عـالم مـن التفاهـة والـوهم، كانوا يعبدون المظاهر ويصدقون أي شيء يعرضه التلفاز، كانت شخصياتهم ضعيفة وسطحية للغايـة؛ لا يحسـنون سـوى الـرقص والغنــاء وتقليــد نجــوم وأبطــال مــزيفين.. كــانوا يعتقــدون أن المستقبل سيكون رائعا فور الحصول على عمل قار وشريك رائع، وأغلبهم برمج عقله على هاتـه النهايـة السعيدة.. كنت أشفق على هـؤلاء الـذين لا يعلمـون أن هـذا السـيناريو لا يوجـد إلا فـي عـالم الروايــات والأفــلام، وأن المشــاكل وتحــديات الحيــاة تصــاحب الإنسان مادامت رئتـاه تتـنفس الهواء؛ فمقارنـة بهم كنت متبصرا وأكثر نضجا.. لا أخفيكما أنني كنت أشعر بتسلية كبيرة وأنا أنصت

لأحاديثهم عن عالم المافيا وخباياه دون أن يعلموا أنني رئيس لمجموعة منها.. كان أمرا ممتعا شعرت معه أنني ذلك الشبح الذي لا تدركه الأبصار، فكل ما كانوا يعرفونه عني، أنني طالب هادئ وثري يسكن حي باريولي.. في تلك الأثناء كنت قد ناهزت العشرين، مسؤولا عن مجموعة تنشط في تجارة الأسلحة، تضم اثنين وعشرين فردا، ملازمان تحت إمرة كل واحد منهما عشرة رجال، وكنت أوجههم حسب تعليمات ماريانو مع الإبقاء على إمكانية مناقشة المهمات وتعديلها كما تقتضي المرونة دون الخروج عن مبادئ التنظيم الأساس التي تتمثل في الولاء والصمت والشرف؛ لذلك لم يكن من الغريب أن تتسم أعمالي بالاحترافية والكمال، بعكس حياتي الشخصية التي لم يكن لها أن تكتمل دون وجود زوجة كما تفرض سنة الحياة؛ لذلك قررت الزواج، ولأنني كنت شخصا عمليا لا يؤمن بالصدف والمقامرات؛ صممت على أن لا تكون شريكتي امرأة كجل النساء الفارغات اللواتي عجت بهم حقبة الثمانينات آنذاك، لهذا السبب تأنيت، و بحثت طويلا عن هذه المرأة التي تستحق أن أوقع معها عقد شراكة أبدي، إلى أن قادتني تحرياتي إلى ممرضة تنحدر من أسرة علمية عريقة.. كان اسمها ماريا وكان لها من اسمها نصيب.. الكل أحبها، الكبار والصغار، كانت ذات طباع عفوية وعقل راجح رغم حداثة سنها، لا تثير الصخب ولا تتكلم في سفاسف الأمور، ذات جمال آسر ووجه طفولي بريء.. لكن وقبل أن أشرع في وضع خطة للتقرب منها والتودد إليها، حصل ما لم يكن في حسباني عندما التحقت ماريا بدير الراهبات في الفاتيكان واختارت التبتل والانقطاع عن ملذات الحياة.. بدا الأمر صادما لما أيقنت أن

تحولها لراهبة سيجعل الزواج منها أمرا مستحيلا، وشعرت بالعجز عندما أيقنت أن رغبتي بالاقتران بها صارت كرغبة ذلك المجنون الذي يمني نفسه بالصعود إلى السماء وأخذ نجمة منها.. لكنني أبيت أن أكون ضحية للظروف، خاصة وأنني لم أكن وقتئذ مسيحيا بما يكفي لأكون مستسلما للأقدار، وكنت مؤمنا بقدرة النفوذ والسلطة التي أتمتع بهما على صناعة المعجزات؛ لذلك شرعت في البحث عن خطة من شأنها أن تبعد ماريا عن الدير وعالم الرهبنة..

كف فرانشيسكو عن الحكي وأخذ يضحك.. فابتسمت لضحكه مستغربا دون ان أسأله عن السبب، وازداد فضولي لمعرفة ما سيفصح به هذا الإيطالي.. قبل أن يسترسل قائلا:

- كلما تذكرت خطتي تلك؛ شرعت في الضحك!..
- لماذا؟!
- لأنها مظهر من مظاهر الحياة الساخرة، ولأنني عجزت أن أجد لها تصنيفا!.. لم أستطع اعتبارها جرما ولم تطاوعني نفسي أن أعد نجاحها إنجازا مشرفا؛ فتنفيذي لتلك الخطة وقتها لم يكن حبا في ماريا؛ بقدر ما كان إصرارا مني على إبراز مهارتي في الكيد والتخطيط..
- أفهمك، تقصد أنك جعلت ماريا وسيلة وغاية في نفس الوقت !..

ضحك مرة أخرى وأومأ برأسه مؤكدا صحة فهمي، قبل أن تختفي ابتسامته ويقول لي:

- لكنني صرت أشعر بالندم كلما تذكرت ذلك، وسأخبرك بالسبب لاحقا!..

فسأله المتنبي والفضول يتمالكه:

- إذن قل لنا كيف استطعت إقناع راهبة بالعدول عن اختيارها؟!!
- صراحة لم أقنعها بشكل مباشر، بل اخترت أن أكون في موضع الرجل الذي يحكم من وراء ستار كما اعتدت أن أكون دائما، فبعدما أمضيت قرابة الأسبوع في دراسة جميع السبل والعلاقات التي تربط تنظيمنا بالفاتيكان؛ وجدت الشخص المناسب الذي سيمكنني من تنفيذ حيلتي، كان كاردينالا نافذا وكان في استطاعته أن يطرد ماريا من الدير بكلمة منه.. إلا أنني عرضت عليه أن يتم إبعادها عن الدير بتهمة السرقة أملا في خلق عقدة نفسية لدى ماريا؛ يترتب عنها حقد على عالم الدير والراهبات وضمانا لأن لا تلتحق بدير آخر للأبد.. وافق الكاردينال، وسارت الأمور كما أردت لها أن تسير، حتى أن ظروف المناخ اتحدت مع مخططي عندما صادف يوم طردها طقسا ماطرا وفر لي ذريعة مناسبة وفرصة ثمينة لم أتردد في استغلالها.. فبمجرد ما لمحتها تخرج من بوابة الفاتيكان باكية تحت زخات المطر؛ اقتربت منها كشخص نبيل رق لحالها وأعطيتها منديلا لمسح دموعها، طالبا منها أن أقلها بسيارتي إلى حيث تريد الذهاب قبل أن تتبلل ثيابها.. لباقتي تلك ومظهري البريء الذي ورثته عن جدي أشعراها بالأمان وعجلا بها لتقبل عرض إيصالها إلى بيتها.. أذكر أنني أخبرتها أنها أول مرة أرى فيها راهبة تبكي؛ فأخبرتني أنها تعرضت للظلم في المكان الذي يفترض أن لا يظلم فيه أحد وأن حلمها قد تحطم للتو.. قلت لها: "إن السيدة العذراء كانت أما لسيد عظيم ولعل الله أراد لك أن تبتعدي عن الدير لكي يتسنى لك الزواج وتنجبي العديد من العظماء"؛ حينها ابتسمت ماريا قهرا

وضحكت من نكتتي، وضحكت بدوري من الطريقة التي حولت بها شري إلى إحسان.. لكنني لم أستعجل الإفصاح عن حقيقة نواياي وإخبارها برغبتي في الزواج، وفضلت أن يتم التقارب بطريقة ممنهجة توحي بأنني لا أتعمد ذلك، وأن الأمور تسير على سجيتها. فبدأت بخلق مشاكل وأزمات لها من بعيد، ثم الظهور في الوقت المناسب وحلها بشكل لا يثير الشكوك، سعيا في ترك انطباع جيد عني، ولكي أرسم في ذهنها أنني شخص يعتمد عليه.. ولأنني كنت أعي جيدا أن لها نظاما فكريا وعاطفيا تسير عليه كسائر الخليقة، وأن اختراقي له سيسمح لي بالتحكم في زمام العلاقة؛ حرصت على تعلم عاداتها، والتلفظ بألفاظها، والاهتمام باهتماماتها؛ فصارت مع توالي الأيام والشهور ترى في شخصي نفسها؛ مما سهل انسجامنا معا وعبد لي الطريق نحو استمالتها والتأثير عليها، وليتولد لدى ماريا اعتقاد راسخ أنني توأم روحها، ونصفها الثاني المكمل لحياتها.. لكنني لم أتأكد من نجاعة تدبيري إلا عندما تم الزواج رسميا يوم الثالث والعشرين من مارس سنة 1991 وسط حفل بهيج لم يشهد حي باريولي مثيلا له منذ عقود.. ما يجعل ذاك اليوم أكثر رسوخا في ذهني؛ كونه أول مرة أقابل فيها أبي بعد أن سمح جدي بعودته من سويسرا كهدية لي بمناسبة زواجي، فكانت الفرحة فرحة لن أستطيع وصفها ولو تحدثت لسنين. يكفي أن أقول إنني أمضيت الأشهر التي تلت الزفاف مستمتعا باكتشاف شخصية أبي الباهرة، والتي فوجئت أنها غير الصورة السلبية التي كونتها من أحاديث جدي عنه.. إن انبهاري به لم يكن بسبب شخصيته الظريفة وثقافته الواسعة فحسب، وإنما بفضل طباعه الرائقة التي

استطاعت بطريقة ما أن تنسيني سنين غيابه كما لو أنه كان دائما بجواري.. فبالرغم من تحفظ جدي وسطوته التي حرمت لقاءنا من تلك الحرارة التي تليق بابن حرم من أبيه لسنين، إلا أنني ألفته بسرعة واندمجت معه.. في بادئ الأمر لم أجرؤ على سؤاله عن حيثيات طرد جدي له تفاديا لإحراجه.. لكنني عندما لمست منه رحابة الصدر وصراحة القول؛ فاتحته في الموضوع أثناء جولة ليلية، سائلا إياه بصيغة أخف وقعا: " أبي ما الذي دفعك للهجرة إلى سويسرا؟". أذكر أنه توقف عن السير، ثم رمقني مبتسما، قبل أن يجيبني بالخطاب الأكثر تأثيرا في حياتي: " لقد انتظرت سؤالك هذا طويلا يا ولدي، إلا أنني لم أتوقع منك أن تكون لبقا في طرحه هكذا.. ظننت أنك عرفتني بما فيه الكفاية لكي يكون سؤالك مباشرا وتسألني: ماذا فعلت يا أبي لكي تنفى؟ هل أنت جبان حقا كما يدعي جدي؟. لكنك آثرت ألا تكون قاسيا معي وتجرحني لخصلة في قلبك.. إنها الرحمة وما أدراك ما الرحمة، حاولت كثيرا قمعها، لكنها أبت إلا أن تعود وتؤكد لي أنني إنسان لم يخلق للمافيا. أدركت ذلك عندما كلفني جدك بقتل شرطي جاسوس تم ضبطه في مجموعتي، كان أمامي مكبلا ومعصوب العينين.. ظننت أنني بارد الإحساس كفاية لأضغط على الزناد وأرديه قتيلا، لكنني لم أستطع وعفوت عنه ليذهب في حال سبيله.. لم يتقبل أبي الأمر. نعتني بالجبن، وهددني بالقتل، قبل أن يستقر به الرأي على نفيي إلى جنيف.. لم يحزنني الأمر أبدا، بل شكرت الله لتحريره إياي من هم المافيا الذي تورطت به رغما عني، وأدركت أن القوة الحقيقية لا تكمن في امتلاك السلطة، وإنما في القدرة على الاستغناء عنها.. لا تكمن في تصفية

الأعداء، بل في القدرة على الصفح عنهم.. إنها لا تكمن في القسوة بل في الرحمة يا ولدي.. فرانشيسكو إن استطعت الخلاص من عالم المافيا القذر، فلا تتردد.. أقسم لك يا بني، أنك لن تندم أبدا.."

توقف فرانشيسكو عن الكلام مرة أخرى، فيما بقيت صامتا أراقب نظراته الشاردة في الفراغ وهي تنكسر ببطء. كانت علامات التأثر بذكرى والده بادية على صفحات وجهه بوضوح قبل أن تتحول إلى دمعة انهمرت من عينيه، لكنه سرعان ما أخرج منديلا من جيبه ومرره على جفنيه بقوة في حركة أشبه ما تكون بقمع للمتمردين، في الوقت الذي عجزت فيه عن إبداء تأثري وتعاطفي معه كما تقتضي أصول اللباقة خوفا من أن أزيد الطين بلة وأفرج عن دموعه مرة أخرى. فاكتفيت بالنظر إلى الأرض وتقطيب حاجبي كإشارة غير مباشرة لتضامني معه. لكنني لم أدرك سر دمعته وعمق جراحه الحقيقي إلا عندما استرسل الحديث متنهدا:

- اعذراني إن ذرفت الدمع أمامكما؛ فلقد ذكرني خطاب أبي ذاك بالحدث الجلل الذي وقع بعده بأيام قليلة.. حدث قلب حياتي رأسا على عقب، وصنع مني إنسانا آخرا غير الذي كنت عليه.. أذكر أن يوم الحادث كان جميلا ومشمسا، وأذكر أننا تبادلنا النكات حول مائدة الإفطار يومها، وشكرنا الله الذي جمع شملنا من جديد.. كان جدي إنزو سعيدا جدا وهو يحدثنا عن طرائف أصدقائه الصقليين، وكانت أرجاء القصر تهتز لضحكات أبي باولو الذي بدا في أقصى حالات ابتهاجه، أما زوجتي ماريا فلم أراها من قبل أكثر جمالا ونضارة كما رأيتها في ذلك اليوم، كانت ابتسامتها تتلألأ إشراقا كلما تحسست بطنها فرحا بطفلنا القادم..

أحسست لحظتها أنني بلغت ذروتي عندما رأيت الفرح على وجوه أحبتي.. وشعرت أنني حققت الكمال لما أحاطت السعادة بأفراد عائلتي.. عرضت عليهم القيام بجولة في ربوع المدينة القديمة، والاستمتاع بتناول الغذاء في أحد المطاعم هناك.. رحب الجميع بالفكرة، وأمر جدي إحدى الخادمات إبلاغ ماريانو بتجهيز السيارة.. وبعد أن أخذنا زينتنا وتأنقنا في أبهى الحلل، سلمني ماريانو مفاتيح السيارة وضرب على كتفي متمنيا لي جولة سعيدة.. صعد الجميع إلى العربة وتوليت القيادة، ثم سلكنا شارع نومنتانا.. وفي غضون عشر دقائق من المسير، لاحت لنا وحدة تابعة للدرك على ناصية الطريق.. قام دركي منهم برفع يده مشيرا علينا بالوقوف. خففت من السرعة ثم ركنت على مقربة منه.. تقدم نحونا، رمقني بنظرة سريعة، ثم جال ببصره على بقية الراكبين متفقدا أفراد عائلتي الواحد تلو الآخر.. طلب مني بطاقة الهوية، ثم أمرني بالترجل من السيارة ومرافقته إلى سيارة الدرك.. نزلت من السيارة وسط استغراب الجميع.. وقبل أن أصل إلى حيث يقف الدركيون، التفَتُّ على صوت فرملة قوية؛ لأرى سيارة سوداء بنوافذ معتمة تتوقف بمحاذاة سيارتنا.. وقفت واجما للحظة أتبين الوضع، قبل أن يترجل من الكاديلاك أربعة رجال مدججين ببنادق الكلاشنيكوف صوب عائلتي.. شعرت بالذهول والصدمة. وقبل أن يتسنى لي إبداء ردة فعل، باغتني الدركي بإطلاق ثلاث رصاصات إلى صدرى؛ لأسقط على الرصيف مضرجا في دمائي، وأغيب عن وعيي على مشهد الرجال وهم يمطرون عائلتي بوابل كثيف من الرصاص..

خرس لسان الإيطالي وكف عن السرد للمرة الثالثة، وتتابعت الدموع سيلا من عينيه في مشهد أشعرني بالرهبة والحزن معا وأعجزني عن الكلام.. إلى أن عاود فرانشيسكو النطق بلكنة مبحوحة وصوت متقطع:

- بعد خضوعي لعمليتين جراحيتين ومرور شهر من الغياب عن الوعي فتحت عيني في المستشفى..كانت مربيتي سيلفيا بقربي، باكية ترتدي السواد. فهمت من منظرها شيئا، إلا أن خوفي من تحققه وصحتي المتدهورة أخرسا لساني!.. أمسكت سيلفيا بيدي وقالت "لقد رحل الجميع يا بني!.. لقد صرنا لوحدنا !.. فليبارك الرب أرواحهم.." ثم انهارت على الأرض وازداد نحيبها.. أما أنا، فأشحت بوجهي عنها متألما، عاجزا عن البكاء من فرط الألم.. شعرت ساعتها أنني فقدت معنى وجودي بعد أن سلبت مني الحياة أعز أحبائي، ودخلت في حالة بشعة من اليأس والعجز، تمنيت معها أن يهوي السقف من فوقي أو تخسف الأرض بي وتبتلعني.. اختلطت علي أحاسيس الضعف والألم والغضب والرغبة في الانتقام! وكنت أرى كوابيسا عن الحادثة فأستيقظ باكيا أتقيأ.. وأحيانا أخرى أسترجع شريط ذكرياتي السعيدة مع عائلتي، وأدخل في نوبات متواصلة من الضحك الهستيري.. ساءت حالتي كثيرا وهزل بدني إثر رفضي المتكرر للأكل.. فقدت الرغبة في كل شيء ووصلت إلى حالة لم يجد الأطباء معها حلا سوى تهدئتي بالمسكنات والمورفين.. عدا عن ذلك، توالت زيارة المحققين ورجال المخابرات لي، وفهمت من أسألتهم المتكررة أن القتلة كانوا تابعين للمافيا الروسية، وأنهم قاموا بالاتفاق مع ماريانو على تصفية عائلتي، والقضاء على المافيا الصقلية منافسها الوحيد حول سوق السلاح والمخدرات في مناطق

البلقان وشمال إفريقيا.. غيظي وحنقي على خيانة ماريانو لم يطل كثيرا عندما علمت أن القتلة قاموا بقتله أيضا فور حصولهم على قوائم العملاء والأفراد المنتسبين للتنظيم، بيد أن جراحي استمرت آلامها طويلا.. آلام الفراق والتعرض للخيانة من أقرب المقربين، مع العجز عن الانتقام ممن تسبب لي في ذلك كله.. إضافة إلى ذلك، تم اقتيادي إلى السجن فور مغادرتي للمشفى بتهمة الانتماء إلى تنظيم محظور والتورط في صفقات مشبوهة.. ورغم قلة الأدلة، إلا أنني حوكمت بسبع سنوات سجنا نافذا؛ لأفقد بذلك حريتي وأفقد معها كل شيء.. في زنزانتي كنت جسدا بلا روح، فارغا من كل شيء، ما عدت أجد للطعام لذة وما عدت أجد للماء نكهة.. كنت أسمع ضحكات أحبائي وأسمع همساتهم وكنت أرى وجوههم في كل مكان.. كانو يزورونني في أحلامي كل يوم وعندما أستيقظ على فضاعة الواقع المرير؛ كنت أعاود النوم من جديد، هربا من أحزاني إلى عالم الأحلام.. لكن استغراقي في عالم الأوهام لم يمنعني من الوقوع فريسة للإكتئاب. ذلك النوع من الأفكار السوداوية والوساوس التي تتقاطر عليك تباعا، وتقنعك بشكل رهيب، أن استمرارك على قيد الحياة لن تجني منه إلا الويلات والعذاب.. ذات صباح، توصلت إلى قرار نهائي بوضع حد لحياتي؛ فحصلت على شفرة من أحد الحراس، وقررت قطع شرايين معصمي أثناء خلود السجناء للنوم. لكن حدث أن شب نزاع بين نزيلين؛ استدعى حضور المراقبين وتفتيشهم لأغراضنا.. وجد المراقبون الشفرة بحوزتي فأخذوها مني، وقاموا بنقلي إلى زنزانة أخرى.. كانت الزنزانة الجديدة أصغر من السابقة، نظيفة ومرتبة، بجدران سماوية اللون تتخللها رفوف من الكتب

والمجلات، لكن أكثر ما لفت انتباهي؛ هي تلك الرياضة الغريبة التي يمارسها نزيلها الوحيد والترانيم الجميلة التي لا يمل من إنشادها.. لاحظ النزيل الكهل علامات الحزن البادية على محياي وسألني عن سبب تواجدي بالسجن.. في بادئ الأمر امتنعت عن الكلام، لكنني عندما توسمت الطيبوبة في صباحة وجهه؛ أخبرته بقصتي الكاملة وصارحته برغبتي في الانتحار.. أذكر أنه رد علي بقسوة ونهاني عن الأمر ناعتا إياي بالجبن والعجز الذي لا يشرف الجنس البشري.. طلبت منه أن يضع نفسه مكاني ويشعر بما أشعر به؛ فأجابني: " لقد جئت من تونس إلى إيطاليا مستقلا قوارب الموت !.. غامرت بحياتي بحثا عن مستقبل أفضل.. وعندما وجدت عملا وظننت أن كل شيء سيكون على ما يرام، قام مديري بتدبير مكيدة ضدي، ووضع الهروين في حقيبتي. دخلت السجن ظلما! فخلعتني زوجتي وتبرأ مني والداي ! وتخلى عني أبنائي وتنكر لي أخواي !.. فأن تموت عائلتك وهي تحبك، أرحم من أن تكرهك وأنت على قيد الحياة كما حصل معي !.. ومع ذلك، لم أفكر قط بالانتحار؛ هذا لأنني أؤمن قطعا بأن معي ربا لن يخذلني ما حييت، وإن كنت أعاني الآن؛ فذلك لكي يمتحنني أأصبر أم أكون من الساخطين.. صدقني يا فرانشيسكو، كلما قرأت قرآنه هذا؛ تبين لي أنه الوحيد الذي يستحق أن أعيش من أجله"..

كنت أرى أن مصيبتي أكبر من أن أقارنها بأي شيء قد يتعرض له الناس في حياتهم، إلا أن كلام التونسي لفت انتباهي وأظهر لي بصيصا من الأمل، سيما وأنه كان دائم الابتسام والبشاشة؛ ما جعلني أقتنع مبدئيا بنجاعة نهجه الفلسفي وأطلب منه أن يعلمني طريقة الاتصال بالإله والتحدث إليه.. أبدى سعادة بالغة من

طلبي، وسلمني على الفور نسخة إيطالية للقرآن.. كان يعلمني تلاوته بالعربية ويفسر لي معانيه بالإيطالية.. ومع مرور الأيام اكتشفت أن الكتاب لم يكن مجرد أدعية وترانيم، بل مجموعة من الحكم والقصص والأحكام، ودستورا شاملا ينظم العلاقات بين الإنسان والإله، وبين الإنسان وغيره من الناس. زيادة على ذلك شعرت بالأنس عندما وجدت بين صفحاته أمثلة كثيرة رأيت فيها حزم جدي وقوته، ولطف أبي ورحمته، وجمال ماريا ورقتها؛ فوجدت فيه بديلا للعائلة، وأحسست من خلاله بعظمة الإله وروعته.. عندئذ أعربت للتونسي عن رغبتي في تطوير صلتي بالرب والانتقال إلى مستويات أعمق في علاقتي معه اعتقادا مني أنها الطريقة الوحيدة التي ستعيد إلي سعادتي المفقودة.. أخبرني أن رغبتي تلك ستحتم علي الدخول في دين الإسلام. فوافقت دون تردد وأعلنت إسلامي.. أذكر أن أسارير وجهه تهللت لذلك، وشرع على الفور في تلقيني أساسيات الإسلام وطريقة الوضوء وكيفية الصلاة.. بعد فترة وجيزة حكمت المحكمة بإطلاق سراحه إثر ظهور تطورات جديدة في قضيته، أما أنا فالتزمت باتباع ما علمنيه، وأمضيت سنوات سجني في التأمل والعبادة، قبل أن يطلق سراحي وأتحرر من السجن ومن أحزاني معا.. فقمت ببيع أملاكي وتصفية شركات العائلة، وجئت إلى فاس أملا في الاستقرار بها والتأسيس لحياة جديدة؛ فتزوجت من فتاة محلية، واستثمرت أموالي في تجارة المجوهرات.. والأهم من ذلك كله، أنني تابعت تعميق صلتي بالله الذي هداني إليه أخيرا..

أنهى فرانشيسكو قصته المثيرة.. وبقدرما تعجبت من صراحته معنا، تعجبت من حياته الوفيرة الأحداث وشرعت أقارنها بحياتي الشديدة البساطة، إلى أن تذكرت حكمة لجدي تقول: " إن متعة الحياة في وفرة الوقائع والأحداث، لا بكثرة الأيام والسنوات".. فسكتت وقد أدركت أن ما سرده الإيطالي أكبر من أن أعلق عليه، وانبرى المتنبي للحديث وقد أفصح عما جاء من أجله متبسما:

- من المافيا إلى اسم الله العظيم الأعظم!.. لقد استأثرت بما عجز عنه فحول الرجال يا فرانشيسكو!

فأفرج فرانشيسكو عن ضحكة عميقة.. وحرك سبابته كمن يتوعد قائلا:

- لقد كنتما تستدرجانني إذن!..بالله عليكما، من أرسلكما إلي؟!

أجاب المتنبي على الفور:

- إنه الحاج عبد الكريم الذي بتافراوت.. لقد سألته الإسم الأعظم؛ فدلني عليك!..

قطب الإيطالي حاجبيه.. وتساءل وهو يمرر كفه على ذقنه مستغربا:

- كيف يدلك علي وهو يعلم أنني لن أجيبك على سؤالك؟! عجبا لأمره؟!

تجهم وجه المتنبي واحمرت وجنتاه كالرمان، ثم ألقى بسؤاله في وجه فرانشيسكو منفعلا:

- وما الذي يمنعك من إجابتي؟!

أجاب فرانشيسكو بهدوء وتؤدة:

- الأسرار لا تعطى لطلابها، بل لمن هم في غنى عنها !..

فأشاح المتنبي بوجهه والأنفة تعلو محياه، ثم قام من مقعده وقد هم بالمغادرة، إلا أن الإيطالي استمهله قائلا:

- مهلا.. سأعرض عليك مسألة، وإن وفقت في حلها؛ لقنتك الإسم الأعظم..

رد المتنبي وقد أغراه العرض:

- حسنا هات ما عندك !..

ليتكلم فرانشيسكو مسترجعا:

- قبل بضع سنوات.. كنت على موعد مع زبون، فمررت بدرب الدباغين في ساعة متأخرة من الليل، وصادفت عصابة من الصعاليك ينهالون بالضرب على شيخ هزيل.. كانوا يحملونه إلى مناكبهم، ثم يلقون به على الأرض بلا رحمة ولا شفقة.. وفي إحدى اللحظات، فكرت في مهاجمتهم وتخليصه منهم، إلا أن عددهم الكثير كان أكبر من مقدرتي على ذلك.. قل لي يا أديب، ماذا كنت فاعلا بهم لو كان الإسم الأعظم بحوزتك؟

أجاب المتنبي بلا تردد:

- سأنتقم منهم وأخسف بهم الأرض! ..

فقال فرانشيسكو وهو يبتسم ضاحكا:

- لقد كان بإمكان الشيخ الهزيل أن يخسف بهم الأرض لو أراد، لكنه لم يفعل !..

رد المتنبي مستفسرا:

- وكيف عرفت؟!

أجاب فرانشيسكو:

- إنه الشخص نفسه الذي لقنني الإسم الأعظم، ولقد أوصاني بألا ألقنه إلا للذين أضمن أنهم لن يستخدموه لتحقيق مصالح دنيوية.. من سوء حظك أنك لست واحدا منهم يا أديب! فالانتقام مصلحة دنيوية !..

فأطرق المتنبي رأسه خائبا، وغادر المكتب وهو يجر حقيبته دون أن يضيف قولا.. لأقوم بدوري مودعا فرانشيسكو، وأسوق حقيبتي نحو الباب ضاحكا من خيبة رفيقي.. ولما أوشكت على الخروج من المتجر، خاطبني الإيطالي قائلا:

- ماذا عنك أيها الشاب؟! ألست مهتما باسم الله الأعظم؟!

التفَتُّ إليه، فإذا به يستند على سارية في منتصف المتجر ويضع يده في جيبه مبتسما.. لأجيبه بعد تفكير قصير:

- لقد سبق وأن حكم الله بألا يعود الموتى إلى دنيانا هذه، ولا أظن أن امتلاكي للإسم الأعظم سيعيد لي أمي وأبي، لذلك لا أتطلع لامتلاكه.. عدا عن ذلك، لا طاقة لي بالابتلاءات التي تصاحب مقامه الرفيع !..

دخل فرانشيسكو في صمت أظهر أن جوابي لم يكن في حسبانه.. ثم قال وهو يفرك جبينه مشفقا:

- لطالما كنتَ ضعيفا يا أحمد.
- عذرا؟!.. لم أفهم قصدك!
- ستفهم لاحقا.. ستفهم فورما تعود..

أجبته ضاحكا:

- لا أعتقد أنني سأعود؛ أمامي سفر يعقبه مُقامٌ طويل!..

فرد بثقة وهو يعود إلى مكتبه:

- ستعود رغما عنك يا فتى، إلى الملتقى..

غادرت المتجر ولحقت بالمتنبي وسط الزحام دون أن أعير اهتماما لما قاله الإيطالي، ثم ضربت على كتفه بعد أن بدا لي في أمس الحاجة إلى المواساة:

- تجري الرياح بما لا تشتهي السفن يا متنبي.. صراحة لم أتوقع أن يمتنع قرين فرانشيسكو عن إخبارك بالاسم الأعظم!

رد المتنبي وعلى وجهه معالم حسرةٍ بالغة:

- لم يكن قرينه على علم بالإسم! كما أنني لم أتمكن من قراءة ضميره؛ إن لهذا الرومي طاقة تمنعني من استكشاف دواخله..

فسألته مستغربا:

- وكيف عجز قرينه عن معرفة الإسم؟! ألا يلازمه في كل لحظة؟!
- بلى، إنه لا يفارقه ولو لرمشة عين، لكن الإسم في قلب فرانشيسكو؛ ولا قدرة لقرينه على الاطلاع عليه..

ثم سألته وقد ازداد استغرابي:

- وكيف تمكن الشيخ الهزيل من تلقين الاسم لفرانشيسكو دون أن يسمعهم قرينه؟!!!

أجاب المتنبي:

- لعل التلقين كان روحيا ولم يكن شفهيا، إنها مسألة معقدة لن تفهمها يا أحمد.. دعك من فرانشيسكو الآن؛ فالعملية الكبرى في انتظارنا!..

السطو على البنك المركزي

غادرنا فاس على متن القطار بعد أن أمضينا الليلة في مسجد من مساجدها العتيقة، وبعد أن سهرت متكئا في زاوية من زواياه حارسا لحقيبتي.. لم يكن بإمكاننا المبيت في فندق والمتنبي لا يتوفر على بطاقة تعريف، كما لم يكن في إمكاني أن أنام وأنا أعلم أن المساجد لا تسلم من اللصوص.. الأسوء من ذلك أني أدركت ليلتها نقمة المال؛ حين أدركت أنني أخاف عليه من الزوال.. والأفظع من ذلك كله، أن خوفي عليه كان يزداد كلما نظر أحدهم إلى حقيبتي، سواء كان أحد المارة العابرين، أو أحد الصعاليك المشبوهين ممن تضيق بهم محطة الوصول بالرباط..

خرجنا من المحطة وشمس الظهيرة تنحو نحو الزوال، وسرنا باتجاه ضاحية دلنا عليها عزوز الذي لم يتوقف وقتها عن الاتصال.. أذكر أنني أغلقت الخط في وجهه مرارا من فرط إحساسي بغبائه اللعين؛ إذ كان يبتدئ كل مكالمة بنفس السؤال: " ألو مرحبا.. هل أنت أحمد؟! أين أنت الآن؟!".. لقد تعبت من إخباره بهويتي في كل مرة، وأطفأت جوالي إلى أن اجتزنا أحياء الرباط الراقية ودخلنا حيا هامشيا يكاد يخلو من المارة، فأعدت تشغيله رغبة مني في الاتصال بالمجنون وسؤاله عن عنوان البيت الذي يتواجد فيه رُفْقَةَ المهدي.. في تلك اللحظة كان المتنبي يسبقني بعشرات الأمتار، وكان هناك شخصان يعبران الشارع باتجاه الرصيف الذي أسير عليه.. لم أكترث لأمرهما، وتوقفت عن السير لهنيهة حتى أتمكن من استخراج رقم عزوز من لائحة الأرقام، غير أن يدا لكمت قفاي منعتني من ذلك؛ فاختل توازني وسقطت على الأرض دون أن أفلت حقيبتي من يدي..

لألتفت على الفور وأفاجأ بشابين طويلين قبيحين يحمل أحدهما ساطورا والآخر سكينين من الحجم الكبير!.. فشرعت أنظر في ذهول إلى الندوب التي شوهت وجهيهما تارة، وإلى أسلحتهما التي كانت تعكس ضوء الشمس تارة أخرى، قبل أن ينطق أقبحُهُما بلهجة آمِرة:

- سلمنا الحقيبة وأفرغ لنا جيوبك، حتى لا نفكر في إيذائك يا فتى!..

نظرت مليا إلى عيونه التي بدت حمراء من أثر الانتشاء، وتظاهرت بأنني أتفقد جيوبي كسباً للمزيد من الوقت.. قبل أن يتكلم صاحبه بلكنة ساخرة:

- هيا هيا!.. أسرع كيلا نردك لأمك الحنونة بضاعةً ناقصة!..

تفجّرت ينابيع الغضب في شراييني بفعل عبارته الأخيرة! وعزمت على مهاجمته والنيل منه مهما كلفني الأمر، إلا أنني سرعان ما نسيت ذلك حين شاهدت باندهاش أسنانه الدامية تتطاير من فمه بفعل حجر ارتطم بوجهه الأصفر اللعين.. فهوى برأسه متألما؛ والتفتُّ إلى مصدر القذيفة لأرى المتنبي مقبلا وفي كفه حجر آخر.. ففر المجرم الآخر مذعورا، وقمت من على الأرض معاينا ما لحق برفيقه من أضرار.. إلى أن وصل المتنبي وقال مُنَكِّلا بضحيته الممددة على الأرض:

- إن السلاح كلُّ الناس تحمله، وليس كل ذوات المخلب السَّبُع!..

ثم أردف مبتسما:

- هل أنت على ما يرام يا أحمد؟

أجبته وأنا أضع يدي على قفاي:

- لقد لكمني الوغد بقوة! لكنك أجزلت له العطاء!.. فلننصرف من هنا قبل أن يجتمع الناس يا صاح !..

ولما هممنا بمتابعة طريقنا، تكلم المنحوس بصعوبة والدماء تسيل من شدقيه:

- ستدفعان الثمن غاليا يا أبناء الزنا!.. ستدفع الثمن غاليا على فعلتك يا كثيف الشعر!.. سأقتلك يا لقيط!

فاربد وجه المتنبي واحمرت عيناه غضبا، واستدار عائدا نحو مخاطِبه الذي كان يحاول أن يقوم من مكانه.. ثم وطأ على رقبته معيدا إياه إلى الأرض وهو يُكلِّمه بنبرة شديدة الهدوء:

- لقد فتحتَ عليك أبواب الجحيم!.. كنت سأعفو عنك وأمضي في حال سبيلي، لكنك أبيتَ إلا أن أضيف إلى ندوبك ندوبا يا صاح!..

ثم عمد إلى السكين الذي كان على مقربة من ساق المجرم الصعلوك، وغرسه في كفه دون أن يرف له جفن أو يتردد؛ ليُصدِر الجريح صرخة ألم بشعة تردد صداها بين ربوع الأزقة الفارغة!.. ازداد ذهولي وأنا أرى المتنبي يقوم بجر السكين المغروس على طول كف فريسته ليخرجه من بين سبابته ووسطاه وقد مزق راحة يده تمزيقا!.. حينها انطلقت وجذبته من عضده وسط صراخ الضحية وأنينه:

- لقد بالغت يا متنبي!.. فلننصرف من هنا؛ قد يلمحنا أحدهم!..

فقام المتنبي عن ضحيته، وعجلت بنزع قميصي ثم أعطيته إياه ليمسح به الدماء التي تطايرت على يده:

- فلتستعجل بالتخلص من بقع الدماء!.. يالك من مجرم!

فأخذه ببرود وشرع يمسح كفه بهدوء وكأن شيئا لم يقع.. ثم قال وهو ينظر إلى الصعلوك الذي يتخبط في دمائه:

- وددت لو كان لدي وقت لأقتله، ثم يحيا فأقتله من جديد!.. إن القضاء على الحثالة أمرٌ لا يتعبني يا رفيق!

استفزني كلامه، ورددت عليه معارضا:

- لا تنس أن هناك ظروفا جعلت منه قاطعَ طريق!.. لا أحد يصبح مجرما باختياره!

فقهقه ضاحكا.. وقال:

- مخطئ من ظن أن الصعلكة صنيعة الفقر والحاجة؛ من الناس من هم أكثر فقرا ولا يعتدون.. كل ما في الأمر أن هؤلاء المجرمين نِتاجُ جينات شريرة تحن إلى أصلها اللعين!..

ثم جر حقيبته من جديد واستكمل سيره وهو يقول:

- إن اتصلت بعزوز، فلتطلب منه أن يعد لي كوبا من القهوة.. أظن أنني في مزاج مناسب لاحتسائها..

***

بعد وصولنا إلى البيت المعلوم، حاولت أن أنشغل بأي شيء من شأنه أن ينسيني منظر الدماء الذي انطبع في عيناي، ويمسحَ أصوات صراخ الصعلوك التي كانت ما تزال تتردد في أذناي؛ فوقفت في ركن من أركان الغرفة وشرعت في مراقبة عنكبوت تنسج شباكها.. إلى أن انتهى عزوز من إعداد القهوة وقدمها للمتنبي مسرورا:

- تفضل.. لقد أتقنتُ إعدادها، ولا أظن أنك ستشرب مثلها إلى يوم الدين!..

فشكره المتنبي.. لكنه سرعان ما بصق ما ارتشفه منها مشمئزا:

- قهوة حارة مالحة؟! أهذه غاية إتقانك؟!.. فعلا، لا أظن أني قد أشرب مثلها إلى يوم الدين! يا أغبى الأغبياء أجمعين!

التفتُّ إليهما ضاحكا، ثم تابعت مراقبتي للعنكبوت إلى أن لمحت في الجدار شقوقا تنتهي في وسط السقف بشرخ عظيم؛ فجلت ببصري على الأثاث مشفقا وأنا أقول:

- ستائر ممزقة!.. سريران مُهَشَّمان!.. مرآة مشقَّقَة!.. شقوق في الجدران!.. أخلتِ الرباط من المنازل حتى تستأجرا هذا البيت الآيل للسقوط؟!

فضم عزوز شفتيه وقال وهو يهز كتفيه:

- لا دخل لي في ذلك.. اِسأل المهدي؛ هو الذي قام بالإستئجار..
- وأين هو الآن؟
- لا أدري.. منذ أن خرج بالأمس لم يعد!

ثم تكلم المتنبي وقد قام لتنظيف الفنجان في المغسلة:

- لعله ما يزال منشغلا بالمهمة التي كلفته من أجلها..

عند ذلك قفزت على المنضدة واستويت جالسا، ثم استوضحته عن المهمة:

- لقد حان الوقت لتطلعني على تفاصيل هذه المهمة يا متنبي!..

فنظر إلي وأجاب مختصرا:

- سنحصل على الذهب من البنك المركزي..

وجمت للحظات وأنا أنظر إليه.. قبل أن أنطق متبيِّنا:

- أتعي ما تقول؟! أم أنك تمزح؟!
- لا أمزح يا أحمد.. قبل يومين استغللنا الدولة للاحتيال على السيميائي، والآن سوف نستغل السيمياء للاحتيال على الدولة..

لأصيح في وجهه وقد ضقت درعا بأفعاله:

- لا أحد يعبث مع الدولة يا متنبي! لا أحد!..

في تلك اللحظة، فُتح باب الغرفة من تلقاء نفسه وأُغلق من تلقاء نفسه وسط ذهول الجميع، ثم سمعنا صوت خطوات تقترب شيئا فشيئا.. قبل أن يصطدم شيء بأقرب السريرين إلى الباب ويظهر المهدي من العدم مستلقيا عليه وهو يلهث..

لا أستطيع أن أصف مقدار الحيرة التي أُصِبت بها لحظتها، ولا أذكر كم ظللت واجما من فرط الاندهاش، كل ما أذكره أن المهدي ظل مُطرِقا رأسه ممسكا بجبينه.. إلى أن قام إليه المتنبي بكأس ماء وناوله إياه قائلا:

- اِشرب.. لعله تأثير الطلسم أعياكَ وأنهكَك!

فنزلت عن المنضدة واستفسرته على الفور:

- طلسم؟!.. أي طلسم؟!

أجاب عزوز متلعثما كالمألوف:

- إنه طلسم الإخفاء.. لقد نسخه المتنبي من مخطوطة "عرش الملوك" ومنحه للمهدي طالبا منه أن يتسلل إلى البنك المركزي ويستكشف مَرافِقه..

فحدقت إلى المتنبي شزرا وقد بلغ مني الغضب أشده:

- الآن صرتَ تأبه للسيمياء!.. ألستَ من قال إن السيمياء للعاجزين الذين لا يستطيعون ضربا في الأرض؟!

أجاب بعد ابتسامة مستفزة:

- لقد كنتَ تستخدمها للتسلية يا أحمد.. أما أنا فأستخدمها وسيلةً لتحقيق غايات كبرى!..

- وهل تعتبر سرقة الشعب غاية كبرى؟!.. عجبا لنفاقك يا زنديق!

سكت قليلا.. ثم قال مبتسما يداعب شواربه:

- أنا لا أعتبرها سرقة، بل دَيْناً سأسدده بعد حين.. إنه شر صغير لتحقيق خير كبير؛ فعندما أحكم العراق وأُخرِج العرب من وطأة الذل الذي يرزحون تحته؛ سيشفعون لي وسترتسم الابتسامات على وجوههم لوقت طويل..

حينها ابتعدت عنه، وعدت إلى الجلوس على المنضدة قائلا:

- فلتحترق لوحدك في الجحيم إن شئت!.. أما أنا فلست معك؛ سآخذ ذهبي وسأعود إلى بلدتي!..

فتكلم المهدي بصوت متهدج متقطع:

- أخشى.. أنك قد تحترق معه في الجحيم!.. يا أحمد!..

انفعلت لكلامه مستفسرا:

- لمَ؟!

فأجاب بذات النبرة المتهدجة:

- لقد أصدرت الشرطة أمرا بالبحث عن شخصين يحملان أوصافكما، ويجُرَّان حقيبتين أيضا!.. هلا فسرتما ما يحدث؟!

أشاح المتنبي بوجهه وهو يفرك قفاه، وأجبت المهدي وقد دب القلق في أوصالي:

- ولماذا يبحثون عني؟! لستُ من طَعن الصعلوك!.. إنه المتنبي!.. لقد هاجمني الصعلوكان وقام المتنبي برجم واحد وفرّ الثاني، ثم حمل السكين وغرسه في يده ممزقا راحته!

فأمسك المهدي برأسه مجددا.. وأجاب متحسرا:

- تبا! إنهما أنتما إذن! لقد صدق حدسي!..

ثم رفع رأسه وأردف:

- لقد مات الرجل من كثرة النزيف يا سادة!.. أبشرا بالسجن!..

كان الخبر الصادم ذا وقع مدمر للإدراك والشعور، شعور فقدته بالكامل حين قذفت بالكأس ليتكسر على الجدار وأنا أصيح في وجوه الرفاق:

- عن أي سجن تتحدثون؟!.. أنا بريء!.. لست من قتله! إنه المتنبي!.. ألا تفهمون؟!

ليُعَقِّبَ المهدي ويفحمني متأسفا:

- نعم لقد كنتَ بريئا يا أحمد.. كنتَ بريئا إلى أن تركته لِينزفَ حتى الموت دون أن تهاتف الإسعاف أو تنقذه أو تبلغ الشرطة؛ فأصبحتَ شريكا في جريمة المتنبي!.. الأسوء من ذلك أن التحقيق قد يتوسع ليشمل قصة الكنز أيضا إن وضعت الشرطة يدها على الذهب، وربما قد نتورط جميعا لاستدعائنا للمتنبي وإدخاله إلى هذا العالم.. ثلاث تهم على الأقل، ولك أن تتخيل ما سيحدثه ذلك من ضجة على مستوى الإعلام الوطني!..

شعرت ساعتها بدوار يجتاح رأسي متغلغلا إلى أخمص قدميّ.. كنت أشبه ببنيان يهوي لبنةً لبنة، كقطعة ثلج صغيرة تذوب تحت حرارة الشمس الحارقة.. لم يكن بمقدوري أن أستجمع قواي، أو أن أتظاهر بذلك حتى؛ فألقيت بثقلي على السرير واستقبلت السقف بوجهي مسترجعا شريط الأحداث الماضية.. لقد كنت في بلدتي سعيدا حميدا، والآن صرت طريدا شريدا.. لكن، كيف حدث ذلك وأنا الذي يحرص دائما على عدم

الإذايـة؟!.. كيـف اسـتدرجني القـدر لأصـبح مجرمـا رغـم اتبـاعي لسـبل الوقاية؟!.. ثم نظرت إلى المتنبي نظرة كرهٍ وصارحته بمقتي له:

- تظـن أنـك عظـيم، ولا تـدري أنـك مجـرد أفّـاك نمّـاقٍ لـصٍّ قاتـلٍ ومجنون!.. أنى لك أن تكون عظيما!

فرد علي بابتسامة هادئة.. وقال:

- كلامك يؤكد أنني على جادة الصواب!.. لقد نعتوا النبي يوسف بالسـارق، ونعتـوا النبـي موسـى بالقاتـل، ونعتـوا سـيدنا محمـدا بـالمجنون!.. لكـي تبلـغ المجـد؛ عليـك أن تصـبر للاتهامـات التـي ستنهال عليك من كل صوب!..

ثم جلس على الطاولة وأضاف:

- أعلم أنك مشوش الأفكار يا أحمد؛ إنك تحاول أن تفهم بِنيةَ القدر وتجدَ السبب الذي ستُحمِّله مسؤولية ما وقع.. أنا لا ألومك على ذلك؛ إنها طبيعة العقل البشري الذي لا يهنأ حتى يحيط بالشيء من جميع الجوانب بحثا عن حقيقته. إلا أن هناك مسائلا لا يمكن الإحاطة بها أو تصنيفها، مسائل تدفعك إلى الجنون.. الكل يبحث عن الحقيقة الواحدة المطلقة، لكنها ليست واحدة، بل متعددة، قد تختلف تماما عن بعضها لكنها لا تتناقض، وكل عقلٍ يفهمها حسب قدرته..

عقب عزوز بعفويته مستفهما:

- هـلا فسـرت لنـا نظريتـك هـذه؟!.. حبـذا لـو أعطيتنـي مثـالا لكـي أفهم!..

فمرر المتنبي يده على شعره ولحيته وقد ضاقت عيناه من التفكير.. ثم أجابه:

- أنت تعلم أني قتلت رجلا.. فما رأيك فيّ؟

أجاب عزوز على الفور:

- قاتل مجرم!.. مع احترامي لشخصك!..

ابتسم المتنبي.. ثم سأله كرة أخرى:

- لنفترض أنك من معارف القتيل وحضرتَ عزاءه.. ماذا ستقول لأمه الباكية المنتحِبة؟

أجاب عزوز بعد لحظات من التفكير:

- سأقول لها "عظّم الله أجرك في الفقيد!.. فلتصبري لقضاء الله وقدره!"..

فعلَّق المتنبي على جوابه مبتسما:

- لقد اعتبرتني مجرما واعتبرتَ جريمتي قضاءً وقدرا في الوقت ذاته.. وهذا ما أقصده بالحقيقة التي تتعدد ولا تتعارض يا عزوز!..

ثم اتجه بأنظاره إلى المهدي وقال:

- دعونا من فلسفة الحقائق الآن.. ولْتُخْبِرني يا مهدي عما كلفتك من أجله!.. هل أنجزت المهمة أم عجزت عنها؟!

فاستوى المهدي بتثاقل على طرف السرير.. وأخذ يحكي عما حصل معه بعينين شاردتين:

- بعد وصولنا إلى الرباط.. وبعد أن قمت بحجز هذه البيت نظرا لبعده المثالي عن البنك المركزي، أخذت الطلسم الذي سلمتني إياه، وأخبرت عزوز بأن المهمة التي أنيطت به تتمثل في حراسة الدنانير إلى حين عودتي.. ثم وقفت متحمسا أمام تلك المرآة،

ووضعت الطلسم تحت لساني كما أوصيتني بأن أفعل.. بعد ثوان معدودة، شعرت بالصدمة والهلع وأنا أشاهد أقدامي وسيقاني تَبْهَتُ شيئا فشيئا، قبل أن تختفي تماما.. تراجعت للخلف مذعورا، وشرعت في لمس أرجلي وتحريكها للتأكد من وجودها وبقائها في مكانها.. وبعد أن اطمأننت وعدتُ إلى المرآة، اكتشفت أني قد اختفيت بالكامل، إلا موضعا من شعري كان ينعكس على المرآة وكأنه خصلة شعر طائرة.. تَطَلّب الأمر دقيقة أو أقل لكي أختفي بالكامل وأصبح غيرَ ظاهر في المرآة.. شعرت بالخوف والقوة معا، شعرت بالخوف من البقاء على تلك الحال للأبد، وشعرت بالقوة لِامتلاكي لهذه القدرة الخارقة.. خرجت من الغرفة وصادفت عزوز قادما من الحمام، ومررت بمحاذاته دون أن يشعر بوجودي.. حينها تأكدت من فعالية الطلسم، وتابعت طريقي مستمتعا بكل خطوة لي في هذا العالم الذي لا تدركني فيه الأبصار، إلى أن وصلت إلى مدخل البنك المركزي ودخلته.. كانت الساعة العملاقة التي تزين فضاءه مشيرة إلى الثالثة والنصف، أي أنني وصلت قبل موعد إغلاقه بلحظات يسيرة، فهرولت إلى باحته متجاوزا رجال الأمن بمنتهى السهولة.. وشرعت أخطو على أرضيته الرخامية بمنتهى السلاسة وأنا أرسل بصري في كافة الاتجاهات متفحصا الشبابيك واللافتات، متفرسا في وجوه الموظفين والموظفات.. إلى أن تسللت تحت حاجز حديدي، ودلفت إلى ممر شديد الإضاءة.. تسارعت ضربات قلبي وأنا أنظر إلى رجال الأمن الذين انتشروا على طول الممر وفي أياديهم البنادق الرشاشة، وتوقفت عن السير من شدة الرهبة التي تعكسها فوهاتها القاتلة.. ولما عزمت على قهر الخوف وتوكلت على شجاعتي، دارت

عجلات باب الخزنة الفولاذي الذي ينتهي إليه الممر مُصدِرةً ثلاث طرقات مدوية، ثم فُتِحَ البابُ العملاق بوثيرة بطيئة؛ ليَخرُجَ منه سرب من الرجال المتأنقين في بدلات فارهة وهم يحملون صناديقا تشبه التوابيت، كانوا ثمانية عشر رجلا، ست رجال لكل صندوق.. فأفسحت لهم الطريق مهرولا وسمعت صوتا عبر المجيب الآلي يقول: " تَمَّ تفعيل المستشعرات الحرارية".. فتلاه إنذار ثلاثي، ثم أعقبه تأكيدٌ للمجيب الآلي: "تَمَّ تفعيل المستشعرات الحركية، تَمَّ تفعيل وَضعِ الصعق".. لأعلم ساعتها بأن اختفائي عن الأنظار لن يشكل فارقا، وأن أي خطوة أخطوها داخل الخزنة الفسيحة ستتسبب في إصابتي بالصعق والموت المُحَتَّم.. لكن، وبالرغم من ذلك، تعقبت رجال الصناديق بعد خروجهم من البنك.. وتعلقت بشاحنة من شاحناتهم البيضاء الثلاث، ثم انطلقوا عبر الطريق السريع نحو أرياف المدينة..

توقف المهدي عن السرد، وبلل حلقه بشربة ماء.. ثم استأنف قائلا:

- سلكت الشاحنات طريقا فرعيا، وتوقفَت تحت قنطرة مظلمة، ونزل من كل شاحنة رجل في انضباط موزون.. ثم عمدوا إلى مقدمات الشاحنات وقاموا برشها بسائل غريب؛ ليشفطوا شعار البنك ويَظْهَرَ مكانَهُ الشعار التالي: "لا إله إلا الله محمد رسول الله - نقل أموات المسلمين".. فشعرت بحيرة شديدة إلى جانب الخوف الذي كان يُرعِد فرائصي، واستنفرت طاقة دماغي كلها لِفَهْمِ ما يحدث، لكنني لم أفلح، وظللت على تلك الحيرة إلى أن وصلنا بلدةً داخل الغابة، وتوقفت الشاحنات عند الباب الخلفي لمسجدها.. نزل الرجال بالصناديق وأدخلوها إلى المسجد، ثم

وضعوها في المكان المخصص لتغسيل الموتى.. المثير في الأمر أن الرجال نزلوا وهم يرتدون لباسا مختلفا هذه المرة، لقد ارتدوا طرابيشا وجلابيبا بيضاء فوق بدلاتهم الأنيقة.. بلغت حيرتي مداها، وشعرت بأنني ذلك الأخرس الذي يَحضُرُ حفلة إنشاد، بيد أن حيرتي سرعان ما تلاشت عندما تسللتُ داخل المسجد الذي كان فارغا من المصلين، وسمعت واحدا من الرجال يخبر إمام المسجد قائلا: "لقد أرسل لكم البنك وديعة قدرها ألف سبيكة من الذهب؛ ستقومون بحراستها كالمعتاد، وحالما تتم إجراءات ملء مكانها بسبائك جديدة؛ سنأتي لنقلها إلى البنك الدولي.. دمت في رعاية الله وحفظه يا عقيد".. ثم غادر الرجال، واستنتجت حينها أنهم ضباط استخبارات كُلِّفوا بنقل الذهب، وأن المسجد كان عبارة عن ملحق سري لخزينة الدولة، وأن التنكر في صفة عمال المقابر كان تدبيرا أمنيا وتمويها لصرف أنظار الناس وفضولهم..

على الرغم من ذلك الغم الذي كنت أعاني منه وقتها، علقت على ما رواه المهدي وقد أذهلتني غرابة الأحداث:

- خزينة سرية في بيت من بيوت الله يحرسها إمام برتبة عقيد!.. من هذا الذي سيخطر على باله ذلك؟! .. تحفظ الدولة ذهبها في أكثر مكان يقدسه الناس! وتضعه في أكثر مكان يخشاه الناس! من هذا الذي سيخطر على باله أن الذهب في توابيت الموتى؟! صدق من قال أن مكر الدولة يعلو ولا يعلى عليه!..

وأضاف المتنبي بدوره:

- دولتكم تحتال للأمر قبل وقوعه؛ وهذا ما يجعلها من أأمن البلدان في العالم!..

ثم سكت قليلا وهو ينقر على الطاولة بأصابعه.. قبل أن يردف:

- أخبرني يا مهدي، هل بالمسجد نظام دفاعي؟.. أبهِ مستشعرات الحرارة والحركة؟

أجاب المهدي:

- أستبعد ذلك؛ فالمسجد عبارة عن بناء قديم ذي تصميم بسيط، لكن كيف يُعقل أن ينقلوا الذهب من مبنى شديد الحراسة إلى مسجد متوسط الحراسة؟!

رد المتنبي ضاحكا:

- من يدري!.. قد تكون البلدة بِرمتها تكنة عسكرية!.. على الرغم من ذلك، سنستعمل الطلسم لإخراج الذهب من المسجد!..

فرمقته بنظرة ازدراء لجرأته التي لا تعرف الحدود، ووضع عزوز يديه على رأسه وقد فتح فاه من الدهشة.. في حين لم يعترض المهدي على الفكرة، وتساءل وهو يرفع حاجبيه:

- إننا نتحدث عن طن من الذهب يا متنبي! كيف لنا أن نحمل تلك التوابيت الثقيلة؟!.. عدا عن ذلك، كيف سنخرجها من الغرفة أمام أنظار حراسها؟! كيف ستكون ردود أفعالهم وهم يشاهدون التوابيت ترتفع لوحدها في الهواء مغادِرَةً المسجد؟! قد يطلقون النار في جميع الاتجاهات! وسنُقتَلُ عندئذ بلا شك!

فأجاب المتنبي:

- لا لن تجريَ الأمور على هذا النحو الذي ذكرتَهُ يا صاح.. سوف نصنع للتوابيت نعوشا بعجلات لكي يسهل دفعها وجرها على الأرض.. ولأنَّ الطلسمَ فعال على الجمادات أيضا؛ سننسخ من

الطلسم نسخا نضعها على التوابيت لكي تختفي عن الأنظار بدورها، ولا تشغل بالك بأمر الحراس؛ سوف أتولى أمرهم..

عقبت على حُلولهِ من شدة غيظي متهكما:

- يالك من غبي!.. أنسيتَ أن بالمخطوط طلسما لتحريك الجمادات، بإمكانك أن تتسلل إلى هناك وتأخذ الذهب بمفردك وتغادر.. أم تُراكَ لا تملك شجاعة الدخول إلى هناك وحيدا؟!

فرد المتنبي:

- بلى، أعلم أن بالمخطوط طلسما يحرك الجماد.. لكنه، ولسوء الحظ لا يحرّك الأشياء التي يتعدى وزنها رِطلَين!..

قبل أن يقوم من مكانه ويضيف بلهجة مالت إلى الأمر:

- يا مهدي! ستخرج حالا وستقتني لنا ما يلزم لصناعة النعوش المدولبة! وسيرافقك عزوز لمساعدتك على حملها! وحالما تعودان، ستنطلقان من جديد لسرقة الشاحنة التي ستُقِلُّ التوابيت على متنها!..

فانطلق الإثنان على الفور والدهشة تتملكني من طاعتهم العمياء وقُبولِهمُ الانخراطَ في هذا العمل الإجرامي!.. ثم استدرك المتنبي قبل أن يغلقا الباب وراءهما:

- ولا تنسياَ اقتناء ملامحٍ تنكرية تحسبا لأي طارئ!..

وبمجرد أن غادرا التفت إليّ مُخَيِّرا:

- أما أنت يا أحمد فلك أن تختار بين أمرين؛ أن تستمر معنا إلى النهاية، أو أن تذهب في حال سبيلك.. علما بأن الخيار الأول

سيضمن لك إصلاح الأمورِ مستقبلاً، أما الثاني فلن يؤدي بك إلا
إلى دهاليز السجون والتعذيب.. ففكر جيدا!

***

لقد فكرت جيدا.. نعم، لقد فكرت.. وجرَدت جميع الاحتمالات بحثا عن مهرب لي مما تورطت به.. فكرت طيلة الساعات الأربعين التي مرت سريعا من شدة خوفي من القادم المجهول.. فكرت مليا وأنا أرى الرفاق يجِدُّون في صناعة النعوش وينتهون منها.. فكرت جيدا وأنا أتابع تجاربهم التنكرية، وخططهم الأولية والثانوية.. فكرت، وفكرت، ولم أهتد إلى حل ينتشلني من بين مطرقة المتنبي وسندان الدولة.. ذلك أن اعتباري مجرما مبحوثا عنه؛ سيعرضني للإيقاف عند أول دورية تلمحني على الطريق.. وحتى وإن رفضت السطو على البنك، فإن نجاح رفاقي في ذلك وهروبهم إلى العراق؛ سيكشف تورطهم ويقود المحققين إلي عاجلا أم آجلا.. لذلك؛ قررت أن أشارك الرفاق وأحرصَ على نجاح عمليتهم، وأعيدَ الذهب إلى البنك قبل أن يتمكن أصحابي من أخذه إلى العراق.. لقد كانت هذه الخطة - بالنسبة لي - وقتذاك، الحل الوحيد الذي سيُظهر لرجال الشرطة حسن نيتي، والخطوة الأولى التي ستمهد لإقناع القضاء ببراءتي.. كنت سأخبر عزوز بخطتي، وكنت سأطلب منه مساعدتي.. بيد أن رضاه الغريب عما ينوى عليه الآخران، وانخراطه معهما في الإعداد لذلك؛ حال دون أن أجعله أهلا لثقتي، وحال دون أن أسألهُ مساعدتي.. لقد أشعرني موقفه هذا بالحيرة والخيبة معا، سيما وأنه لطالما كان ظريفا بعيدا عن الشر، لكنني لم أتكلف عناء استفساره عما حصل لشخصيته من تغير وانقلاب، ولم أشرع في البحث عن السبب الذي جعله يرضى بهذا الظلم والبهتان؛ فالغم الذي

سببه مقتل الصعلوك؛ جعلني أردد في نفسي: " أنا أنا ومِن بعدىَ الطوفان"..

***

في تمام الساعة الثانية ليلا، وعلى بعد كيلومتر من المسجد المقصود، أوقف المهدي محرك الشاحنة التي سرقها عند شجرة متدلية الأغصان.. كان المهدي قد تنكر بشارب ولحية كثيفين، عدا عن بطن مزيفة غيَّرت كليا من بنية جسده، وأخفى عزوز ملامحه في ذات الشوارب والنظارات السميكة التي تَقَنَّع بهما في العملية السابقة، بينما اكتفى المتنبي بقص شعره، وجزِّ لحيته.. أما أنا، وبالرغم من إصرارهم على ضرورة تنكري تحسبا لفشل الطلسم أثناء العملية، أصررت على إبقائي على هيأتي..

ترجلنا من الشاحنة في حلك الظلام، وطفق كل من الثلاثة في إخراج النعوش المدولبة.. فيما سارعت إلى إخراج الطلسم ووضعه تحت اللسان؛ لأتمكن في غضون ثوان قليلة من الاستتار عن الأنظار.. لا أنكر أن الهلع الذي أصاب المهدي قد انتابني أيضا، لكن سرعان ما تجاوزته حين رأيت رفاقي يضعون الطلاسم بدورهم ويختفون تباعا من أمامي رفقة نعوشهم.. قبل أن يتكلم عزوز بنبرة مرتعدة:

- يا رفاق!.. كيف لنا أن ننسق فيما بيننا ونحن لا نرى بعضنا؟! قد يصطدم أحدنا بالآخر أثناء تواجدنا هناك؛ فينتبه الحراس لنا!..

أجاب المتنبي:

- لا.. لن يحصل ذلك!.. سأتسلل أولا، وأُنهي أمر الحراس؛ عندئذ سأفتح لكما باب المسجد الخلفي وستدخلون تباعا.. بعد ذلك

سنتعاون على وضع التوابيت على النعوش، وسنخرجها جرا لا دفعا.. اتفقنا؟!

رددنا وراءه:

- اتفقنا..

انطلق المتنبي عبر حقل من السنابل التي كانت تكشف مساره كلما ابتعد بعضها عن بعض، ولحقنا به على مهل ونحن نتهامس كي يعلم كل منا مكان الآخر.. وحالما صرنا على بعد أمتار قليلة من المسجد توقفنا عن جر النعوش، وجلسنا لنراقب الأوضاع عن كثب.. بعد مرور لحظات، تكسَّر السكون الذي يخيم على الأجواء بصوت طرقاتٍ على باب المسجد.. علمنا أنه المتنبي، لكننا استغربنا فعله الذي ينافي التسلل الذي تحدَّثَ عنه.. وجمت من الترقب، وانقطعت أنفاسنا من الانتظار، قبل أن يُفتحَ باب المسجد ويخرج منه رجل ملتحٍ طويل عريض المنكبين يمسك طرف جلبابه بيمناه، ويلتفت يمينا ويسارا بحثا عن الطارق.. في تلك الأثناء أدركنا الغاية من طرقات المتنبي، وقال المهدي وقد ندت عنه آهة:

- ياله من ماكر يدخل من أوسع الأبواب!.. فلنتقدم إلى الباب الخلفي، لا شك أن المتنبي صار داخل المسجد الآن!

فعمدنا إلى النعوش، وشرعنا في جرها رويدا رويدا.. إلى أن صرنا أمام الباب الخلفي مباشرة وربضنا هناك.. ومع أنني كنت خفيا، كنت ألتفت في كل الاتجاهات خوفاً من قادمٍ، وكنت لا أتوقف عن العبث بأصابعي رغبة في تشتيت تفكيري عن تأنيب الضمير، ذلك الضمير الذي لا يحيى إلا في آخر الأوقات ليذكرني بأن السرقة في بيت الله جرم مزدوج وذنب عظيم.. لم أكن بحاجة إلى ضمير ينبهني وقتها؛ فلقد كنت مدركا لعظم المصيبة

وفداحة عبئها!.. لكن ما من حل بديل! وما من خيار آخر!.. نعم، لقد كان بإمكاني الخيار قبل ذلك، كان بإمكاني الأخذ بتحذيرات جدتي!.. كان بإمكاني الابتعاد عن السيمياء!.. كان بإمكاني ألا أستدعي المتنبي!.. كان بإمكاني ألا أتَّبِع خطواته!.. كان بإمكاني منع ذلك منذ البداية!.. لكنني أخذت بالأسباب التي تقود إلى هذه النهاية!.. واخترت أن أمَثِّل من القدرِ جانبهُ الشرير!..

بعد ثلث ساعة من القلق والتأنيب، فُتِح الباب الخلفي أخيرا.. وانطلقنا إليه في حذر، ثم طفقنا نبطئ من سرعتنا ونحن نقترب شيئا فشيئا.. إلى أن توقفنا على بعد خطوتين منه، وتكلم المتنبي من داخل المسجد بصوت تخالطه نبرات السرور:

- لقد كانوا سبعة رجال!.. اختلست مسدس واحد منهم؛ وأجهزت عليهم جميعا!

شُلَّت أطرافي مما قاله! وقال المهدي مضطربا وهو لا يصدق ما سمِعَه:

- لكننا.. لم نتفق على ذلك!..

ثم أردف رغبة في التأكد:

- لاشك أنك تمزح؛ لم نسمع صوت الرصاص!..

أجاب المتنبي:

- إن للمسدسِ كاتما للصوت..

هرعنا إلى الداخل وقد ألقينا ما بأيدينا وراءنا، لنُصدم بما رأيناه ملقىً أمامنا.. بركة من الدماء على طول الممر تتخللها جثث ترتدي البياض.. أبشع منظر أراه في حياتي.. بشاعة تتسلل إلى كل خلية من خليتك

وتدفعك إلى التقيؤ من شدة الإشمئزاز.. لا أذكر كم تقيأت، ولا أذكر لكم من دقيقة أغمي علي.. قبل أن يقف المتنبي عند رأسي ويقول مستعجلا:

- لا وقت لدينا للنواح ولطم الخدود يا فتى!.. فلتساعدنا على رفع التوابيت!

نهضت والمكان يدور من حولي من حدة الصدمة، وسرت إلى غرفة تغسيل الموتى وأنا أستند على الجدار.. كان الآخرون قد نزعوا الطلاسم آنذاك وبدوا للعيان حتى يسهل تعاملنا مع التوابيت، ثم انضممت إليهم آخذا مكاني عند ركن التابوت الخشبي.. كنت بالكاد قادرا على حمل نفسي، لكنني بذلت جهودا مضاعفة بغية الخروج من هناك بأسرع ما يمكنني، وحملت التابوت مع الرفاق وأصابعي تكاد تتمزق من ثقله الذي أرهقني؛ قبل أن نضعه على النعش المخصص له، ونكرر العملية مع التابوتين الآخريْنِ.. كانت آمارات الندم بادية على المهدي وعزوز، فيما احتفظ المتنبي بابتسامة تكشف طبيعة قلبه الباردة الحجرية، وتؤكد أنه كائن أبعد ما يكون عن البشرية.. في تلك اللحظة، رمقني بنظرة ثاقبة وقال لي:

- وأنت تنضج ستضطر إلى القيام بأمور غبية خدمة للصالح العام، عندئذ ستعي الفرق الشاسع بين الدهاء والحكمة!..

لم أستوعب قوله، ولم أكن راغبا في ذلك.. كنت أفكر في تسليم الذهب للشرطة، واستغرقت في شرودي باحثا عن خطة لذلك.. حتى سمعته يقول:

- ضعوا الطلاسم!.. ولتستعدوا لإخراج التوابيت!..

أخرجنا التوابيت الثقيلة تباعا، وسحبت منها واحدا بشق الأنفس.. كنت أجره على طول الحقل وقدماي تنزلقان من العرق الذي كان يتصبب إليهما.. لكن ثقل التابوت الذي قصم ظهري، لم يكن شيئا مذكورا أمام ثقل

الخطيئة التي كانت تحرق فؤادي! لقد انهرت كليا وأنا أتذكر منظر القتلى، لقد كان أحدهم يتيمن سبحة وقرآنا!.. بدا من تقاسيم وجهه أنه كان آمنا مطمئنا.. إلا أن المتنبي اغتاله ببرودة مطلقة!.. ترى ماذا سيفعل أولاده حين يعلمون أن أباهم العزيز لن يعود إلى البيت مجددا؟!.. ماذا سيفعلون حين يدركون أنهم لن يسمعوا صوته مرة أخرى؟!.. لقد حرمتهم إياه بمشاركتي في هذا الأمر!.. ياليتني قتلت القاتل لا المقتول!..

بمجرد أن وصلنا إلى الشاحنة أزلنا الطلاسم مرة أخرى.. كان لزاما علينا فعل ذلك اجتنابا للفوضى ورغبة في صف التوابيت بشكل صحيح.. أذكر أننا حمّلنا البضاعة دون أن يكلم أحدنا الآخر، أو ينظر إليه.. فباستثناء المتنبي، كنا نشعر بالخزي والعار.. فهذا عزوز قد تحول من مظلوم بريء إلى ظالم جريء.. وهذا المهدي الذي كان يمني النفس بالمجد وأعلى عليين، خذله قدره وصار في أسفل السافلين، ولعله أدرك ذلك متأخرا حين أغلق باب الشاحنة بعنف فضحَ غمّه وحسرته.. لِيحدق إليه المتنبي مطولا، ويربت على كتفه وهو يسحبه إلى الشجرة قائلا:

- لا عليك يا مهدي.. إنك لن تحزن بعد حزنك هذا!

فنظر إليه المهدي بعينيه الحزينتين متسائلا.. لكن المتنبي وعلى عكس ما كان متوقعا لم يجبه، بل استل مسدسا من تحت حزامه وصوبه نحو جبينه وهو يقول:

- آسف يا رفيق!.. هنا تنتهي مهمتك!.

فضغط على الزناد وعبرت الرصاصة كاتم الصوت لتخترق جبهة المهدي، ويخر على الأرض وقد تفجرت الدماء من رأسه كما تتفجر المياه من الينبوع.. فتعالى صوت عزوز بالصراخ والعويل، وتجمدت في مكاني

عاجزا عن الفهم والتأويل.. قبل أن يطلق المتنبي رصاصة أخرى إلى قلب عزوز؛ ويوقفه عن الصراخ إلى الأبد.. فشعرت بالدوار، وكاد أن يغشى علي من هول المنظر.. بَيد أنني قاومت ضعفي، وسألته بلهجة ساخطة يلفها الجنون :

- لماذا يا متنبي؟!!!.. لماذا؟!!!

فتقدم نحوي بخطوتين.. ورفع سلاحه في وجهي مجيبا:

- لأنني أردت ذلك منذ البداية.. كنت بحاجة إلى الذهب؛ فاستعملتكم للحصول عليه، وما عدت بحاجة إليكم بعد الآن!

ازداد حنقي وأنا أرى ابتسامته الشامتة، ثم اشتد حين أدركت أنني أكبر مغفل على وجه الأرض.. لم يكن في يدي، أو على مقربة مني أي شيء أدافع به عن نفسي، سوى لساني الذي شرع في الحديث:

- لقد جلبتك إلى عالمي، وآويتك في بيتي، وأطعمتك من طعامي!.. ثم تغدر بي؟!..

أجاب بمنتهى الهدوء:

- لَم أطلب منك جلبي.. أنت فعلت ذلك!..

فاستدركت وأنا أحاول الابتعاد عن المسدس ببطء:

- لكنك لن تصل إلى العراق، ولن تحقق طموحك بقتل رفاقك في كل مرة يا متنبي!.. بل لن تستطيع الخروج من هذا البلد أصلا! أنسيت أنك لا تحسن القيادة ولا تملك بطاقة هوية؟!..

قهقه بشدة.. ثم قال:

- هل صدقت حقا أنني مهتم بأمر الحكم والعراق؟!.. أفعلا صدقت أنني راغب في السيادة ومجدها؟!.. يا لك من مغفل!!.. لا أنكر أنها

كانت رغبة قريني أبي الطيب، لكنها لم تكن يوما رغبتي.. أنا المتنبي! أنا أكبر من أن أحصر نفسي في بلد أو أمة، أنا أكبر من أن أفني حياتي في سماع الشكاوى وحل المآسي!.. ألا تعلم بأن الحكام هم أشقى الناس؟!.. هل تظن أن عاقلا مثلي سينفق ذهبه بحثا عن الشقاء!.. اللعنة على المجد إن كان على هذه الطريقة!.. أما بالنسبة للقيادة، فلا يقلقنك أمرها؛ نحن معشر الجن نتعلم من المعاينة.. أما الخروج من البلد، فلا شك أنني سأجد مغفلا مثلك يساعدني على ذلك.. صحيح أن هذا الجسد البشري الذي يسجنني يحد من قدرتي، لكنه يمنح صاحبه متعة مضاعفة!..

- كنت تكذب إذا؟!

سكت لبرهة من الوقت مبتسما.. ثم قال وهو ينزل المسدس إلى صدري:

- لو أنني صارحتكم بحقيقة نواياي، لما كان الذهب بحوزتي الآن!.. وبما أنك على شفير الموت، سأقول لك سرا لن تستطيع إفشاءه.. لقد بحثت عن نقاط ضعفكم، وعظمت أمرها في عيونكم، فسَهُل بذلك خداعكم.. لكن ما كان ذلك لينجح لولا قوة إقناعي وسحر بياني، والقليل من الطلاسم التي استعملتها في التحكم بعقل المهدي وعزوز.. صراحة، لا أدري لمَ لم تنفعني تلك الطلاسم معك؟!
- اللعنة عليك!.. لقد اعتبرناك صديقا!
- القدرة على خلق الأصدقاء وحُبِّهم أمر عظيم.. لكن القدرة على التوقف عن ذلك متى تشاء أمر أعظم.. لقد شاءت الصدف أن تجلبني إلى عالمك، كما شاءت أن أكون الذي يخرجك منه يا صديق! فلتنعم بموت هنيء يا أحمد..

ثم أطلقها في صدري، وهويت بثقلي على الأرض.. شعرت بأن كل عرق من عروقي ينقبض ويبتعد عن الآخر من شدة الألم، ورأيت البخار ينطلق من جرح الرصاصة ليأخذ طريقه نحو السماء.. تلك السماء المظلمة التي خبت نجومها شيئا فشيئا إلى أن اختفت وسط السواد المطلق.. في تلك اللحظة، كنت كبالون انفجر، واستحال عليه أن يلم شتاته..

الحيرة

فتحت عينيّ على منظر ضبابيٍّ عكّر صفوَ رؤيتي.. استدعى الأمر دقيقة كاملة حتى أميز وجود خمسة أشخاص من حولي، واحتجت إلى دقيقة إضافية قبل أن أدرك أنني على سرير غرفتي، وأن من كانوا حولي، لن يكونوا سوى يوسف، والشريف، والمهدي، وعزوز، وجدتي.. فانتفضتُ متكئا من الدهشة والذهول! وأخذ المهدي ويوسف يتغامزان ويتضاحكان.. إلى أن أمسكت جدتي بيدي، وقالت وهي تغص بالبكاء:

- الحمد لله الذي لطف بك يا ولدي!

تضاعفت حيرتي مما أراه وأسمعه، وشرعت في فك أزرار قميصي بحثا عن الجرح.. لكنني لم أجد له مكانا في صدري، ولا في جبهة المهدي أيضا!.. استغربت جدتي تصرفي؛ فأجهشت بالبكاء وهي تردد:

- لقد جن ولدي!.. لقد جن ولدي!

وبقدرما كانت تنوح، كان الآخرون ينفجرون ضحكا.. وكدت أن أجن حقا مما يقع أمامي لولا أن تكلم عزوز بنبرة عاقلة رزينة لا تمت إلى جنونه المألوف بصلة:

- الحمد لله والشكر له أن أعادك إلى وعيك سالما!

فسألته متعجبا:

- فقدتُ الوعي؟!.. لم أفهم؟!

فقال المهدي ويوسف يميل على كتفه من شدة الضحك:

- أجـل لقـد فقـدت الـوعي لاثنتـي عشـرة سـاعة!.. ألا تـذكر عنـدما حاولنـا بـالأمس اسـتدعاء قـرين المتنبـي؟!.. لقـد ارتجـت الأرض؛ ففقدت توازنك وسقطت على رأسك!..

استغربت قائلا:

- بالأمس؟!

أجاب يوسف دون أن يتوقف عن الضحك:

- نعم.. بالأمس، لقد ظننا أن جنيا ضربك!.. لقد غبت عن الوعي يا صاح، ظننا أنك ستستيقظ خلال وقت قصير، لكنك أخذت تغمغم بأصوات غريبة!.. كنت تردد " قرين.. متنبي.. ذهب.." وكلمات من هذا القبيل!..

ثم أضاف المهدي:

- خفنا أن تسوء حالتك! فخرجنا على الفور وقمنا بإحضار الشريف ليرى ما أصابك، بعد أن حكينا له ما وقع..

ليقول الشريف وهو يربت على ركبتي:

- أقلقتنا عليك يا أحمد!.. هل..

قاطعته جدتي والغضب يتملكها:

- لطالما حذرتك من السيمياء يا ولدي! لكنك أبيت إلا أن تتبع هذا الدجال الذي يدعي الشرف!

فرددت على جدتي بصوت مبحوح:

- لا علاقـة للشـريف بمـا وقـع يـا جـدتي!.. لقـد كنـت ألهـو بـتلاوة مخطوط، فوقع ما وقع، على كل حال، لن يتكرر الأمر!

تبددت معالم القلق من وجه جدتي، وغادرت الغرفة باتجاه المطبخ.. فيما استمر يوسف في ضحكه:

- بعد شفاء عزوز، حطت الجن رحالها في رحاب أحمد!.. سنستمتع بجنونك يا صاح!

فتذكرت أمر عزوز، وسألته رغبة في الإطمئنان عليه:

- أتشعر بتحسن بعد أن فك الشريف البارحة ما سحروك به؟!

أجاب وقد أمسك بمنكب الشريف:

- الحمد لله الذي سخر لي هذا الرجل!.. لقد أزاح عني ثقلا عظيما!

فابتسمت في وجهه، وطأطأت رأسي مسترجعا ما عشته أثناء غيبوبتي.. لم يكن حلما بالتأكيد؛ فذلك الكم من الأحداث وذاك التسلسل المنطقي بها، وذلك الحضور القوي لحواسي وتفكيري، عوامل من المستحيل حدوثها بتلك الدقة في عالم الأحلام!.. بل على العكس من ذلك، أشعر أن ما حدث لي أكثر وقعا في نفسي من الواقع نفسه!.. إذ أنني كنت ما أزال قادرا على استحضار كل مشهد مررت به، وكل كلمة قيلت، وكل خاطر خطر على نفسي إبان تلك التجربة!.. من المستحيل أن يكون حلما!.. لكنني الآن في بيتي، ورفيقاي اللذان قُتِلا أمام عيني، حيان يرزقان! وهاهما الآن يجلسان أمامي.. ما الذي حصل بالضبط؟!.. هل أغمي علي حقا؟!.. أم أنني كنت في عالم آخر؟!.. أمضيت أشهرا برفقة المتنبي! وسافرت لمئات الأميال! وتعلمت الكثير!.. لكنهم يقولون أني غبت عن الوعي لاثنتي عشرة ساعة فقط!.. ربااه!.. ما الذي حصل معي؟!.. استشكل علي الأمر، وامتنع التفسير.. وسألني المهدي بفضوله المعروف:

- ما الذي حصل معك يا أحمد؟!..

طَرَفْتُ إليه وأنا أجهل الجواب:

- لا أدري!.. لا أدري!..

***

مضى أسبوعان وأنا لا أزال على تحيري.. لكن، بقدرما كنت حائرا في تفسير ما وقع، كنت مسرورا بنجاتي من غم مقتل الصعلوك، وببراءتي من اقتحام البنك، وبعودة أصدقائي إلى الحياة.. كنت سعيدا بعدم وقوع تلك الأحداث في واقعي المُعاش، وأكبر دليل على ذلك، أنني قلت للمهدي أثناء توديعه مع الرفاق في المحطة:

- يسعدني أنك ما تزال على قيد الحياة يا صديق!

أذكر أنه ضحك كثيرا، قبل أن يقول وعلى محياه أمارات الاستغراب:

- قيد الحياة؟!..ماذا تقصد بقولك هذا؟!

أجبته ضاحكا:

- لاشيء.. من الأفضل ألا تعلم!

فرد وقد لكَم صدري:

- لقد صدقت جدتك حين قالت إنك قد جننت.. إلى اللقاء يا أحمد؛ لقد وصلت حافلتي!..
- إلى اللقاء، فليكن طريقك سالما..

ثم صافحت عزوز، وقلت له:

- يسرني أنك شفيت يا ظريف.. لكنني سأشتاق إلى بَلَهِك وجنونك يا عزوز!

فضحك وفرك قفاه.. ثم رد علي:

- إن أغلب من تنعتهم بالبلاهة والجنون، هم أناس يكترثون لراحة نفوسهم أكثر مما يكترثون لكلام الآخرين.. وعدم إدراكك لذلك؛ يجعلك الأبله الحقيقي!..

وبعد أن ابتسمت متعمقا في قوله، سألته عن فضول:

- وماذا ستفعل بخصوص من سَحَرك؟!.. ستنتقم؟!.. أم ستتركه للإله؟!

ففكر مليا ثم أجاب:

- الضعيف عاجز لا يستطيع أن ينتقم، والشجاع يحتاج إلى مساعدة لينتقم.. أما القوي فينتقم بيده ولا حاجة له بالمساعدة، لكن الأقوى لا ينتقم، ولا يجد في نفسه حاجة للإنتقام أصلا!.. هنا يتشابه الضعيف والأقوى، بَيد أن دوافعهم مختلفة..

ثم ركض باتجاه حافلته التي أوشكت على مغادرة المحطة.. لكنه ما لبث أن التفت إلي وهو يبتسم قائلا:

- لكن الإله سينتقم منه يا أحمد!.. وسينتقم بواسطتي طبعا!

فضحكت من شر ما يعتزم القيام به، واتجهت إلى يوسف الذي كان يجلس القرفصاء على الرصيف منتظرا قدوم حافلته:

- سأشتاق لنكاتك يا صديق!..

فأبعد يديه عن ركبتيه وقد ابتسم قائلا:

- لقد سعدت بصحبتكم حقا!.. لكنني ما أزال مستاءً من رسوبي؛ نجح الجميع ما عداي!..

ترققت لحاله؛ وجلست إلى جانبه محاولا أن أخفف من استيائه:

- اسمع يا يوسف .. إن غباءك هو السبب الرئيس في استيائك الذي ينشأ عن مقارنة أوضاعك بأوضاع الآخرين؛ بحيث تنسى تماما أن ظروفك غيرُ ظروفِهم!
- ربما!.. ألديك نصيحة لي بخصوص ذلك؟!
- لا، ولكن لديَّ رقم الكُتُبِيِّ "حميد".. إن لديه نسخا من جميع المحاضرات التي درسناها، اِتصل به لكي يرسلها لك، ثم احفظها عن ظهر قلب؛ فهكذا يتم النجاح في جامعاتنا، إحفظ ما يملونه عليك وتقيأه على ورقة الإمتحان، وإياك أن تستخدم عقلك!.. إياك أن تفكر!..

فانفجر ضاحكا.. ولما أخرجت هاتفي من جيبي؛ سقطت منه بطاقة سوداء صغيرة على الأرض.. فأجَّلت التقاطها، وأمليتُ الرقم عليه.. ثم صافحني مودعا حين وصلت حافلته، لأعود إلى البطاقة وألتقطها من الأرض.. ظللت أراقب يوسف إلى أن استقل الحافلة، ثم اتجهت إلى مخرج المحطة وأنا أمسح التراب عن البطاقة، وحالما اتضح المكتوب عليها؛ صُدِمت للمرة الثانية.. صدمت بقوة أكبر، ودخلت في حيرة أعمق.. ذلك أن المكتوب كان كالتالي: " مجوهرات روما - عند فرانشيسكو بالديني - المدينة القديمة - فاس".. فتوقفت في مكاني ساهما واجما عاجزا عن التفكير أو التحليل، لكنني صرت على يقين تام، بأن هذا الإيطالي يخفي وراءه أمرا عظيما، وأنه الوحيد الذي يملك تفسيرا لما وقع.. فعدت أدراجي، وبدأت في البحث عن حافلة تقلني إلى فاس..

***

وصلت فاس وظهيرةَ اليوم الموالي، وسلكت نفس الطريق الذي سلكته برفقة المتنبي أثناء غيبوبتي.. المنعرجات ذاتها!.. الزقاق عينه!.. المتجر نفسه!.. لقد تحقق ما رأيته أثناء غيابي عن الوعي أمام عيني، وكاد عقلي أن ينفجر من جمجمته جراء الاضطراب الشديد الذي عصف بذهني وأنا ألمح فرانشيسكو يسير داخل متجره!.. إنه هو! بشحمه ولحمه! كيف يعقل أن يكون هذا حقيقيا؟! كيف يمكن أن يكون هذا منطقيا؟!.. أقابل شخصا لا أعرفه، في مكان لم أزره قط، في شيء يشبه الحلم! ثم أكتشف أن كل ذلك موجود حقا!..

دخلت إلى المتجر بسرعة قبل أن أُجنّ وخاطبت فرانشيسكو الذي كان منكبا على فرز مجموعة من الأقراط:

- من تكون؟!

رفع فرانشيسكو رأسه عن الأقراط، وانفرجت أساريره عن ضحكة خفيفة وهو يقول:

- من عادة الناس إلقاء السلام قبل الكلام؛ أم أنك نسيت يا أحمد؟!

فقلت مندهشا:

- أوَ تعرف اسمي؟

أجاب وعليه معالم الاستغراب:

- لقد سبق وأخبرتني به!.. أم أنك نسيت يا أحمد؟!..

سكتت لبرهة وأنا أحدق إليه بنظرات ارتياب.. ثم سألته مجددا:

- بالله عليك!.. من تكون؟!

فترك الأقراط من يده.. وأجاب:

- اسمي فرانشيسكو، ولقد سبق أن أخبرتك بقصة حياتي.. أم أنك نسيت؟!

اتكأت على السارية وأمسكت برأسي متأففا.. ثم صرخت في وجهه:

- كفى من ألاعيبك!.. أنا على يقين تام بأنني لم أقابلك من قبل؛ لقد كنتُ طريح الفراش لنصف يوم فقط، كيف يعقل أن أمضي أشهرا وأياما برفقة المتنبي وأستولي على كنز وأزورك وأسرق خزائن الدولة في ظرف اثنتي عشرة ساعة ودون أن أبرح مكاني؟! كيف حدث ذلك؟! أي خيال هذا؟! وأي واقع هذا؟!

أجاب وقد شرع في نفض الغبار عن تشكيلة من القلائد الفضية:

- لم يحدث ذلك في عالم الواقع، ولا في عالم الخيال.. بل في عالم أعمق منهما!

سكن عني الغضب قليلا، واستفهمته:

- عن أي عالم تتحدث؟!
- أتحدث عن عالم المِثال، إنه عالم بين عالم الواقع وعالم الروح..
- هلا فسرت؟!
- العوالم عديدة.. من بينها عالم واقعي أنت مجبور على العيش فيه، وعالم خيالي من نسجك تهرب إليه من حين لآخر للإستئناس، وعالم المثال الذي لا يلجه إلا القلة القليلة من الناس، وعالم الأرواح أو ما يسمى بعالم البرزخ..

تمعنت في كلامه أملا في الاستيعاب.. ثم سألته:

- وكيفَ دخلتُ إلى عالم المثال؟!
- أنا من أدخلك إليه، أما أنت فلا قدرة لك على الدخول إليه بمفردك..

فقلت وقد ازداد فضولي:

- ولمَ أدخلتني؟!

أجاب:

- لكي أعلمك دروسا لن تنساها..
- لم أفهم؟!.. أبإمكانك أن تشرح لي دون أن أضطر إلى استفسارك في كل لحظة؟!

ابتسم مجددا.. واتجه إلى مكتبه وهو يشير علي بالدخول:

- فلتتفضل.. لا يجدر بي أن أبقيك واقفا هكذا!

دخلت المكتب وجلست في نفس المقعد الذي جلست عليه سابقا، ثم قدم لي طبقا من الحلوى كان على مكتبه:

- تفضل.. فلتتذوق منها، إنها إيطالية!

أخذت منها واحدة وقلت له متعجبا:

- عجبا لأمرك!.. إيطالي يتقن الحديث بالعربية!

رد قائلا:

- مثلك تماما، أمازيغي يتقن العربية!.. كلانا من العجم، وكلانا يعشق العربية!
- لكن أجدادي من العرب يا فرانشيسكو! أما أنت فلا..

فضحك لقولي.. وقال:

- كلنا من آدم، وآدم من تراب..

ثم عدت إلى موضوعنا مكررا السؤال:

- لِمَ أدخلتني إلى عالم المثال؟! وكيف حدث ذلك؟!

فأجاب وقد تحولت ملامحه من البسط إلى الجد:

- سأشرح لك يا أحمد.. لكنك لن تستوعب ما سأقوله بشكل كامل ولو حاولت، لأن بعض التفاصيل التي سأذكرها لك مسائلٌ ذَوقية لن تفهمها إلا إذا عشتها وتذوقت معناها..
- ذَوقية؟! لم أفهم؟!
- حسنا.. لنفترض أن شخصا لم يتذوق قط فاكهة الفراولة وطلب منك أن تصف له مذاقها، هل ستستطيع وصفه له؟

سكتُّ وأنا أفكر في الأمر.. لكن فرانشيسكو استرسل حديثه:

- لن تستطيع ذلك يا أحمد، عليك أن تذيقه من الفراولة لكي يتعرف على مذاق الفراولة.. الوصف لن يفيدك في هذه الحالة يا بني!..
- فهمت عليك.. فلتشرح لي إذا كيف تمكنتَ من الولوج إلى عالم المثال؟! وكيف أدخلتني؟! ولم أدخلتني؟!

فبرزت نواجده من الضحك، وقال:

- فلتتمهل قليلا!.. لكي تفهم ذلك؛ علي سرد الحكاية من جذورها!..
- فلتتفضل!.. كلي آذان صاغية!..

فاتكأ فرانشيسكو على مقعده الجلدي الفاخر، وأخذ في الحكي وهو يحدق إلى الفراغ مسترجعا مِمّا مر عليه من ذكريات:

- بعد استقراري بهذه المدينة وزواجي بفتاة من بناتها كما أخبرتك سابقا، سارت أموري على ما يرام.. ازدهرت تجارتي، وأنجبت طفلتين جميلتين، واستقرت حياتي بنحو لم يتحقق لي من قبل.. لكن، وعلى الرغم من هذا كله شعرت بتقصيري نحو الخالق، إذ اكتشفت أن سعادتي بما أملكه من مال وبنين حالت دون أن أستمر في توطيد علاقتي بالله ومعرفته بشكل أكبر.. ولأن معرفة

الله وعبادَته تحتاج إلى علم بذلك؛ قررت أن أنهل من علوم الشريعة وأتخلق بثمارها، خصوصا بعدما عرفت أن الله لا يُعبد عن جهل.. لذلك قصدت أحد أشهر علماء المدينة، وشرعت في حفظ القرآن على يديه، ودراسة أصول الفقه وعلوم الحديث، وفقه السيرة.. بعد سنوات يسيرة، تمكنت من تكوين رصيد فقهي مهم؛ أهّلني إلى تقديم ودروس في المساجد، وفتح نقاشات مع العلماء في بعض الأحيان، ومناظرتهم في أحايين أخرى، فصرت فرحا بالعلوم التي تعلمتها، وغدوت مسرورا بالمكانة التي تبوأتها.. إلا أن ما جمعته من علوم لم يزد من السكينة والإطمئنان الذي أشعر به نحو الله، بل على العكس من ذلك، تناقص إيماني وضَعُف ذلك الرابط الذي يجمعني بالله.. فاستقصيت حالى، واكتشفت أن السبب في ذلك راجع إلى فساد نيتي؛ حيث أن اهتمامي بالعلم لم يكن لوجه الله عز وجل، بل من أجل السمعة وحب الظهور، أي أن عملي كان رياءً ولم يكن خالصا.. عرضت الأمر على العالِم الذي أتتلمذ على يديه؛ فنصحني باتخاذ مُعلّم تزكية.. ولما سألته عن ماهية هذا الأخير؛ أخبرني أنه المعلم الذي من شأنه أن يساعدني على تطهير قلبي من ريائه وصفاته الذميمة، تحقيقا للجهاد الأكبر الذي رغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وعرَّفَه بمجاهدة العبد لهواه.. وأخبرني أيضا أن طلب العلم دون الحرص على تزكية الأخلاق منزلق خطير سيؤدي بي حتما إلى الهلاك، ضاربا المثل بإبليس الذي لم تنفع عبادته وعلمه الغزير في تطهير نفسه من الأنا والكبرياء؛ مما أدى به إلى الطرد من رحمة الله والدخول في بحر اللعنة والشقاء.. ثم دلني على نعمان الخضار، وقال إنه أكثر شخص يثق في قدرته على مساعدتي في مجاهدتي

لنفسـي.. كـان نعمـان الخضـار شـيخا مسـنا، يمضـي أوقاتـه فـي موضعين لا ثالث لهما، أولهما مسجده، وثانيهما سوق الخضر.. في بادئ الأمر، أوجست في نفسي احتقارا لنعمان؛ ذلك أن له أصحابا من أراذل المجتمع، لا علم لهم يفيدون به، ولا عمل لهم يعيشون منه.. غير أنني تجاوزت عن ذلك بناء على نصيحتي شيخي، وتوجهت إلى نعمان مخبرا إياه بقضيتي؛ فقبل عثمان طلبي، واشترط علي ألا أخالف له أمرا إذا أردت صحبته؛ فوافقت على ذلك، ولازمته بنِيّة تطهير نفسي وقهر أهوائي.. في البداية كان الأمر صعبا علي؛ حيث كان يأمرني بالتخلي عن ملابسي الفارهة، وبحلق شعري وارتداء ثياب أقل تناسقا وجمالا.. بعد ذلك، صار يأمرني بشغل مكانه في السوق وبيع الخضر في عربته المهترئة التي كان الكل يستحيي من الظهور بها أمام الأنام، بل وأصبح يأمرني بالتقليل من الطعام والنوم والكلام.. فضقت درعا بأوامره، وسألته ذات يوم عن الحكمة من ذلك كله.. فأخبرني بأن جهاد النفس يستلزم مخالفتها في كل ما تحبه وترتاح إليه، وذلك لا يتحقق إلا بإجبارها على كل ما تكرهه وتنفر منه.. فاستوعبت حكمته وسرت على ذلك النهج إلى أن استشعرت تحولا طال نفسي وأحوالي كلها..

سكت فرانشيسكو بعد أن دخل علينا نادل يحمل فنجاني قهوة، ونظرت إليه باستغراب وهو يضع الفنجانين على المكتب، ثم غادر قبل أن يضحك الإيطالي وقد انتبه إلى استغرابي:

- لا تتعجب، فلقد كنت على علم بأمر قدومك وطلبت لنا القهوة.. ألم أقل لك إنك ستعود رغما عنك! ؟..

فابتسمت وأنا آخذ الفنجان، ثم طلبت منه أن يستمر في سرد مابدأه قائلا:

- وكيف كان هذا التحول الذي طال نفسك وأحوالك؟!

فارتشف قهوته.. وقال:

- لقد صرت أكثر راحة، وأكثر مناعة.. ما عدت ذلك الإنسان الذي تستجيب شهوته لطعام لذيذ أو لمجلس مريح أو لمركب فاخر أو لمنظر جميل، استوت لدي المغريات والمُنَفّرات.. أيضا ما عدت ألقي بالا لكلام الآخرين واعتباراتهم، حين بات بإمكاني أن أحقق ذاتي دون حاجة لارتساماتهم ومدائحهم.. كنت أظن أن تحقيقي لذلك قد طهر قلبي من الرياء والسمعة وحب الظهور، بيد أن السيد نعمان صدمني حين قال بأنني ما زلت في بداية الطريق، وأن التزكية الحقيقية لأخلاقي لا تقتضي أن أقصي نفسي من اعتبارات الآخرين فقط، بل أن أقصي نفسي من نفسي أيضا، أي أن لا أضع اعتبارا لنفسي أمام الله وأن لا أرى نفسي أمامه عز وجل، ما يعني أن قلبي لا بد وأن يفرغ من كل شيء إلا الله، وأن لا يتعلق بحب شيء سواه.. فأمرني باعتزال الناس لفترة والمداومة على الذكر والتفكر في عظمة الله؛ لما في ذلك من قدرة على تركيز قلبي على الله ومنعه من الانشغال بما دونه، وقال لي إن معرفة الله لا تحصل بالاطلاع على الكتب كغيرها من العلوم، بل بتنقية القلب من العوالق والشوائب وتأهيله ليصبح قادرا على عكس المعرفة المقدسة المتأصلة في الروح.. إذ أن معرفة الله لا تحقق بالتدبر فيما حولنا فقط، بل بالتنقيب في دواخلنا، وبتطهير أنفسنا حتى تصير على هيأتها الفطرية التي تعرف الله، وذلك لا يتحقق إلا بتطبيق التوحيد الحقيقي، أي ألا ترى سواه، فلو كنت

ترى نفسك معه، فهذا يعني أنك لا توحده التوحيد الذي لا يليق به.. فأخذت بنصيحته والتزمت بخلوتي وأذكاري، وشيئا فشيئا بدأت مرآة قلبي من التخلص من أدرانها، فبدأت إشارات الصفاء تتجلى على شكل رؤى ومنامات، ثم على شكل خواطر وخيالات.. إلى أن دخلت إلى مراحل متقدمة ما بين الخيال واليقظة؛ فانكشفت أمامي أسرار كثيرة، وزرت عوالما عديدة.. ومع التدرج في طريق التزكية والتطهير تخلصت نفسي كليا من ظلمتها المادية، واكتسبت روحها النورانية، فتقوت روحي واستطاعت أن تتجاوز حدود جسدي، وبعد أن كانت أسيرة للمادة، صارت المادة أسيرة لديها، وبات في إمكاني أن أتحكم بالعالم المادي في حدود، دون أن أسيء الأدب مع خالقي.. فصار بإمكاني الولوج إلى عالم المثال، وصرت مكلفا بتأدية مهام هناك..

توقفت عن ارتشاف قهوتي، وأشرت له بيدي مستمهلا:

- مهلا.. مهلا.. عن أي مهام تتحدث لم أفهم!

فشبك بين أصابعه، وأجاب:

- اسمع.. بالموازاة مع هذا العالم المادي الذي تحكمه دول وممالك عن طريق أنظمة تسوس الأمم، توجد دولة موازية تقوم بسياسة أمور القلب والروح، ولهذه الدولة ملوكها وجيوشها، ولا علاقة لها بهذا العالم الي نعيشه من قريب ولا بعيد..

نظرت إليه بارتياب لا يخلو من الشكوك، وحاولت أن أتجاوز ما لا أفهمه من كلامه إلى ما ينبغي علي فهمه:

- سأسألك مجددا يا فرانشيسكو.. لماذا أدخلتني إلى عالم المثال؟! وما الداعي إلى كل تلك الأحداث التي عشتها مع المتنبي والرفاق؟! وكيف حدث ذلك كله؟!

فقام عن مقعده وسار إلى درجات تنتهي بنافذة عملاقة تتوسط الجدار، ثم قال وهو ينظر إلى الخارج عبر النافذة:

- يا أحمد.. عندما نسختَ طلسما وهممت باستدعاء قرين المتنبي، كان علي أن أتدخل وأمنع ذلك بحكم المهام المنوطة بي في عالم المثال.. فمهامي تلزمني بإبطال كل عمل سيميائي من شأنه أن يخل بتوازن العالم الموازي أو يؤثر في العالم المادي، كنت مخيرا ما بين إبطال عملك، أو إصابتك بالجنون، لكن، عندما اطلعت على أحوالك وعلمت أنك مجرد فتى بريء لا يعرف هدفه من هذه الحياة، قررت أن أدخلك في تجربة تتجاوز حدود الزمان، تجربة تعلمك معظم دروس الحياة في وقت قصير وتبين لك أن الهدف الوحيد الذي يستحق ان تعيش من أجله هو الله.. تجربة أتحكم في عواملها دون أن أحرمك من حرية الاختيار، تجربة تنعكس فيها جميع تناقضاتك وطموحاتك وميولاتك إلى شخوص وواقع ملموس.. إن المتنبي الذي رافقته طوال الرحلة، لم يكن سوى انعكاس لنفسك الطموحة التي تنشد القوة وقهر الصعاب، نفسك التي تقنعك دوما بأنها على صواب حتى تهوي بك في الظلام السحيق، إن المتنبي انعكاس لنفسك التي تخدعك دوما دون أن تفطن لخداعها.. أما عزوز فلقد كان انعكاسا لنفسك الرحيمة البريئة التي تبحث عن مكامن الجمال وتحوله إلى فن وإبداع.. أما يوسف فلقد كان انعكاسا لنفسك الحيوانية التافهة التي لا

تهتم إلا بملذات الدنيا وسبل الاستمتاع.. في الوقت الذي كان فيه المهدي، انعكاسا لنفسك الشيطانية التي تتلذذ بالمكر والاحتيال.. إنهم انعكاسات نفسك المتناقضة المضطربة يا أحمد..

انعقد لساني عن الكلام من فرط الدهشة والذهول.. وأضاف فرانشيسكو:

- لعلك تدرك الآن.. أنه ما من هدف أسمى من خالق الأهداف كلها! وما من لذة أعظم من لذة التعلق بالله يا أحمد.. ليس الشأن أن تحب الله، لكن الشأن في أن يحبك الله، وهذا ما يجب على الناس أن يتنافسوا للحصول عليه..

أطرقت رأسي مفكرا.. ثم قمت عن مقعدي قائلا:

- ومع كل ما فعَلته وما تقوله يا فرانشيسكو، لا يحق لك أن تحصر اختياراتي في تجربة خططت لأبعادها! ولا يحق لك أن ترسم لي طريقي إلى الله، فكلانا يعلم أنك مجرد إنسان لا يعلم الغيب!..

ابتسم فرانشيسكو ودعاني إلى النظر عبر النافذة التي تطل على السوق:

- تعال إلى هنا والق نظرة!..

فخطوت إليها وصعدت الدرجات، ولما وقفت أمامها مطلا على السوق قال فرانشيسكو وهو يشير بكفه:

- أرأيت ذلك الخضار الذي يجلس إلى عربته في أقصى اليمين؟.. إنه ينظر متحسرا إلى زبائن الخضار الذي يقابله، لقد أوشك الأخير على بيع صناديقه كلها في الوقت الذي لم يتمكن فيه هو من بيع ربع الكمية!.. أرأيت تلك السيدة التي تلتفت يمينا و شمالا في هلع وذهول؟! إنها تبحث عن ابنها الضائع، أتدري كيف عرفت ذلك؟!.. انظر إلى أقصى الشمال وسوف ترى ابنها الصغير يبكي بحثا

عنهـا.. أرأيـت ذلـك التـاجر الـذي يسـارع فـي حمـل بضـاعته عـن الرصـيف؟!.. إنـه خـائف مـن أن يحتجـز أعـوان السـلطة بضـائعه عقوبة على عرضها على الرصيف المخصص للمشاة!.. أتعلم كيف عرفت ذلك؟!.. انظر إلى مدخل السوق وستلمح سيارة الأعوان قادمة.. هل رأيتها؟!

- نعم رأيتها.. لكن ما المغزى مما تقوله؟!

فضحك قليلا.. وأجاب:

- لو كنتَ وسط السوق لما استطعت أن ترى ذلك كله، لكن وبما أنك في مكان مرتفع تستطيع أن ترى الكثير من الأشياء، وتستطيع أن تحدد مسارها وما يوجد فيه وفي نهايته.. كذلك أنا يا أحمد، إنني لا أعلم الغيب، لكنني في مكان تؤهلني فيه تجاربي إلى معرفة الطريـق الـذي تسـلكه ومعرفـة المصـير الـذي ينتظـرك فـي آخـره.. عندما أطلعك على أمر مستقبلي، فهذا لا يعني أنني أعلم الغيب، بل لأنني أقف على مرتفع من الجبل في الوقت الذي تقف فيه أنت على سفحه، واعلم جيدا أن الطريق إلى الله يلزمها معلم عـارف بمسـارها، متمـرس فـي قهـر العقبـات التـي تملؤهـا، وإلا فستكون عرضة للشيطان في كل خطوة تخطوها نحو الله، ولا يخفى عليك أن الغاية من خلق الشيطان هي منعك من الوصول إلى الخالق..

تمعنت في كلامه للحظات وأنا أراقب السوق.. ثم أخبرته بما يجول في عقلي:

- أعلم جيدا أنك تريد أن تجعلني تلميذا لك.. لكن لماذا؟ وماذا ستستفيد من ذلك؟!

فابتعد عن النافذة، ونزل الدرجات.. ثم أجاب واضعا يديه خلف ظهره:

- لن أستفيد شيئا أحمد، فلقد تخلصت من حب الإفادة منذ زمن، وعلمت يقينا بأن الإفادة من الله وليست مني أو من غيري.. فلو شعرت بأنني أفيدك أو أنني أتميز بشيء ولو للحظة؛ سأكون قد أحييت أناي التي صارعت طويلا من أجل قهرها.. إن ما يحملني على اتخاذك تلميذا، يكمن في كونك شخصا قليل التعلقات، شخصا خمولا كسولا لا يتطلع إلى الحصول على شيء، شخصا هادئا لا يغريه أغلب ما يغري شباب اليوم.. كل هذه العوامل تجعلك تلميذا يسهل الاشتغال عليه وإيصاله إلى حضرة الرب..
- وهل من الضروري أن تحصل على تلميذ؟!
- عدم حصولي على تلميذ، يعني أنني لن أمَرِّرَ الأسرار التي تلقيتها من نعمان الخضار!.. في هذه الحالة سينقطع سندي المعرفي، ولن تكتمل رسالتي في هذه الحياة!..

نظرت إليه مليا.. ثم قلت له:

- إن لزمت صحبتك هنا؛ فستفوتني مصالح كثيرة!

أجاب مبتسما:

- لا تحزن إن فاتتك المصالح، فهذه الدنيا ستفوت أيضا!

فطأطأت رأسي.. ثم صارحته بقناعتي متأسفا:

- أشكرك على كل ما فعلته من أجلي! وأقدر جيدا الدروس التي علمتني إياها خلال غيبوبتي!.. لكنني لست مؤهلا لكي أحمل أسرارك، سأعود إلى بلدتي الهادئة، وسأحاول الوصول إلى معرفة الله بعيدا عن الضجيج، ولوحدي!.. إن الله يوجد في كل مكان،

ولا أظن أنه سيبخل علي بمعرفته إن علم مني صدق الرغبة في تحقيق ذلك.. أستودعك الله يا فرانشيسكو!..

فخرجت من مكتبه.. ولما أوشكت على الخروج من المتجر، قال بنبرة لا تخلو من اليقين:

- قد تقول إنك لا تريد من هذا العالم شيئا سوى الانعزال والابتعاد عن مصادر الإزعاج.. لكن، دعني أخبرك بأن ما ستدفعه ثمنا للعزلة أغلى مما ستدفعه وأنت بين المشاكل والضجيج؛ فلاشيء يؤخذ بالمجان!..

غادرت متجر فرانشيسكو ورأسي يغلي من الحيرة وتضارب الأفكار!.. هل كان القرار الذي اتخذته أمرا صائبا، أم أنني أضعت للتو فرصة ثمينة لا تعوض!.. يقول الله إنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فما حاجتي إلى فرانشيسكو ليدلني عليه؟!.. لكن الله يأمرنا أيضا بأن نبتغي إليه الوسيلة! فما المانع من أَلا يكون فرانشيسكو وسيلتي إلى معرفة الله؟! ربما لم أبلغ بعد ذلك المستوى الذي سأكون فيه قادرا على معرفة الله! لكن إلى متى سأظل مثل هؤلاء الغافلين الذين يتعلقون بسفاسف الأمور؟!.. يجب علي أن أتميز عنهم بالتقرب إلى الله! لكن فرانشيسكو قال بأن الرغبة في التميز هي نفسها الأنا التي تبعد العبد عن مولاه!.. رباه! ما هذه الحيرة؟! علي أن أذهب إلى أقرب مسجد لأستخير الله!..

دخلت إلى أول مسجد أصادفه في طريقي.. نزعت حذائي ووضعته في كيس بلاستيكي، ثم تقدمت إلى رف قد تم تثبيته على سارية في الركن الشرقي ووضعته عليه.. للوهلة الأولى ظننت أن المسجد كان فارغا.. لكنني فوجئت بصبي صغير يستند على السارية ويقلب بصره في سقف المسجد!.. فتعجبت من فعله؛ وسألته بصوت منخفض:

- هييه.. عماذا تبحث؟!

نظر إلي وأجاب ببراءة:

- أبحث عن الله!

اقشعر بدني من كلامه.. ثم سألته مجددا:

- ومن قال لك بأن الله في المسجد؟!

أجاب بعد تردد قصير:

- عندما أكون راغبا في مقابلة أصدقائي أقصد بيوتهم؛ فأجدهم بها.. لذلك قصدت المسجد لأجد الله، ألا يقولون أن المسجد بيت الله؟!

أسكتني جواب الطفل الصغير.. لكن سؤالا خطر على ذهني أرغمني على طرحه عليه:

- قل لي يا صديقي.. ماذا ستفعل لو أنك عجزت عن الوصول إلى بيت صديق لا تعرف طريق بيته؟!

أجاب الطفل على الفور:

- سأعتمد على صديقي محمد!..

فسألته متعجبا:

- ولماذا محمد؟!

أجاب معللا:

- لأن محمد يعرف جميع الطرقات بالمدينة، ويعرف جميع البيوت!.. لاشك أنه سيدلني، وسيختصر الطريق قدر الإمكان!..

فابتسمت ابتسامة عريضة!.. وعرفت ما علي فعله!..



يعود أحمد بطل الرواية إلى بلدته صيفا ويرفقته ثلاثة أصدقاء.. تتطور الأحداث على نحو جنوني؛ ليقوموا باستدعاء قرين المتنبي عن طريق السيمياء.. هذا الأخير الذي يعتبر الوجه الثاني لأبي الطيب المتنبي، والذي أوحى له بالشعر وشكل جزءا هاما من شخصيته، يتمرد على الأوضاع ويُدخل معه أحمد وأصدقاءه في مخطط يروم إكمال طموح المتنبي القديم والوصول إلى المجد والسلطة.. وبفضل عبقرية هذا الأخير وبراعته في الإقناع يوافق الرفاق على ذلك؛ لتنقلب حياتهم رأسا على عقب وتدخل في دوامة من الأحداث التي تنتهي بنهايات صادمة لم تكن في الحسبان، حيث يكتشف أحمد في آخر المطاف بأن الأمر يتعلق بشيء أكبر وأكثر إدهاشا للعقول...



دار تسراس للنشر والتوزيع
ⵜⴰⵙⴷⴷⵓⵔⵜ ⵏ ⵜⵥⵕⵉⴳⵉ ⵜⵉⵙⵔⴰⵙ
EDITIONS TISRASSE